أصول تزكية النفس وتوعيتها

محمد باقر السيستاني

قد أفلح من زكاها

الجزء الأول

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

شبكة الفكر
alfeker.net

أصول
تزكية النفس وتوعيتها

أصول تزكية النفس وتوعيتها

محمد باقر السيستاني

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
٢٠١٨ م ـ ١٤٣٩ هـ

ISBN: 978-9953-977-01-0

دار المؤرخ العربي

بيروت ـ حارة حريك ـ قرب جامع الحسنين ـ فوق صيدلية دياب ـ ط ٢
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ ـ ٠١ ـ هاتف: ٥٤٤٨٠٥ ـ ٠١ ـ ص.ب: ٢٤/١٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته، الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العيون من عجائب قدرته، وردع خطرات هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته، والذي لم يخل خلقه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتى تمت بنبينا محمد ﷺ حجته، وبلغ المقطع[1]عذره ونذره.

وقد شرع سبحانه لهم دينه فسهّل شرائعه لمن ورده، وأعزّ أركانه على من غالبه، فجعله برهاناً لمن تكلم به وشاهداً لمن خاصم به، ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر، وآية لمن توسم، وتبصرة لمن عزم، وعبرة لمن اتّعظ، ونجاة لمن صدّق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوّض، وجنة لمن صبر، فهو أبلج المناهج، واضح الولائج، مشرَف المنار، مشرق الجواد، مضيء المصابيح، كريم المضمار، رفيع الغاية، جامع الحلبة، متنافس السبقة، شريف الفرسان. التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته.

صلى الله على رسله وأنبيائه صلاة غادية ورائحة، ولا سيما على خاتمهم محمد عبده ورسوله، الذي أرسله وأعلام الهدى دارسة، ومناهج الدين طامسة، فصدع بالحق ونصح للخلق وهدى إلى الرشد وأمر بالقصد.

وعلى أهل بيته المُصطَفَينَ الذين عندهم أبواب الحكم وضياء الأمر، وقد

---

(١) مقطع الشيء نهايته لانقطاعه بها، وقد ورد التعبير في نهج البلاغة (ج:١ ص:١٧٧).

أوجب الله سبحانه على الأمة التزام سمتهم واتّباع أثرهم، إذ لم يكونوا ليخرجوهم من هدى أو ليعيدوهم في ردى، فمن سبقهم ضلّ ومن تأخر عنهم هلك.

وعلى أصحابه الذين صدقوه وأطاعوا أمره واقتفوا أثره، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى قيام يوم الدين[١].

((عباد الله إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين، لا يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه. آخر فعاله كأوله. متسابقة أموره، متظاهرة أعلامه. فكأنكم بالساعة تحدوكم حدو الزاجر بشوله، فمن شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات وارتبك في الهلكات، ومدت به شياطينه في طغيانه، وزينت له سيء أعماله. فالجنة غاية السابقين والنار غاية المفرطين.

اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه. ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى.

عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم وأحبها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طرقه، فشقوة لازمة أو سعادة دائمة، فتزوّدوا في أيام الفناء لأيام البقاء، فقد دُللتم على الزاد وأُمرتم بالظعن وحثثتم على المسير. فإنما أنتم كركب وقوف لا يدرون متى يؤمرون بالمسير. ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة، وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه، وتبقى عليه تبعته وحسابه.

عباد الله إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا في ما نهى عنه من الشر مرغب. عباد الله احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال، ويكثر فيه الزلزال، وتشيب فيه الأطفال.

اعلموا عباد الله أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم. لا تستركم منهم ظلمة ليل داجٍ، ولا يكنكم منهم باب ذو رتاج، وإن غداً من اليوم قريب، يذهب اليوم بما

(١) فقرات هذه الخطبة مقتبسة من نهج البلاغة والصحيفة السجادية.

فيه ويجيء الغد لاحقاً به، فكأن كل امرئ منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته ومخط حفرته. فيا له من بيت وحدة، ومنزل وحشة، ومفرد غربة.

وكأن الصيحة قد أتتكم، والساعة قد غشيتكم، وبرزتم لفصل القضاء. قد زاحت عنكم الأباطيل، واضمحلت عنكم العلل، واستحقت بكم الحقائق، وصدرت بكم الأمور مصادرها، فاتعظوا بالعبر، واعتبروا بالغير، وانتفعوا بالنذر))[1].

وبعد فإن أهم ما يلزم على الإنسان في هذه الحياة بعد العلم بحقيقتها وآفاقها وغاياتها من خلال الإيمان بالله سبحانه ورسله إلى خلقه والدار الآخرة هو توعيته لنفسه وتزكيته إياها، بتحليتها بالفضائل وتنقيتها من الرذائل، حتى يتمثل علمه في عمله واعتقاده في سلوكه، فيكون نوراً يستضيء به في هذه الحياة ويسير بين يديه وبإيمانه في يوم القيامة. فتزكية النفس وتربيتها هي فرض عين على كل إنسان راشد، إذ لا فلاح من دونها ولا سلامة بغيرها، فمن افتقر إليها استغنى ومن استغنى عنها افتقر، فبزكاة النفس يتأتّى فعل الطاعة وترك المعصية، إذ ما من طاعة إلا ومبناها فضيلة وما من معصية إلا ومرتكزها رذيلة، ولا قدرة للإنسان على التحكم في أفعاله عند التعرض للافتتان إلا بالاستناد إلى سجية فاضلة ثبت أساسها، واستقباح رذيلة بنى على مجانبتها، وإلا لم ينجح في الاختبار وسقط في مواضع الفتنة في الامتحان، ومن ثم لزم كل إنسان حكيم أن يسعى لتربية نفسه وتهذيبها أخذاً للعدة في هذا الجهاد، ومن اقتحم مضمار العمل من غير أن يتجهز فهو كمن دخل ميدان القتال من غير عدّة، وهو مفرّط بنفسه ومخاطر بها إلى الهلاك.

وقد أقسم الله تبارك وتعالى على هذا المعنى للإنسان بجميع الكائنات التي يراها في مشهد هذه الحياة، وتهيمن عليه من الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض وبالنفس الإنسانية وخالقها فقال[2]: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ۝

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:٥٣.

(٢) الشمس:١-١٠.

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۞ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾.

وقد روي عن النبي ﷺ[2] في بعض الحديث أنه بعث سرية فلما رجعوا قال: ((مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي الجهاد الأكبر))، قالوا يا رسول الله: وما الجهاد الأكبر؟ قال: ((جهاد النفس)). وفي حديث آخر[3] أنه قال ﷺ: ((أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه)).

والوجه في اعتبار تزكية النفس جهاداً، وجعلها أكبر من جهاد الأعداء ـ مع ما فيه من تعريض النفس للتهلكة، وهي أعز الأشياء لدى الإنسان ـ أن التزكية لا تتأتّى بدون جهد جهيد وسعي حثيث وعمل دؤوب، ورب إنسان تكون مخاطرته بنفسه إذا أثيرت أسهل عليه من انتظار بحق وسكوت بحكمة وصبر في أناة، لما يتجرعه حينئذٍ من غصص ويشعر به من مرارة ويعانيه من كبت. ولذلك ورد[4] ما يفيد أن من مات على فراشه عارفاً بالله وبحق رسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ـ وهو مستعد للتضحية بنفسه في سبيلها ـ يعطى ثواب القائم المستشهد في سبيل الله، وإن لم يضرب بسيف ولا قاتل بسلاح، وفي مثله ينطبق ما ورد في الأثر[5] من أن نية المؤمن خير من عمله.

---

(١) الأعلى:١٤-١٧.

(٢) الكافي ج:٥ ص:١٢.

(٣) الأمالي للصدوق ص:٥٥٣. ومعاني الأخبار ص:١٦٠. وحكى البيهقي ما يقرب منه في كتاب الزهد كما في تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ج:٢ ص:٣٩٥، وكنز العمال ج:٤ ص:٦١٦.

(٤) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٣٣.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٨٤.

كما إن المجاهد في الحرب مقاتل لغيره، وشاهد لنفسه في قبال خصمه، والمجاهد لنفسه كأنما يقاتل ببعضه بعضاً، وهو في ذلك شهيد على نفسه بالحق، وقتال المرء لنفسه وشهادته عليها أشق من قتاله لغيره وشهادته عليه، إذ لا يتماثل عدوه أمام عينه فيأخذ حذره منه، بل ينفذ إلى داخله متنكراً من بين جوانحه في صورة محببة له، ويتترس وراء رغباته وميوله.

ثم إن جهاد العدو إنما يكون في أيام معدودة، وجهاد النفس يحتاج إلى مرابطة دائمة، لأن النفس عرضة للانحراف في كل حين، فلا يتأتّى الاستمرار عليه إلا بمزيد من العزم والبصيرة والثبات.

وليعلم أنه لا يذوق المرء طعم العلم والإيمان وحقيقتهما إلا بالوعي والزكاة، إذ ليس العلم معانيَ يخزنها الإنسان ويعتقدها، بل حقائق يعتبرها ويستنير بها، ومن ثم جاء[1]: ((ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه))، وقد قال عزّ من قائل: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. فليرغب مؤمن في مجاهدة نفسه وتزكيتها، وليكونن ناصحاً لنفسه فيه، فمن خادع الله فقد خدع نفسه، واستدرجه الله تعالى من حيث لا يحتسب.

بل لا يصل الإنسان إلى كثير من العلم اللازم له في دنياه أو آخرته إلا بتزكية نفسه حتى يكون مستعداً لاستقبال هذا العلم، فيسعى في تحصيله ولا يعرض عن قبوله.

وبهذا الاعتبار كانت ضرورة التوعية والتزكية مبدأً سابقاً على تحصيل العلم والحكمة، لأنها تضمن وجود الداعي إلى تحصيله واستقباله، كما إنها تحث على اتّباعه والعمل به بعد حصوله.

وجلّ جهل الإنسان ناشئ عن أحد عاملين ..

أما أحدهما فهو اللامبالاة تجاه ما يلزم الاطّلاع عليه، تثاقلاً عن البحث أو تساهلاً في تحصيل المعلومة الصحيحة، وإخلاداً إلى الانطباعات الواهنة

---

(١) بحار الأنوار ج:١ ص:٢٢٥.

والأماني القائمة.

وأما الآخر فهو التعصب عن قبول الحق والاستنكاف من الإقرار بالخطأ.

وكلا العاملين مما يتعالج بالتوعية والتزكية، لأنها تدعو إلى الاهتمام بكل شيء بحسب ما يليق به والتثبت حوله على وجه مناسب، ثم الإذعان بما يظهر من الحق والانقياد له.

وكأنه لما ذكر من سبق التزكية على التعليم قدّم ذكرها في القرآن المجيد حيناً، إذ قال سبحانه[1]: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾، كما جعل تعالى الكتاب هدى للمتقين فقال عزّ من قائل: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

كما أخّر ذكرها حيناً آخر، نظراً إلى دورها في التحفيز على السلوك العملي، كما قال تعالى[2] عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

ولا يختص هذا المعنى بالتزكية الدينية الناظرة إلى تحصيل رضا الله سبحانه والعمل بما فطر عليه الإنسان والتهيؤ للقائه والدار الآخرة، بل إن كل علم نافع لا يستغني عن استعدادين اثنين: استعداد نفسي سابق لاستقباله، واستعداد آخر لاحق للعمل به بعد الوقوف عليه.

هذا، وليس المراد بتوعية النفس ـ في عنوان البحث ـ تحصيل المرء للعلم بما هو الحق والصواب بل ضرب من التنبّه والتبصّر للإنسان، لما فرغ عن حقانيته وصوابه، حتى تكون فاعلة في النفس ومتمكنة منها ومؤثرة في العمل بمقتضياته ومستتبعة لتفريعاته وآثاره، فقد ترى المرء يذعن بشيء ككون ممارسةٍ ما ـ كالتدخين ـ ضارة، إلا أنه لا يعي هذه المعلومة بما تقتضيه، ومن ثم لا يثير في

---

(١) الجمعة:٢.

(٢) البقرة:١٢٩.

نفسه الخوف من تلك الممارسة ولا يجتنبها.

والتوعية بهذا المعنى أخت التزكية وقرينتها، بل تطلق التزكية في النصوص على ما يشمل التوعية لكن حيث شاع التعبير بها عن البعد العملي من العملية التربوية ذكرت التوعية معها، وربما استغنيت عن ذكر التوعية معها نظراً إلى المعنى العام لها.

وبذلك كانت هذه الأوراق تذكرة بأصول تزكية النفس وتوعيتها، أو قل: (قواعد السلوك الحكيم في الحياة)، مهتدياً إليها بشهادة العقل الذي منحه الله تبارك وتعالى للإنسان، ودلالة الفطرة التي فطره عليها، في موارد قضائهما الصريح وإدراكهما الواضح، وبما تيسر فهمه من كتاب الله سبحانه، الذي كان خاتم الرسالات الإلهية إلى خلقه، وقد بقي بفضل الله محفوظاً مصوناً لم يمسّه تحريف ولا تغيير، وبقيت لغته حية وناصعة ومفهومة للجميع، وانتفت الشبهات في فهمه بدلالة النبي المرسل ﷺ وعترته الذين هم أحد الثقلين في هذه الأمة، وهو دلالة تنبيه ولفت وتوعية وإيقاظ، يشهد بسلامته الكتاب نفسه، ويدل على صوابه استنطاقه والتعمق فيه.

وقد كان من أهم مقاصد القرآن كسائر الرسائل الإلهية توعية الناس بإيقاظ عقولهم وتزكيتهم بتصفية نفوسهم، قال الله سبحانه[١]: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾.

ولقد صدق أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال[٢]: ((واعلموا أن هذا القرآنَ هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى أو نقصان في عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال. فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه

---

(١) الجمعة:٢.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٩١-٩٢.

بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنه شافع مشفع وقائل مصدق. وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة : (ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن)، فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم)).

وقال عليه السلام[(١)]: ((وإن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره)).

وقال عليه السلام[(٢)]: ((فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق. حجة الله على خلقه أخذ عليهم ميثاقه. وارتهن عليه أنفسهم أتم نوره، وأكمل به دينه، وقبض نبيه صلى الله عليه وآله وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به. فعظموا منه سبحانه ما عظم من نفسه. فإنه لم يخف عنكم شيئاً من دينه. ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلا وجعل له علماً بادياً وآية محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه)).

وقال عليه السلام[(٣)]: ((ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يُظلِمُ ضوءُه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغُدرانُه، وأثافيُّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه. وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتِحون، ومناهل لا يَغيضُها الواردون، ومنازل لا يضلُّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون. جعله الله رِيّاً لعطش العلماء، وربيعاً

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:٩٥.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:١١١.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٧٧-١٧٨.

لقلوب الفقهاء، ومَحاجّ لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجُنّة لمن استلأمَ، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى)).

وقال عن أهل بيت نبيه (صلوات الله عليهم)[1]: ((فأين تذهبون وأنى تؤفكون. والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم، وهم أزِمّة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق. فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، ورِدوهم ورود الهيم العطاش)).

والعذر في قيام مثل هذا الأقل بذكر وجوه النصح والدلالة ـ مع ما يعلمه من نفسه من وجوه القصور والتقصير في جنب الله عزّ وجل ـ ما وصى به سبحانه أهل الإيمان من التواصي في ما بينهم بالحق والصبر. على أنه لم يقصد القيام مقام الناصح والدليل، وإنما نوى عرض ما أودعه الله سبحانه في فطرة خلقه، وضمّنه رسائله إلى خلقه، ونطق به أولياؤه في تذكير الناس بمقدار ما وسعه فهمه، مقتصراً على طرف من القول فيه مما حضره عند التأمل في ذلك، منتفعاً بنصائح سيدنا الأستاذ (دامت بركاته)، فإن يكن قد أصاب فهو من آثار فضله تعالى وإنعامه، وإن يكن قد أخطأ في شيء فذلك من تقصيره في إيقاظ الفطرة والاطلاع على الحجة.

وحيث كانت الرسالة حول تزكية النفس وتوعيتها فهي مبنية على الفراغ عن تحصيل المرء للاعتقاد الصحيح حول الحقائق الكبرى للحياة، ومن ثم لم أسعَ فيها إلى إثبات تلك الحقائق ودفع ما أثير حولها من وجوه الشبهة، إلاّ ما جاء من ذلك عرضاً، على أنّ في إيضاح تلك الحقائق حسب التلقي السهل والبسيط لها ما يقرّب المرء إلى الإذعان بها.

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:١٥٣ـ١٥٤.

وليحذر الناظر من حمل بعض ما جاء في هذه التذكرة على غير وجهها أو تغييرها عن وجهتها، فإن لكل جملة سياقها، ولكل معلومة ذكرت رسالة أريد إيصالها، على إني لا آمن من نفسي قصوراً أو تقصيراً في فهم أو أداء، إلا أن يكون الله سبحانه قد صانني عن ذلك، بلطفه ومنّه، فإنه أملك بنا من أنفسنا، وهو ولي التسديد.

نسأله سبحانه الهدى والعفو والمغفرة لنا ولجميع خلقه، الذين هم رهائن إلى رحمته وعفوه، ونسأله أن يسدد أفهامنا ويزكي نفوسنا ويصلح أحوالنا جميعاً، ولا يكتبنا في الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر الفاعلين له. سبحانك اللهم وبحمدك، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

ولتزكية النفس وتوعيتها دعائم وأصول ثمانية، هي على الإجمال ..

الأول: التحلي بروح الحكمة في الحياة.

الثاني: قوة العقيدة بأصول الدين التي تمثل حقائق الوجود الكبرى ورسوخها.

الثالث: الاطلاع على أصول سنن الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الظاهرة منها والباطنة، للتعامل الحكيم معها بالعمل على وَفقِ سنن السعادة دون الشقاء.

الرابع: معرفة الإنسان بنفسه والسنن النفسية حتى يتمكن من سوقها على وَفقِ سنن السعادة سوقاً راشداً، ويحذر نموّ بذور الشرّ والشقاء فيها.

الخامس: معرفة الفضائل والرذائل التي هي السنن التفصيلية الواضحة للخير والشر والوقوف على آثارها حتى يكون ذلك ممهداً وحافزاً إلى تحصيل تلك وتجنب هذه.

السادس: اتباع السُنّة واجتناب البدعة، تبيّناً للسنن التفصيلية في ما تشابه الأمر فيه على العقل، فينبغي أن يهتدي فيه بالشرع.

السابع: رقابة الإنسان على نفسه ليكون قيّماً عليها بين تناقض مقتضياتها وتضاد جهاتها فيأمن خداعها ويضمن صوابها.

الثامن: تربية النفس على الأعمال الصحيحة، وتجنب الأعمال الخاطئة، وتنمية القيم الفاضلة، وإيجاد الملكات المساعدة، وإرساء المشاعر السائدة، وتكوين العادات الصحيحة.

ولو تأملت لوجدت أن مثل هذه الأصول مما يحتاج إليه أي مشروع تربوي جمعي فلا بد في المشروع التربوي من ..

أولاً: الانطلاق من غاية تربوية.

ثانياً: قراءة الحقائق التي يأخذها المشروع بنظر الاعتبار وتفهمها.

ثالثاً: معرفة أصول القواعد التي يخضع لها العمل.

رابعاً: معرفة قابليات من يقوم المشروع بحقه.

خامساً: معرفة المفردات التي يجري العمل على ترسيخها.

سادساً: معرفة الوظيفة في الحالات المتشابهة والمرجعية التي يتعين الرجوع إليها.

سابعاً: وجود رقيب يرصد موارد الخطأ ويقي المشروع من الانحراف.

ثامناً: بعد إنجاز ذلك كله يجري العمل التربوي على وَفقِ أصول التربية النفسية والاجتماعية.

تذكير بأهمية التعقل

قبل الكلام في هذه الأصول ينبغي ذكر مقدمة في التذكير بأهمية التعقل في الأمور كلها، فإن رأس مال المرء في كل أموره في الحياة هو التعقل، فالتعقل هو نبراس الحياة وضياؤها وجماع الخير ورأس الفضائل ومنبع الكمالات، وما منّ الله تعالى على عباده بنعمة مثل العقل السليم والإدراك الصحيح، وإذا أراد سبحانه بأحد خيراً كمّل له عقله وأنار بصيرته وكان من أحبّ خلقه إليه، وإذا أراد به شراً يستوجبه بأعماله سلب عقله حتى يكون يقينه شكاً وعزمه وهناً وإدراكه وهماً.

وليعلم أن العقل اثنان عقل فطري وآخر مكتسب ..

فالفطري منه ما جهز به الإنسان في أصل خلقه وتميّز به عن البهائم من قوة يدرك بها مقدمات الأشياء وعواقبها ويوازن بين نفعها وضررها، وضمير انطوى عليه يدرك به محاسن الأفعال ومقابحها.

والمكتسب منه تنمية لما غرس فيه بالتفكير الدائب والتأمل السليم ومزاولة الحياة والاعتبار بالتجارب والحرص على معرفة الحق والحقيقة.

وقد بعث الله تعالى الأنبياء لتحريك إدراكات الإنسان وإثارة دفائن عقله، لينتبه لحقيقة المشهد الذي يجده ويعيش فيه ويدرك أبعاده وسننه وآفاقه، فينسق بينه وبين تصرفاته ليستثمر هذه الحياة على النحو الأمثل.

وعليه فخليق بكل إنسان بلغ سنّ الإدراك والرشد، وعرف أن الحياة هادفة لا عبث فيها وجادة لا هزل في تكوينها أن يتعهد بتنمية عقله وصقله على الدوام، حتى يزداد يوماً بعد يوم بصيرة وهدى ويستزيد حكمة وسداداً، ليعيش حياة محسوبة خطواتها بيّنة غاياتها.

ويتأكد وجوب ذلك على من وقع في موقع الريادة لغيره في شأن من شؤون الحياة، كالآباء لأولادهم والمعلمين لتلاميذهم والمديرين في دوائرهم والقادة في شؤون قيادتهم، فيجب على كل هؤلاء مزيد التعقل في الأمور، لأنهم

يتحملون مسؤولية الآخرين الذين يوجهونهم، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾.

مفاتيح التعقل

وليعلم أن مفاتيح التعقل أربعة ..

١ ـ مجانبة الهوى، فإن الأهواء مغاليق للعقل وحواجب للإدراك، فمن غلب عليه هواه كان حجاباً بينه وبين الأشياء، يلوّنها بصبغته ويحورها على وَفقِ رغبته، فلا يرى في مرآة عقله إلا نفسه وأهواءه، متنكرة في لبوسها، متخفية في مظاهرها وصورها. ولا يشفع له حينئذٍ خبرته وفطنته فكم صاحب خبرة ارتجت عليه خبرته، وصاحب فطنة تلبدت عليه فطنته، إذ غلبه هواه فلم يكد يبصر شيئاً.

ومن سلم من الهوى توقّدت بصيرته وانفتحت منافذ عقله وبصّره الله تعالى بأمور الدنيا على حقيقتها وعرّفه خيرها وشرها، فإن لم يتيسر له ذلك فلا أقل من أن يلتفت إلى أن الأمر من مواطن الشبهة، فيقف عنده ويأخذ حذره منه، وقد ورد في الحديث الشريف[2]: ((إنما الأمور ثلاثة، أمر بيّن رشده فيتبع، وأمر بيّن غيّه فيجتنب، وأمر مشكل يُردُّ علمه إلى الله ورسوله))، و((إن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات)).

٢ ـ التثبت والحذر، فإن الله خلق الإنسان وهو لا يعلم شيئاً، فهو على هذه الصفة حتى يتعلم، فلا ينبغي أن يتعجل في الحكم ويتسرع في الاستنتاج ويتساهل في الإثبات، ويستحي من التوقف ريثما تتضح الرؤية وينضج التقدير ويستحكم الرأي. وعلم الإنسان بجهله نصف علمه، حيث يتأتّى له التعلم والحذر والاحتياط، ومن جهل بجهله فقد جهل الشيء مرتين وعجز عن أن يتعلم أو يحذر، فارتكب الخطأ ووقع في الخطيئة.

٣ ـ الأخذ بالمشورة والانتفاع بتجارب الآخرين وخبراتهم، فإن من شاور

---

(١) العنكبوت:١٣.

(٢) الكافي ج:١ ص:٦٨.

الناس شاركهم في عقولهم، وقد خلق الله تعالى الناس يحتاج بعضهم إلى بعض في التعقل والإدراك كالحاجة في ما بينهم في المعيشة وتهيئة شؤون الحياة، وجعل رأي الجماعة أقرب إلى الصواب مما يعقله الشخص بنفسه، لما فيه من تراكم الخبرات وتعاضد الدلالات.

ولا ينبغي للعاقل أن يجرّب أمراً تمت تجربته واستخلص عبره، فإن تجربة المجرب تسبب الأذى وتطيل الطريق وتبعث على الندامة.

هذا، وإن في منهج الأجيال السابقة مواريث من العقلانية والحكمة تتمثل في طيف واسع من السنن والآداب الاجتماعية والعلمية والعملية، هي عصارة من تجارب الحياة وما أفضت إليه من وجوه السلوك السليم والعمل الحكيم، ينبغي للأجيال اللاحقة تعلّمها والاقتداء بها، وتربية أنفسهم عليها، وتجنب إعادة تجربتها وتجرّع مرارتها ومضاعفاتها، مع ما يوجبه من إنهاك للنفس وخسارة للوقت وإضاعة للفرصة وغير ذلك من المحاذير الفردية والاجتماعية.

٤ ـ الاطلاع على السنن الكونية ذات العلاقة في الأنفس والآفاق، فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذا العالم في شيء من شؤونه على سنّة الارتجال بأن يوجده في كل آن خلقاً جديداً غير ذي علاقة بما تقدمه ولا مستتبع لما لحقه، بل خلقه بقدرته على سنن جارية وموازين قائمة يستتبع بعض حلقاته بعضاً، فمن أراد استثمار هذه الحياة كان عليه أن يتعقل سننها وقواعدها ويعرف أسبابها ومسبباتها، فيسلك في السير إلى كل مقصد سبيله ويلتجئ في تحصيل كل مسبّب إلى سببه، ولا يلقي الأمور على عواهنها من غير روية وتدبير، فيفاجأ بانتقاض غرضه وتخلف مقصده.

ومما يساعد على ذلك أن يتأمل المرء في كل شيء أو حدث في الحياة في أمر نفسه أو أمور الآخرين نِظرة حكيمة، ويلتفت إلى ما يمكن أن ينبه عليه حتى كأنه مفردة من مفردات الدراسة وهي فعلاً كذلك، فإن في كل شيء درساً من دروس الحياة فإذا وجد خطأً من نفسه التفت إلى كونه معرضاً للزلة فلم يكثر من ادعاء العلم ومزاعم اليقين في غير مواضعها ثم تأمل سببها من تسرع أو غيره

فاعتبر به كي لا يقع في أمثاله، وإن وجد فناءً كذبول زهرة أو خراب بيت أو ممات إنسان تذكر رحيله عن هذه الحياة وقلل ذلك من الركون إليها والحرص في سبيلها والتوصل بكل وسيلة إلى متعها، وإن وجد في امرئ تجاوز القيم الفاضلة ليتوصل إلى بعض الملذات فأخفق في ذلك اعتبر به كيف ذهب جهده سدى وسعيه باطلاً ولكن أعماه طلب اللذة فسعى سعياً باطلاً، وأن القيم النبيلة أولى بالسعي لأهلها، فما بال المذعن بها يتساهل في طلبها والراغب في اللذائذ يتفانى من أجلها، وإن وجد أن امرأً دبر مكيدة لأخيه فوقع فيها أو في مثلها اعتبر بجهله ورأى أن فيه عظة عن أن يكيد الإنسان غيره وعبرة على أن المرء يدان كما يدين وما إلى ذلك.

ولا غنى عن التعقل في الأمور وتقليبها واستبطانها واستشارة أهل الرأي الموثوق بهم فيها حسب ما يتيسر بمزاعم التوكل ودعاوى الإخلاص والتوسل إلى استخارة الله تعالى والتعبّد له، فإن ذلك جهل بسنن الحياة وسوء فهم للشريعة والدين وتخليط في الأمور، لأن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء سبباً وإلى كل مقصد سبيلاً، ووهب للإنسان قوة عاقلة يدرك بها ما وسعه، ويستكشف بها ما جهله، فعليه أن يستعين بهذه القوة وما تفتق عنه من أدوات. فمن سلك في الأمور غير سُبلها وترك التمسك بأسبابها أغلقت عليه منافذها وأوصدت في وجهه أبوابها، ولم توجب له بركات الأرض ولا فتحت له أبواب السماء، ومن توكل على الله تعالى ولجأ إلى ما جعله من الأسباب أوتي بركاتها، فإن أغلقت عليه أبواب الأرض فتحت له أبواب السماء حتى يقدر له الخير في ما استخار الله فيه ويسدده الله في ما عجز عنه من حيث لا يحتسب.

فينبغي للإنسان أن ينظر إلى هذه الحياة والمسلك فيها نظرة المتعلم، ولا يغادر هذه النظرة مهما بلغ حتى يلقى الله تعالى وهو على هذه الصفة، فلعمري إن هذه الحياة مدرسة للإنسان عميقة أغوارها متسقة صفوفها موصولة مراتبها منظمة درجاتها. ولكل إنسان فيها منزلته حسب مرتبته في التعقل والهدى، ولن يستكمل أحد التعلم ما دام هو فيها ولا يأمن الجهل حتى يلقى خالقها وبارئها.

وعليه أن يعتني بمطالعة التاريخ بتمعن وتفهم، فإن في التاريخ عظةً تساعد على انتفاء الهوى، وآفاقاً توجب مزيد التثبت والحذر، وهو بعد ذلك يعكس تجارب الآخرين فيكون في قوة المشاور الصامت، ويمثل السنن الكونية الاجتماعية والتاريخية في ما تتضمنه من الحوادث.

وقد قصّ الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد جملة من أحسن قصص الأمم السابقة، ناصحاً باستنطاقها وأخذ العبرة والدروس منها، فالناظر في أخبار من سبق بتمعن كالشاهد لها، والواقف عليها كالمختبر لها، فيكتسب بذلك خبرة تغنيه عن عناء الامتحان.

وينبغي أن يتحرز الناظر في التاريخ عن التأثر بالنماذج السيئة أو التفاخر بالآباء والأجداد، فإنه يؤدي إلى التقاعس عن كسب الفضيلة وتحصيل المجد، وذلك حيلة العاجز وذريعة المتكاسل، وإنما كل امرئ ابن يومه وباني غده، فليكن عصامياً يعول على نفسه لا عظامياً يتشبث بذيل أمجاد آبائه، بل لا بد أن يكون مجد الآباء حافزاً إضافياً للأبناء على بذل الجهد في جميع مجالات الحياة والقيم الفاضلة.

ولا يغيبّن عن المرء أحوال مجتمعه وحاضره والتمعن فيها وفي سننها وأسبابها، فإنه أولى بالاطلاع من الحوادث السابقة من جهة حضورها ووضوح ملابساتها، مع ما فيه من العون على معرفة مواضع الشبهة ومواطن الفتنة ليتحرز عنها ويتبصر فيها، فإن من لم يبصر ذلك كان على حدّ الأعمى السائر في طريق محفوف بالمخاطر أو أشبه بالهمج الرعاع ممن يتبع كل ناعق ويصغي إلى كل ناطق، وكثيراً ما يقع من حيث لا يحتسب جزءاً من مشروع لا يشهده وآلة لغاية لم يخطط لها ولا يرى مشروعيتها.

ولا يفرطن في ذلك ليكون شغله الشاغل فيكون صارفاً له عن عمله وموجباً لضياع عمره، ولا يستغرقن في جزئيات أحوال لا قيمة لها ولا أثر للاطلاع عليها، فإنه عمل وضيع ومشغلة تافهة.

وليُعلم أن الإيمان بالدين لا يقلل من عقل المرء وحكمته بل يحفزه ويزيده

كما يظهر من ملاحظة القرآن الكريم حيث يحث دوماً على التعقل والتفكير ويُحاجّ الكفار وعبدة الأصنام وأصحاب الأهواء على أساس قضاء العقل ومدركاته البديهية، وعلى ذلك تجري كلمات نبيه ﷺ وأوصيائه عليهم السلام كما جاء طرف منها في نهج البلاغة، نعم يحول الدين دون التشبث بالتظني والوهم والاستحسان ونحوها ويرى لزوم التعبد بما يرد من النقل الثابت في مواردها، وذلك علامة من علائم الإيمان بل هو من تمام العقل.

فإن وجد المرء من قومٍ أو شخص من أهل الدين أفكاراً وتصرفات مصادمة لثوابت العقل ونوازع الفطرة ـ نظير ما اتفق من الخوارج في صدر الإسلام أو ما يتفق من الجماعات المتطرفة في هذا العصر ـ فليعلم أن ذلك ليس من جهة دياناتهم بل من جهة أمزجتهم وصفاتهم التي لم تهذبها دياناتهم ولم تزكها عباداتهم، فلم يتبصروا بالدين ولا استناروا به ولا تفقهوا فيه، بل أخذوا منه ضغثاً مزجوه بعصبياتهم وأخلاقهم، فيظن الناظر أن ذلك كله من الدين.

وليس الدين هو مجرد إكثار التعبد لله سبحانه وتعالى أو الجهاد في سبيله، بل هو نحو من التعقل الجامع لحقيقة الحياة والحكمة فيها والعمل بموجبها، وربّ تعبد زيّن تصرفات المرء الباطلة لنفسه فازداد به جهلاً، أو قتال نشأ من مآرب خفية أو انفعالات غير مهذبة فظن أنها جهاد في سبيل الله فازداد من الله تعالى بعداً، وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال وقد رأى خارجياً يتعبد في آناء الليل: ((نوم على يقين خير من صلاة في شك))[(١)].

كما ينبغي الالتفات إلى أن التربية الدينية هي جماع الفضائل، فمن وجد في تربيته نقصاً وخللاً فلا يستند ذلك إلى الدين في شيء، بل ينشأ من عدم فهمه للدين أو عدم تمكن الدين من نفسه حتى يكون ملكة له وخلقاً، وإنما حفظه كعقائد آمن بها من غير أن يربي نفسه على مقتضاها.

وكيف لا يكون الدين كذلك مع توجيهه دائماً إلى العقل في أصوله وفروعه وتذكيره بروائع الحِكَم في هذه الحياة مما يهدي طلاب الحكمة والبصيرة،

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:٢٢.

فتأمل ما جاء في الكتاب وقِصار كلمات النبي ﷺ ونهج البلاغة تجد خطاباً متوجهاً إلى العقل منيراً للفطرة محفزاً للضمير محركاً للوعي، وانظر إلى القادة المُصطَفَينَ فيه كالنبي ﷺ ووصيه عليه السلام في سيرتهم وسلوكهم تجدهم من أكثر الناس اعتدالاً وحكمة، وأقواهم فطرة وعقلاً وأوضحهم فطنة وذكاءً وأحسنهم زكاة وتربية حتى كانوا بحق أسوة لسائر الخلق.

ولا يظنن أحد بأن في ما ورد من التعبد في الدين ما ينافي احترام العقل، فإنه لم يرد التعبد بشيء يخالف قضاءً واضحاً للعقل، وما ظن فيه مثل ذلك لا يخلو عن أحد أمرين ..

إما أن يكون العقل بعد استجماع التأمل والالتفات إلى جميع حيثيات الموضوع وأبعاده متحيراً بين خيارات عديدة فيرد الشرع بأحدها.

وإما أن لا يكون للعقل إدراك نافٍ أو مثبت أصلاً، فالتسليم بما تُعبّد به في مثله مما لا ينافي العقل بل هو من تمامه، فإن من وجوه الإذعان المنطقي بالشيء التعويل على أهل الخبرة فيه، وعدم الريبة في قولهم بمجرد ظنون واحتمالات، ألا ترى أن المريض العاقل يعتمد على قول الطبيب الخبير الثقة من دون ترديد يقدح بثقته به وتعويله عليه.

إذا اتضحت هذه المقدمة نشرع في تفصيل الأصول الثمانية المتقدمة مستمدّين منه تبارك وتعالى العون والتسديد ..

الأصل الأول
التحلي بروح الحكمة في الحياة

ويتضمن القول في هذا الأصل بيان أهميته وذكر أصول الحِكم في الحياة، وهي اثنتا عشرة حكمة وهي ..

(١) النظام العام للحكمة (معادلة درجة الإدراك والمُدرَك ومقدار المؤونة).

(٢) مناط أهمية الأشياء ومراتبها.

(٣) قيمة الإدراك بحسب مراتبه.

(٤) رهن قيمة الإدراك بالمناشئ المناسبة دون المبادئ الذميمة.

(٥) في لزوم تحصيل الإدراك وتنميته.

(٦) المخطئ ليس على حدّ المصيب وإن كان معذوراً.

(٧) الاحتمال قبل التحقيق على حدّ العلم في لزوم الاهتمام به.

(٨) أنحاء الاهتمام اللائق بالشيء بحسب مستوى أهميته ومرتبة إدراكه.

(٩) لزوم الاستعداد للاهتمام بالشيء.

(١٠) موانع الاهتمام اللائق بالشيء.

(١١، ١٢) لزوم تناسق السلوك والمشاعر ومراعاة الأولويات.

أهمية هذا الأصل

هذا المعنى هو أساس عملية التزكية والمنطق الذي تبتني عليه، وكل ما بعده من الأصول إنما هو تفاصيل للحكمة والأمور المعينة عليها، وحقيقة الحكمة هي أن تضع كل شيء في موضعه وتحل كل أمر في محله، وهي مفتاح كل خير في الحياة، لأن هذه الحياة ليست مجموعة حوادث اتفاقية من غير ارتباط بينها، بل

لها نظم وقوانين تجري عليها، فمن أحلّ الشيء فيها في محله فقد انتفع به وترتبت عليه بركته، ومن أحلّه في غير محله فقد أحبطه أو أضر بنفسه، قال سبحانه وتعالى[١] في تذكير عباده: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾.

وقد خلق الله الإنسان مزوّداً بأصل هذه الصفة ومنحه قابلية النموّ والارتقاء فيها، وبعث برسائله إلى عباده من خلال رسله لتحفيز روح الحكمة فيه وتعليمه لجُمَلَ من أصول التعاليم الحكيمة إعانة له في هذه المسيرة ومن ثمّ قرن الكتاب بالحكمة قرن العلم بالتزكية، قال سبحانه[٢] في شأن من سبق من رسله والصالحين من عباده: ﴿**فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾، ﴿**وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾، وقال لعيسى عليه السلام[٣]: ﴿**وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾، وقال عن داود عليه السلام[٤]: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾، وقال عن رسوله صلى الله عليه وآله[٥]: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾، إلى آيات عديدة أخرى.

وفي بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام[٦] أن الحكمة: ((حياة للقلب الميت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصماء، وري للظمآن، وفيها الغنى كله والسلامة))، وقال عليه السلام[٧] في بعض ملاحمه يصف قوماً: ((تُجلى بالتنزيل أبصارهم، ويرمى بالتفسير في مسامعهم، ويُغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح))،

---

(١) البقرة:٢٦٩.

(٢) النساء:٥٤، الزخرف:٦٣.

(٣) المائدة:١١٠.

(٤) ص:٢٠.

(٥) آل عمران:١٦٤.

(٦) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٦-١٧.

(٧) نهج البلاغة ج:٢ ص:٣٦-٣٧.

وقال عليه السلام[1]: ((خذ الحكمة أنّى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن))، وقال عليه السلام[2]: ((الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق))، وقال[3] في كلام له يمدح موصوفاً: ((قد لبس للحكمة جُنَّتها، وأخذها بجميع أدبها، من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها، وهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته التي يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرانه. بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه))، فعلى كل إنسان أن يكون من طلاب الحكمة الساعين للتفطن فيها والتفقه في دقائقها، المضحين لتحصيلها والعمل بها.

وليُعلم أن قانون الحكمة ينطلق بالإنسان من أي مستوى يكون عليه من التعقل والعلم وزكاة النفس وطهارة القلب وحسن السلوك والعمل حتى إذا كان مستواه ضعيفاً، فإنه لا يحتاج إلى تهيؤ سابق، بل يكفي أن يتصف الإنسان من العقل بما يقابل الجنون، ومن الرشد بما يقابل الصبا وعدم التمييز، ومن الانتباه بما يقابل الغفلة التامة، فإن أخذ المرء به لم يزل يسير به في مراتب الحكمة حتى يبلغ ما شاء الله أن يتحلى به منها، وإن أعرض عن العمل بمقتضاه توقف نور الحكمة في عقله وفاعليتها في سلوكه وخبط خبط عشواء من غير نظام يسير عليه.

وعلى هذا الأصل يبتني لزوم تحقق الإنسان من حقيقة حياته والمشهد الذي يعيشه فيه من حيث آفاقه ونهاياته، وعوامل النفع والضرر الكامنة فيه، من خلال البحث عن الخالق، وعن الحياة بعد الموت، وعن سنن السعادة والشقاء في هذه الحياة كما دعا إليه الدين الحنيف، إذ لا يجزم الإنسان ـ على أقل تقدير ـ في شأن هذه الحياة بأن أبعادها محصورة بما هو المحسوس منها، وأن حال الإنسان

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٨.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٨.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٠٨.

فيها على حدّ النباتات والحيوانات التي تعيش فيها وتفنى، بل يحتمل أن يكون الأمر أعمق من ذلك كما جاء في الأديان، فتكون لحياته وما يحتف بها وما ينتظرها آفاق عميقة حتى تكون كل تصرفاته وخواطره مراقبة ومؤثرة في مستقبل خالد.

وقد زوّد الله سبحانه الإنسان ـ في جملة ما فطره عليه ـ حُبّ الاستطلاع ليكون عوناً له على تحصيل هذا المهم وحافزاً له على البحث عن هذه الحقيقة الأم في الحياة، نظير تزويده إياه بالجوع والعطش والألم عند المرض والضيق قبل قضاء الحاجة تأميناً لبقائه، وبالرغبة في النكاح تأميناً لحفظ نوعه، فالإنسان مزوّدٌ بحُبّ معرفة حقيقة المشهد الذي يعيش فيه وما يغيب عنه وينتظره على ما يدل عليه التأمل في تاريخ الحياة الإنسانية في مختلف بقاع الأرض، فإن جميع العقائد المتعلقة بالآلهة وبمصير الإنسان بعد الموت وبالقيم الروحية تدل على نوازع البحث والاستطلاع في الإنسان عن أبعاد الحياة والوجود.

وعلى هذا الأصل أيضاً يبتني لزوم تزكية الإنسان لنفسه، إذ سبق أن حقيقة التزكية هي اعتبار الإنسان بما يعلمه من الحقائق والقيم وآثارها بحيث يوليه من الاهتمام ما يناسبه، فيتمثل علمه في سلوكه وأفعاله وتصرفاته.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى ما يدعم هذه الصفة أيضاً في الإنسان من خلال نزوعه إلى العمل بما يعتقده، وتأنيبه لنفسه في داخله إن خالف ذلك حيث يشعر بالجهل والتناقض في حال المخالفة، وهو نظير نزوعه إلى الصدق وشعوره بوخز الضمير عند الكذب، وقد تقدم[1] ذكر ما ورد من أن ((العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه))، والمراد برحيله سلب روح الحكمة منه، الذي هو الطاقة المحفزة التي يتمتع بها العلم بحسب فطرة الإنسان.

---

(١) لاحظ الكافي ج:١ ص:٤٤.

أصول الحِكَم في الحياة

١ ـ النظام العام للحكمة (معادلة درجة الإدراك والمُدرَك ومقدار المؤونة)

(الحكمة ١): مضمون هذا النظام معنى بسيط وبديهي واحد، وهو أن اهتمام الإنسان بالأشياء ينبغي أن يكون بمقدار اطلاعه عليها، وأهميتها له مع ملاحظة مؤونة تحصيلها عليه، فمن اهتم بالشيء فوق أهميته أو تسامح في الاهتمام به على حساب غيره مما هو دونه فقد صادم وجدانه وتمت الحجة عليه في ميزان العقل، وتحمل مسؤولية عمله لدى العقلاء.

وعلى هذا يمكن القول بأن ما يحدد الاهتمام اللائق بالشيء أمور ثلاثة: درجة الإدراك، ودرجة الشيء المدرك، ومقدار المؤونة التي لا بدّ من بذلها لتحصيله.

فهناك موازنة جارية بين هذه العناصر الثلاثة، بمعنى أنه كلما كان الشيء أوضح انكشافاً وأقوى إحرازاً وأقلّ مؤونةً اقتضى ذلك زيادة في الاهتمام به عما لو لم يكن بتلك الدرجة، كما إنه كلما كان الشيء أكثر أهمية كفى في لزوم الاهتمام به مرتبة أدنى من إدراكه، ولزم بذل مؤونة أكبر من أجله إذا احتاج إليها. فهذا هو قانون الموازنة بين الإدراك والمدرك والمؤونة الذي تبتني عليه أمور الحياة كلها.

وعلى ذلك تعتمد قاعدة الموازنة بين الاحتمال والمحتمل والمؤونة في الاهتمام بالأشياء المحتملة مثل الأخطار والأضرار، فمن احتمل في عمل ضرراً يلاحظ مرتبة احتماله بين مراتب الاحتمال، والتي تبدأ بما فوق مرتبة الصفر ـ الذي لا يكون الشيء معه محتملاً ـ إلى ما قبل مرتبة العلم بالشيء الذي يكون معه مجزوماً به مائة في المائة.

ثم يلاحظ درجة الضرر المحتمل على وَفقِ تسلسل مراتب الضرر من أدنى ضرر يفترض إلى أعظم ضرر يُتصور، وليُقدر مائة مرتبة أيضاً، ويلاحظ

أيضاً مقدار الجهد الذي لا بدّ من بذله لتحصيل المحتمل حسب درجاته وليفرض مائة درجة أيضاً، وعليه يضع قيمة الاحتمال والمحتمل والمؤونة في المعادلة ويستنتج لزوم الاهتمام بالمحتمل من عدمه، ودرجة الاهتمام اللائق به.

وعلى هذا القانون يجري العقلاء في أمورهم كلها، فمن احتمل في سفرة له ضرراً من مرض أو أذى، نظرَ فإن كان الاحتمال قوياً وكان المحتمل اعتيادياً من حيث أهميته تجنب السفر حتى لو كانت مؤونة السفر أمراً ميسوراً، وإن كان الاحتمال ضعيفاً ولكن المحتمل قوي كما لو احتمل تعرضَه للقتل ولو بنسبة (٢٠٪) فإنه يتجنبه حتى لو كانت مؤونته قليلة، وإن كان كل من الاحتمال والمحتمل ضعيفاً كاحتمال إصابته بالزكام في السفر بنسبة (٣٠٪) لم يعتد به.

وهكذا من احتمل في تناول طعام ضرراً فإنه إذا كان الضرر المحتمل مما يترتب عليه الموت كسم قاتل تجنّبه ولو احتمله بنسبة (٥٪) مثلاً، ولكن إذا كان الضرر المحتمل مجرد طروء وجع اعتيادي في رأسه لم ير لزوم التجنب عنه وإن قُدّر أنه سوف يتجنبه لو كان يعلم به.

وهذه قاعدة فطرية بديهية لا ترديد فيها، وعليها مدار العقلاء في نظم أمورهم الفردية والاجتماعية مثل الأمراض والمخاطر الحربية والبيئية والحقوق العامة وغيرها، فما من عاقل اهتم ـ ولو بنحو ارتكازي ـ بالتخطيط في أمر نفسه أو مسؤوليته ومجتمعه إلا وجرى على هذه المعادلة، فهذه المعادلة في وجدان الإنسان كالروح من الجسد، والدم الجاري في عروق الجسم المتوزع في كافة أعضائه من رأس إلى قدم من حيث يحتسب الفرد أو لا يحتسب.

ووظيفة هذا القانون في الحقيقة هي تحديد الوقع النفسي المناسب للأشياء المدركة على أساس مرتبة الإدراك وخصوصية المُدرَك، لأن لكل إدراك إنساني وقعاً نفسياً مناسباً له بحسب قانون الفطرة، فللعلم والاطمئنان والظن والاحتمال بمراتبها وخصوصية متعلقاتها قيمة فطرية ينبغي أن تنعكس في النفس الإنسانية، فمن انعكست في نفسه اتصف بالحكمة والرشد، ومن لم تنعكس فيها كان جاهلاً ومخاطراً.

والوجه في حاجة الإنسان إلى مراعاة هذا القانون أنه لم يخلق على وَفقِ تكوينه النفسي على وجه يحصل له الوقع النفسي المناسب لإدراكه تلقائياً، بحيث ينساق إليه انسياقاً كما هو الحال في الملائكة الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى على نحو لا يختلف عملهم عن مقتضى إدراكهم، وكما هو الحال في الحيوانات اللاتي لا يختلف سلوكها عن مقتضى غرائزها ومشاعرها المودعة في تكوينها، فإن الإنسان يتميز عن الملائكة بما فيه من روح الرغبات العاجلة والشهوات المنقضية فيكون مظنة لعدم الاستجابة لصوت الحكمة في داخله، وهذه هي نقطة الضعف في وجوده التي ذكرها الله سبحانه إذ قال[1]: ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾[2]، كما إنه يتميز عن الحيوانات بإدراكه لعواقب الأمور ونتائجها مما يقتضي اعتبار تلك العواقب في تصرفاته وأعماله، وأما الحيوانات فإنما تتحرك عن المشهد الذي تعيشه فعلاً على وَفقِ ما تمليه غرائزها من غير قدرة على تأمل المستقبل وتقدير ما يمكن أن يتفق في أثر تصرفها من المنافع والمضارّ.

وبذلك يظهر أن عناية الإنسان بالتحقق من حقيقة هذه الحياة بين ما تدل عليه الأديان وما تذهب إليه الرؤية المادية ثم العمل على وَفقِ تلك الحقيقة بالاعتبار التام بها بعد الفراغ منها من جملة مقتضيات الفطرة التي لا يعذر الإنسان نوعاً في إهمالها، من جهة عظيم أمرها وحصول العلم بها، بل لو كان الأمر محتملاً فحسب كفى في لزوم الاهتمام بذلك على ما سيأتي بيانه.

٢ ـ مناط أهمية الأشياء ومراتبها

(الحكمة ٢): أن مناط أهمية الأشياء هو أحد أمرين ..

أحدهما: مقدار ما يترتب عليها من النفع والضرر مما يوجب سعادة

---

(١) النساء:٢٨.

(٢) كما يدل عليه سياق الآية، حيث جاءت الجملة اعتراضاً تذييلياً مسوقاً لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة في نكاح الإماء، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منه هو ضعف البنية ولكن المقام لا يساعد على ذلك.

الإنسان أو شقاءه.

والآخر: وجود استحقاق متعلق بالآخرين في الموضوع، ومستوى هذا الاستحقاق وحجمه، فمن احتمل في تصرف له ترتبَ انتهاكِ لحقٍّ فيه، كان عليه معرفة هذا الحق ومراعاته، ولا يصح له التفريط به، وكلما كان هذا الحق أعظم كانت مراعاته أوجب، فحق الحياة للغير فوق سائر الحقوق، وحق الحياة للناس فوق حق الحياة للشخص الواحد.

والواقع أن مراعاة حقوق الآخرين يعود بالنفع على الإنسان نفسه في هذه الحياة وما بعدها، لو اتسع أفقه في النظر لنفسه، وتأمل سنن السعادة والشقاء الظاهرة منها والباطنة، وسيأتي ذكرها(١).

وبذلك يظهر أن معرفة الإنسان لحقيقة حياته وأبعادها وغاياتها هي أهم شيء على الإطلاق في حياته بكلا المناطين، وذلك لأنه ..

أولاً: يتحقق من النفع والضرر المترتب على سلوكه وتصرفاته في هذه الحياة وما بعدها، وتلك حياة خالدة لا أمد لها ولا انقضاء لمدتها.

وثانياً: يتعلق بحق الله سبحانه وتعالى على العباد الذي خلق الإنسان وأنعم عليه من بداية خلقه فما بعد، وأن حقه سبحانه آكد الحقوق وأولاها بالرعاية والعناية.

وعلى الإجمال فإن أهم قواعد النفع والضرر هي معرفة قواعد الحياة وأسسها وآثارها، فلا بد من عناية كل إنسان راشد بفطرته بالاهتمام بهذا الأمر اهتماماً بالغاً.

٣ ـ قيمة الإدراك بحسب مراتبه

(الحكمة ٣): أن للإدراك ـ الذي هو أحد أركان المعادلة الثلاثية ـ مراتب يكون لكلٍّ تأثيره بحسب مرتبته ..

١ ـ فالعلم الجازم يوجب ترتب تمام القيمة المناسبة للشيء المدرك

(١) لاحظ ما يأتي في حقيقة السعادة في الأصل الثالث.

والاهتمام التام به، لأنه أعلى مراتب الإدراك، فلا إدراك فوق العلم الجازم، فمن علم بشيء اقتضى أن يكون على يقين به حتى كأنه يعيشه ويراه، ولا يكون كالجاهل به أو المحتمل إياه، ومن نزل بالعلم عن قيمته كان بعيداً عن الحكمة بنسبة ما سلبه منها.

٢ ـ ويلي العلم الاحتمال العالي جداً بحيث يكون ما يقابله ضئيلاً مثل واحد في المائة أو الألف، فإن هذا الاحتمال ينزَّل منزلة العلم في غالب الموارد، لأنه يورث في النفس الإنسانية بحسب خلقتها سكينة وطمأنينة، ومن ثم يعبر عنه بالاطمئنان، ومن تأمل أمور الحياة المادية وجد أن كثيراً من المعلومات التي يعتمدها الإنسان لا تبلغ حدَّ الجزم، وجلّ ما يعدّ مجزوماً به مما يحتمل الخلاف احتمالاً ضئيلاً، ولكن يطلق عليه العلم تنزيلاً له بمنزلته أو بناءً على عموم معناه، لأنه بمثابته غالباً.

لكن على الرّغم من ذلك فإن وجود الاحتمال المخالف في مورد الاطمئنان ولو كان ضئيلاً يؤثر في بعض المعلومات بحيث ينبغي اعتباره لدى العقلاء، لأنك كلما نقصت من مرتبة الاحتمال وزدتَ في درجة المحتمل بما يناسبها عاد الاحتمال فاعلاً لا محالة، فالاحتمالات الضئيلة جداً التي لا يعتنى بها في عامة الأمور حتى في مورد احتمال تعرض الإنسان للقتل قد يعتنى بها فيما لو فرض أمر في غاية الخطورة مثل وجود قنبلة نووية يحتمل انفجارها، فترى أنه يعتنى بالاحتمال الضئيل فيها وإن كان واحداً في الألف أو دون ذلك.

٣ ـ ويلي الاطمئنان سائر مراتب الاحتمال مما هي دونه، فإن العناية بها لازمة على وَفقِ المعادلة المشار إليها.

فلا بد للإنسان من تطبيق قيم الإدراكات في نفسه مع مقتضياتها الفطرية.

ويتفرع على ذلك أن على المرء أن يبلغ بدرجة علمه إلى اليقين، فلا يكفي للمرء أن يذعن بالحقائق الكبرى والقيم الفاضلة في الحياة، بل لا بد أن تكون تلك الحقائق ماثلة أمام عينيه بحيث يعبد الله سبحانه كأنه يراه، وينظر إلى آخرته كأنها تأتيه غداً، وينظر إلى أكل الحرام بأنه يأكل النار ـ كما في آية اليتامى ـ

وينظر إلى مشهد الحساب والجنة والنار حتى كأنه يعيشها كما وصف في أحوال المتقين، فيكون لعلمه بها المكانة المناسبة لها، كما لا بد أن يكون شعوره بالقيم الفاضلة على حدّ شعوره بالمعاني المحسوسة المناسبة لها، فإذا انتقص أخاه ليثبت لنفسه فضيلة الخلو عن تلك النقيصة فكأنه أكل من لحمه ليشبع نهمه كما في آية الغيبة.

وكذلك ينبغي أن يرتب على كل ما دون العلم الجازم من مراتب الإدراك ما يناسبها، فإن عدم بلوغها إلى حدّ العلم لا يوجب عدم وجود أثر لها، فعلى الإنسان أن يرتب عليها ما يليق بها بالقياس إلى ما تعلقت به.

والواقع أن الإنسان لو لم يبلغ بعلمه في أمر حقيقة هذه الحياة ـ من الله سبحانه والدار الآخرة ـ حدّ اليقين لكفى ذلك في أن تنقلب حياته كلها، ولعل هذا هو السرُّ في التعبير بالظن في قوله تعالى(١): **﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾**، فيكون المراد به ـ والله العالم ـ الإشارة إلى أن الإنسان لو كان وقع العلم بالله سبحانه والآخرة في نفسه بمقدار وقع الظن في نفسه كفى أن يكون ذلك باعثاً له على اختلاف أحواله.

بل لو بلغ وقع إدراك الإنسان لتلك الحقائق حدّ وقع الاحتمال لكفى أيضاً في اختلاف أحواله لشدة أهمية تلك الحقائق والآثار الخطيرة المترتبة على واقعيتها.

ولعله إلى ذلك أشير بما ورد في الآية الشريفة أحياناً من التعبير بالرجاء وهو أعم من الظن حيث قال عزُّ من قائل(٢): **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**. وقد أشير إلى هذه النكتة في الآيتين الكريمتين في كلمات بعض المفسرين(٣).

وعلى ضوء ذلك يمكن القول بأن الإنسان إذا لم يجزم بتلك الحقائق التي

---

(١) البقرة:٤٦.

(٢) الكهف:١١٠.

(٣) لاحظ الميزان في تفسير القرآن ج:١ ص:١٥٢.

بلغ بها الدين بل ظنها أو احتملها احتمالاً كما لو عوّل على دليل النظم في الكائنات، وزعم أنه مبني على حساب الاحتمالات ـ وهو لا ينتج العلم الجازم، بل الاحتمال العالي ـ لم يسع له تجاهلها على وَفقِ المعادلة البديهية المتقدمة بين الاحتمال والمحتمل لشدة أهمية المحتمل جداً، وجل ما يعتني به الإنسان من عوارض ومخاطر إنما يعول فيها على أهمية المحتمل بدرجة أو أخرى.

وحينئذٍ لا يبقى للمرء سبيل لعدم الاكتراث بتلك الحقائق إلا أن يدعي عدم احتمالها ولو احتمالاً ضعيفاً، وكيف يتأتّى ذلك للإنسان مع وجود الأديان ورسالاتها وسائر المؤشرات عليها في نفس الإنسان وسائر آفاق الحياة؟! فمن أنكر ذلك فالغالب أنه إما ناشئ من الغفلة أو الجحود.

ولعل إلى ذلك أشير في القرآن الكريم بالاحتجاج على الكفار في جحودهم بالنظر إلى احتمال صدق الأنبياء على أقل تقدير كقوله تعالى[١]: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي**﴾.

ويشير إلى ذلك ما في حديثٍ[٢] عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في محاجّة له مع بعض الملحدين: ((أيها الرجل أرأيت إن كان القول قولكم ـ وليس هو كما تقولون ـ ألسنا وإياكم شرعاً سواء، ولا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟))، فسكت. فقال أبو الحسن عليه السلام: ((وإن يكن القول قولنا ـ وهو كما نقول ـ ألستم قد هلكتم ونجونا؟)).

٤ ـ رهن قيمة الإدراك بالمناشئ المناسبة دون المبادئ الذميمة

(الحكمة ٤): أن الإدراك[٣] المعتبر في عملية الموازنة ليس هو مطلق

---

(١) هود:٢٨.

(٢) التوحيد للصدوق ص:٢٥٠ـ٢٥١. ولاحظ الكافي ج:١ ص:٧٨.

(٣) المراد بالإدراك هنا هو خصوص الإدراك المعذِّر، والمراد بالمعذِّر هو الإدراك الذي من شأنه أن يعذر الإنسان فيما لو ارتكب خطأ، كالإدراك الذي يؤدي إلى إهمال حقيقة أو انتهاك حق، كمن اعتقد خطأً أن زيداً هو الذي اعتدى عليه فجازاه باعتداء مثله إذا كان اعتقاده ناشئاً من مناشئ عقلائية.

الإدراك الذي يحصل للإنسان، بل خصوص الإدراك الناشئ عن المبادئ السليمة المناسبة بحسب الفطرة الإنسانية، دون ما ينشأ عن الأهواء والرغبات والانفعالات والميول النفسية، فمن فاتته الحقيقة وانتهك القيم على أساس إدراك ناشئ من هذه المناشئ لم يكن معذوراً، نظراً إلى أن على المرء بحسب ما أودع في فطرته أن يتحرى الإدراك السليم، فسلامة مبادئ الإدراك منطق فطري جهز به الإنسان من خلال فطرته، فمن لم يراع هذا المنطق كان محجوجاً بما أودع في باطنه.

ولا فرق في ذلك بين الاعتقاد الجازم وبين الاطمئنان وسائر مراتب الاحتمال، ففوات كل مرتبة إدراكية عن الإنسان بسبب تدخل عوامل غريبة عن المنطق الموضوعي الفطري للإدراك يستوجب مسؤولية الإنسان عن السلوك الخاطئ الحاصل بسببه.

وهذا المبدأ مشهود لكل إنسان بالتأمل في داخله، كما هو معروف بين العقلاء، فإنهم لا يعذرون المرء في خطئه إذا نشأ عن عصبية وهوى وانحياز ونحوها.

وبذلك بلّغ سبحانه عباده في رسالته الكريمة إلى خلقه، فحذر الإنسان من الحواجز النفسية الموجبة لضلاله وغفلته عن دلائل الحق كما قال عزّ من قائل[1]: **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**.

وسيأتي مزيد توضيح لذلك في الكلام على ضرورة معرفة الإنسان بنفسه في تزكيتها.

وفي مقابله الإدراك الذي يوجب تحمل عناء من غير لزوم محذور، كمن اعتقد أنه يجب عليه أن يعين فرداً ما لكونه فقيراً ثم تبين خطؤه، فإنه تحمّل عناء فقط ولم ينتهك بذلك حقاً، فلو فرض أن مثل هذا الإدراك كان مبنياً على مبادئ غير صحيحة لم توجب مخالفته في نفسها ملامة وعتباً، بخلاف الإدراك المعذّر.

(١) القصص:٥٠.

٥ ـ في لزوم تحصيل الإدراك وتنميته

(الحكمة ٥): أن من الواجب على كل امرئٍ عاقل أن يهتم بتحصيل العلم بقواعد الحياة وأصولها، وبتنمية معلوماته عنها، رعايةً لخطورتها والتجنب عن الآفات التي يمكن أن يُبتلى بها في اعتقاداته وانطباعاته عنها.

ومن جملة تلك الآفات الشائعة ما يأتي ..

١ ـ عدم حمل الأمور على محمل الجد اللائق بها، والتعامل معها بضرب من التلهي حتى كأنه ضرب من الترف الفكري الذي لا ضرورة إليه، كعدم استشعار أهميتها وخطورتها، وهذا من وجوه التهوّر الفكري وهو في مجانبته للحكمة على حدّ التهوّر العملي، كمن يتلاعب بالكهرباء من دون أن يأبه بمخاطر عمله هذا. ومن مظاهر هذا الأمر اكتفاء المرء بتلقف بعض الشبهات المطروحة من غير متابعة البحث عنها، ولقد صدق الله سبحانه إذ قال[1]: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾**.

٢ ـ جعل الاحتمال ظناً والظن جزماً ويقيناً، وهذه آفة شائعة في الوسط العامّ، ومن أمارات وقوع المبالغة في ادعاء اليقين فيما لا يقين به أن يطرح امروٌ على المدعى التزاماً جزائياً ثقيلاً فيما كان من الممكن التحقق من صحة ما ادعاه، فترى أنه يتنازل عن دعوى العلم حينئذٍ، وهذا دليل على مبالغته في ادعاء العلم أولاً.

ومن عجيب ما يتفق من هذا الباب أنّ مقولةً ما قد تكون عند التخصّصي في حدّ الافتراض العلمي أو النظرية العلمية البحتة ولكن يبتّ بها غير المتخصصين ويعتبرونها من قبيل الحقيقة العلمية الجازمة.

ومن هذا الباب أيضاً المبالغة في دلالة المؤشر تجاه شيء ما بأن يُجعل المؤشر الاحتمالي مثلاً مؤشراً موجباً للظن والمؤشر الظني دليلاً قاطعاً، أو يُعكس الأمر فيُجعل الدليل القاطع مؤشراً ظنياً محضاً والمؤشر الظني القوي

---

(١) الأنبياء:١ـ٣.

مجرد مؤشر احتمالي.

ومن آثار ذلك أنه في حال وجود مؤشرات مختلفة تجاه شيء واحد يعمد المرء إلى ما يناسب ميوله فيجعل منها حجة قاطعة ويجعل ما دونها شبهة بحتة فاقدة للدلالة المؤكدة.

وبذلك يظهر أن هناك مساحة واسعة لتدخّل ميول الإنسان في إدراكاته وتحويره الواقعَ بحسبها، مما يلزم حذره الشديد في مسيرة الحكمة والحقيقة ونصحه لنفسه دون مخادعة وتبرير، وقد نُبّه في الآيات الشريفة على قاعدة لزوم الموازنة الصائبة بين المؤشرات المختلفة وتقديم المحكم منها على المتشابه، وسيأتي إيضاح هذه القاعدة في الكلام على آفات العلم ضمن أصل معرفة النفس والسنن النفسية.

٣ ـ انطفاء الدلالة المؤكدة من جهة الاعتياد على المشهد الدالّ على حقيقة ما، كما تجد الطفل مثلاً يسأل عمّا استجدّ حوله، فإذا تغيّر مكان اللعبة سأل عمّن لعب بها، وإذا انكسرت حاجته سأل عن كسرها، ولكنه لا يسأل عن صانع اللعبة والدار ولا عن الخالق له ولأبويه، وما ذلك إلاّ لأنه اعتاد عليها، فأطفأ الاعتياد روح البحث عن السبب، فانطفأت دلالة المسبب على سببه، وهكذا الحال عند عامة الناس في كثير من الظواهر التي اعتادوا عليها، فلو سألتهم: لماذا تسقط الأشياء إلى الأرض ولا ترتفع إلى السماء؟ قالوا: إن هذا أمر طبيعي ولا يحتاج إلى سبب خاص.

ومن هذا الباب غفلة بعض الناس عن دلالة الكائنات على خالقها، فإنها ناشئة في حقيقتها عن الاعتياد عليها وإن حاولوا توجيه ذلك بوجوه تبدو موضوعية ولكن الواقع أن أساسها هذه القاعدة النفسية وهي انطفاء دلالة المسببات على أسبابها في حال الاعتياد عليها.

ومن ثم بعث الله سبحانه وتعالى برسالاته إلى خلقه لتحفيز دلالة الكائنات على الخالق لها في عقل الإنسان كما قال سبحانه[1]: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ**

---

(١) الأنعام:٤، ويس:٤٦.

آية من آيات ربهم إلاّ كانوا عنها معرضين﴾، وقال[١]: **﴿إنّ في خلق السّماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السّماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دآبة وتصريف الرّياح والسّحاب المسخّر بين السّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**، وقال[٢]: **﴿وسخّر لكم ما في السّماوات وما في الأرض جميعا منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾**.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[٣] يذكر إرساله سبحانه الرسلَ: ((فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءَه ليستأدوهم ميثاق فطرته. ويذكّروهُم منسيّ نعمته. ويحتجوا عليهم بالتبليغ. ويثيروا لهم دفائن العقول. ويُرُوهم الآيات المقدّرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم)).

وهذه النكتة ـ وهي انطفاء دلالة الأدلّة والعلائم من جهة الاعتياد عليها ومعايشتها وما يجعل الإنسان محتاجاً إلى تحفيز الدلالة للانتقال إليها ـ نكتة نفسية واضحة.

ومثلها تأثير الاعتياد على عدم الاعتبار والاتعاظ بالحوادث والحقائق التي يذعن المرء بها، وقساوة قلبه من جرّاء كثرة ذكرها ومعايشتها، فحوادث الحياة مليئة برسائل تبليغية إلى الإنسان، إلاّ أنها من جهة تكرارها لا ينتبه الإنسان إليها، مثلاً الأمراض رسالة إلى المرء تنبهه على ضعفه وحاجته لله، وممات الآخرين رسالة إليه تؤذن بقرب وفاته ولقائه به سبحانه، ولكن لا يعي هذه الرسالة إلاّ المتقون المتبصرون الذين يذكّرون الناس بما يشهدونه أمام أعينهم ويحفّزون فيهم روح الوعي والعبرة على ما يراه الناظر في (نهج البلاغة).

ومن هذا الباب أيضاً تأثير الاعتياد على انطفاء الشحنات الأخلاقية، من

---

(١) البقرة:١٦٤.

(٢) الجاثية:١٣.

(٣) نهج البلاغة ج:١ ص:٢٣-٢٤.

قبيل ما تجده من كثير من الناس يعيشون حالة من التقدير البالغ لبعض الأصدقاء وعدّهم ممن أسدى إليهم معروفاً ولكنهم لا يعيشون مثل ذلك بالنسبة إلى والدَيهم على الرّغم من أن معروفَهم أعظم وأدوم، وليس ذلك إلاّ لعوامل منها الاعتياد على إحسان الوالدَين دون الأصدقاء، وهكذا الحال في الأزواج بعضهم تجاه بعض، فإنهم لا يشعرون بإيجابيات الطرف الآخر من جهة معايشته له وربما هدموا الحياة الزوجية بسبب هذا الجهل ومن ثم قال سبحانه للأزواج(١): ﴿**فَإِن كَرِهتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكرَهُواْ شَيْئاً وَيَجعَلَ اللهُ فِيهِ خَيراً كَثِيراً**﴾، وقد جاء في الحديث العتب على بعض النساء اللاتي ينكرن جميل أزواجهنّ عند الخلاف، ففي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال(٢): ((أيّما امرأة قالت لزوجها: ما رأيت قط من وجهك خيراً فقد حبط عملها)).

ومن هذا الباب أيضاً قلّة شعور الإنسان بشكر الله سبحانه من جهة اعتياده على نعمه كما جاء التذكير به في آيات كثيرة، قال عزّ من قائل(٣): ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجرِي فِي البَحْرِ بِنِعمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾، وقال سبحانه(٤)بعد ذكر ما خلقه وسخره للإنسان من الكائنات: ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعمَتَ اللهِ لاَ تُحصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾، وقد تقدم قول أمير المؤمنين عليه السلام في علّة بعث الأنبياء: ((لِيُذكّروهم منسيّ نعمتِه)).

وهكذا الحال في تأثير الاعتياد على انطفاء سائر أنواع المعاني مثل الشحنات الجمالية، فإذا اعتاد المرء على شيء فقدَ الشعور بجماله تدريجياً حتى إذا فقده واستبدله شعر بما كان عليه من جمالٍ مما لم يأخذ مأخذه من قلبه من قبل.

---

(١) النساء:١٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج:٣ ص:٤٤٠.

(٣) لقمان:٣١.

(٤) إبراهيم:٣٤.

هذه بعض عوائق العلم وسلامة الإدراك، وسيأتي وصف القواعد والسنن العامة التي يبتني عليها العلم الصائب والإدراك الصحيح في أصل معرفة النفس إن شاء الله تعالى.

٦ ـ المخطئ ليس على حدّ المصيب وإن كان معذوراً

(الحكمة ٦): أن الإنسان إذا أخطأ في شيء خطأ يعذر فيه لم يكن على حدّ ما لو أصاب، لأن الحياة مبنية على سنن وقواعد، فليس المهتدي إليها الجاري عليها كالجاهل المهمل لها، فالخطأ في سنن الحكمة كالخطأ في سائر حقائق هذه الحياة التي تحرر في أنواع العلم من السنن النفسية الفردية والاجتماعية، والأمراض وأسبابها وعلاجاتها، وخصائص العناصر والمعادن وغيرها، فإن من أخطأ في شيء من ذلك ولو بحسن نية لم ينتفع بما فعله كما ينتفع المصيب، بل قد يترتب عليه من المفاسد على حدّ ما يترتب على فعل المتعمد.

ولكن قد يختلف الأمر في سنن الحكمة من جهة أن ما يستوجبه الإنسان من اللوم والعتاب والجزاء لا يترتب في حال الخطأ كما يترتب في حال التعمد، وإن لزمه التدارك والتكفير عما وقع منه إذا كان فيه مفسدة.

وقد تضاف جهة أخرى، وهي أن من رام صلاحاً بحسن النية وأجهد نفسه في ذلك فأخطأ قد يثاب على حسن نيته فيما إذا لم تترتب مفاسد عظيمة على فعله مثل قتل النفوس وهتك الأعراض، ولكن لن تترتب في حقه بركات الإصابة والاهتداء إلى الصواب وآثارها الإيجابية في هذه الحياة ولا ما بعدها.

فليحذر الإنسان من الخطأ لا سيما في الحقائق الكبرى في الحياة فليس المخطئ لها كالمصيب ولا الجاهل كالعالم، والحقيقة هي الحقيقة لا شيء يُعوّض عنها أو يقوم مقامها، فمن حُرم منها فقد حُرم من خيرها وصلاحها، وهذه سُنّة من سنن الله سبحانه في الخلق حسب ما اقتضته حكمته ولا محيص عنها.

٧ ـ الاحتمال قبل التحقيق على حدّ العلم في لزوم الاهتمام به

(الحكمة ٧): إن الاحتمال على قسمين ..

١ ـ الاحتمال المستقر، وهو ما استقر عليه الإنسان بعد البحث والتفتيش حول الحقيقة التي احتملها، وتكون قيمته أنقص من قيمة العلم بنسبة نقصان مرتبته عنه، كما سبق وصفه.

٢ ـ الاحتمال غير المستقر، وهو الاحتمال قبل الفحص والتحري حول المحتمل، وهذا الاحتمال في قيمته ولزوم الاعتناء به على حدّ العلم، لا سيما إذا كانت قرائن الحقيقة ميسّرة للإنسان ولكن أعرض عن تحقيق الحال حولها وخلد إلى الشك والترديد، فإن من جملة قوانين الفطرة أن على الإنسان أن يبحث عما يحتمله إذا أراد أن يعمل على السّعة ولا يتحوط برعاية المحتمل، ومن ثم لزم على الناس تعلم القيم والقوانين الفاضلة والنافذة، فلا يعذر امرؤ بجهله إذا لم يبحث عنها فوقع في الخطأ، بل يكون الخطأ في مثلها خطيئة يلام عليها ويحاسب، وإلى هذا يشير ما ورد في النصوص الدينية من لزوم التعلم للأحكام كما قال سبحانه[1]: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

وهذا المعنى هو المشهور عند علماء الأصول بـ(حجيّة الاحتمال قبل الفحص). وهذه الحكمة كسابقتها في البداهة.

وعليه فلا ينبغي للمرء في مسعاه إلى البحث عن الحقيقة وتحري الحكمة في هذه الحياة أن يبقى على الشك والترديد ويترك الفحص والتحري والتثبت والسؤال، وذلك ظاهر لمن تأمل الموضوع وأمثلته في الحياة.

٨ ـ أنحاء الاهتمام اللائق بالشيء بحسب مستوى أهميته ومرتبة إدراكه

(الحكمة ٨): إذا وقف الإنسان على مرتبة الإدراك ودرجة أهمية المدرك اقتضى ذلك الاهتمام اللائق بالشيء بحسب ملاحظة المجموع. والاهتمام بالشيء يكون على نحوين مترابطين: نفسي وسلوكي ..

---

(١) النحل:٤٣. الأنبياء:٧.

أما الاهتمام النفسي فبأن تترتب على الشيء المشاعر المناسبة له من خوف أو رجاء، وحب أو كراهة، وفرح أو حزن، وثقة أو ترديد، وعزم أو لا مبالاة، وإذعان أو توقف.

وإذا لاحظ الإنسان بالتفاته إلى مشاعره وجود خلل فيها لعدم تناسبها مع المدرك فلا بد من البحث عن سبب ذلك، ومعالجته بالأساليب التربوية، وهذه هي حقيقة عملية تزكية النفس، فهي تخليص الإنسان نفسه من الحواجز النفسية التي تحول دون تدفق المشاعر الحكيمة المناسبة لعلومه وإدراكاته الذهنية.

ويتفرّع على ذلك أن الإنسان بعد الإيمان بالحقائق الكبرى في الحياة من الله سبحانه والدار الآخرة ينبغي أن يعيش حالة الإيمان والإذعان بها، فيحب الله تعالى ويرجو عنايته وثوابه، ويثق بقوله ويعزم على طاعته، ويفرح بما وُفّق له من مرضاته. وعلى نقيض ذلك يكون الحال في ما يبعده عنه فيكره الشيطان الرجيم والدنيا المذمومة والشهوات العاجلة، ويخاف من خذلانه وعقابه سبحانه، ويحزن بما ارتكبه من المعاصي.

وأما الاهتمام السلوكي فبأن يكون عمله استجابة صادقة لمشاعره فتكون إدراكاته ومشاعره وسلوكياته منسجمة في ما بينها وهذا تمام الحكمة، فمن لم يكن عمله مناسباً لمشاعره وجب أن يتهم مشاعره بخلل أو نقصان.

٩ ـ لزوم الاستعداد للاهتمام بالشيء

(الحكمة ٩): إن من شؤون الاهتمام النفسي والسلوكي بالشيء هو الاستعداد لهذا الاهتمام، ومن وجوه الاستعداد له أن يتأمل مقدمات الشيء ومقتضياته النفسية والخارجية لكي يكون تحريه إياه على وَفقِ منهج معقول ونظام مناسب فلا يخبط خبط عشواء.

وعلى ذلك يجري العقلاء في أغراضهم التي تحتاج إلى التهيؤ لها، فهم يسعون من أجل الدفاع عن أنفسهم وأعراضهم إلى التحلي بالشجاعة والبسالة والدربة، ويوفرون أدوات الحرب ويبحثون عن إمكانات العدو وما ينقضها

وهكذا، كما يتصدون من أجل العلاج من الأمراض لتعلم مقتضيات الطبابة وتحصيل الممارسة فيها والتحلي بالخلق المناسب لمقام العلاج، وعلى هذا المنوال يجرون في سائر مقاصدهم.

ومن زعم أن له مقصداً عظيماً ولم يتهيأ له فقد ناقض نفسه وكان مخادعاً لها أو مختلطاً.

ومقدمات الشيء على ضربين ..

(أ) مقدمات يحرز المرء توقف الشيء عليها، فتلك لا شك في لزوم تحصيلها.

(ب) ومقدمات لا يحرز المرء توقف الشيء عليها ولكنه لا يحرز وصوله إلى المقصد من دونها، وهي أيضاً لازمة التحصيل بحكم العقل والفطرة، فإن من طلب شيئاً لزمه إحرازه، فمن رام أن يتعالج من مرض لم يكف أن يستعمل الدواء بمقدار يحتمل أن يُشفى معه، بل لا بد أن يستعمل منه ما يحرز سلامته به.

وتلك قاعدة بديهية في الحياة، ولذلك ذكر الأصوليون وجوب تحصيل المقدمات العلمية، ويعنون بها ما يتوقف العلم بحصول الشيء المقصود عليها، وقالوا: (إن إحراز التكليف بشيء يقتضي إحراز امتثاله).

ويتفرع على ذلك أن على من آمن بالحقائق الكبرى في هذه الحياة، ورأى أن حياته في هذه النشأة الدنيا سفر إلى الآخرة وجب عليه أن يسعى إلى تأمل مقتضياتها والاستعداد المناسب لها، بتحصيل ما يوجب تقوية الاعتقاد بها، والوقوف على سنن الحياة في خيراتها وشرورها ومعرفة النفس وشؤونها ومحاسبتها، وغير ذلك مما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى في طي الأصول الآتية.

والواقع أن أهمية آثار تلك الحقائق في شأن الإنسان بدرجة يمكن القول معها يقيناً: بأن المرء لو سخّر كل طاقاته الإدراكية والذهنية والنفسية من أجل الانسجام مع تلك الحقائق لم يؤدها حقها، لأن لكل تصرف منه بصمة خالدة على حياته مهما كان قليلاً، وكما قال سبحانه[1]: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا**

---

(١) الزلزلة:٧ـ٨.

يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ فلا يبقى للمرء فسحة في الدنيا خارجة عن حدود الاستعداد والتهيؤ إلا الاستجابة اللازمة له لحاجات جسمه ونفسه، وذلك أيضاً ضرب من الاستعداد اللازم له في هذه المسيرة، لأن في هذه الاستجابة محافظة على أدواته، فإن سلامة الجسم والنفس من جملة أدوات الاستعداد للآخرة بإتيان الأعمال الصالحة والتحلي بالصفات الفاضلة، ومن ثم يعتني أهل الصلاح بأن يجعلوا ممارساتهم بداعي هذا الاستعداد، بحيث لو أن الله سبحانه وتعالى أمرهم بأن لا يستجيبوا لها كما في بعض ظروف الحرب لضَحّوا بها وصبروا حتى يلقوا الله سبحانه وتعالى، وبذلك يكون نومهم وطعامهم وراحتهم كلها ذات مضمون أخلاقي كريم، إذ كانت مقدمة لرعاية القيم الفاضلة، وأجلُّها طاعة الله سبحانه وتعالى وتحصيل مرضاته وشكره على نعمه العظام.

ولعمري إن الإنسان ينبغي أن يعتني بالحقائق الكبرى والقيم الفاضلة في هذه الحياة حتى تملك عقله وقلبه في أعماقهما، حتى يَشب عليها صغيراً ويهرم عليها كبيراً، وتكون سجيته التي ينطلق منها من دون توقف وتفكير، ورويّته التي يندفع منها دون تروٍّ وترديد، فإن الأمر عظيم للغاية لا يُسبر غَورُه ولا يدرك عمقه.

وقد وصف الله سبحانه أحوال عباده الصالحين في آيات بليغة، فيها أسوة لمن أراد أن يتأسى ومثل لمن أراد أن يقتدي فقال[1]: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**، وقال[2]: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾**، وقال[3]: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا**

---

(١) آل عمران:٩١.

(٢) الأنفال:٢.

(٣) السجدة:١٦.

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وذكر أمير المؤمنين في أحوال المتقين ما لو وقف عليه المرء أدرك حقيقة ما ينبغي للإنسان أن يتصف به ويسير عليه، وسيأتي ذكر شيء من ذلك إن شاء الله تعالى.

١٠ ـ موانع الاهتمام اللائق بالشيء

(الحكمة ١٠): أن الإنسان إذا لم يهتم بما يدركه ويحتمله بما يليق ويناسب الحقيقة التي أدركها واحتملها ففي ذلك خروج عن حدّ السلامة لا محالة، لما عرفت من أن الإنسان بفطرته السليمة ينزع إلى تقدير كل شيء يدركه بما يليق به، إلا أن يطرأ عليه ما يحول دون ذلك، كما في حالات ..

الحالة الأولى: أن تطرأ عليه حالة مرضية نفسية توجب انطفاء هذا النزوع في نفسه كما هو الحال في من يبتلى بمرض الشك والوسوسة، حيث إنه يؤدي إلى عدم حصول الاستقرار النفسي بالعلم الجازم سواء كان علماً حسياً كأن يرى الشيء ويشك في أنه هو ذاك الشيء أو لا، بلا موجب موضوعي للشك، أو علماً عقلياً كأن يجد الدليل القاطع على شيء ومع ذلك يشك في وجود ذلك الشيء.

وهذا إنما يكون مرضاً إذا كانت حالةً مستمرةً ومطّردةً ولو في بعض الأشياء، كمن لا يستيقن بالطهارة مع الاطّلاع على سببها.

ونحوه عدم الاستقرار النفسي بالظن العالي جداً الذي يوجب الاطمئنان لدى عامة العقلاء.

ويمكن أن يفترض مثله في سائر مراتب الإدراك إذا لم يوجب نزوعاً مناسباً لها.

وهذه الحالة المرضية يمكن تخفيف بعض مراتبها بالتوعية والعلاجات الطبيعية، ويحتاج بعض مراتبها إلى المعالجة بالدواء.

الحالة الثانية: أن تكون هناك رغبات وميول باطنة تزاحم الاستجابة

لمقتضى الإدراك.

وحينئذٍ يكون الإنسان مختاراً بين ترجيح كفة النزوع إلى العناية بإدراكه والانسجام معه وبين ترجيح كفة النزوع إلى رغباته، فلا بد من مجاهدته للنفس وترويضه لها.

وتلك الرغبات قد تكون ظاهرة وقد تكون كامنة في العقل الباطن، فيتمظهر ذلك بمظهر عدم الاكتراث بالإدراك الحاصل بما يليق به من غير إفصاح للنفس عن منشئه.

وقد ينتهي عدم الاكتراث بالشيء على الرّغم من إدراكه إلى انطفاء النزوع النفسي عن العمل بالإدراك، وقد عُبّر عن هذا المعنى في القرآن الكريم[1] بالرّين على القلب وانقفاله والختم والطبع عليه، لأن عدم الاعتناء المتكرر بالشيء المدرك قد يؤدي إلى انطفاء النزوع النفسي إلى الاعتناء به، ومن ثم ربّما لا يشعر الإنسان بالتناقض بين إيمانه واحتماله لذلك الشيء وبين عدم الاعتناء به، بل يتراءى له أن عدم الاعتناء به أمر طبيعي تماماً.

وهذه الحالة أو بعض مراتبها تعتبر نحو مرض أخلاقي، لخروج الإنسان بها عن مقتضى الاعتدال كما قال سبحانه[2] عن المنافقين: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً**﴾، وذلك أن من يستيقن بالحقائق الكبرى في الحياة ويجد أدلتها ولكن يمانع من الإذعان بها وترتيب الأثر عليها في رغبة أو رهبة خارج عن حدّ الاعتدال بطبيعة الحال، فهو أشبه بمن يجد حيواناً مفترساً لا حيلة له دونه ولكنه لا يذعن به أو لا يكترث بوجوده إثباتاً لشجاعته.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (المطففين:١٤)، وقال سبحانه: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد:٢٤)، وقال: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ**﴾ (الجاثية:٢٣)، وقال: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (النحل:١٠٨).

(٢) البقرة:١٠.

وقد قال تعالى[1] في نصحه لنساء النبي ﷺ: ﴿**إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ فسمى انبعاث الشهوة في غير موضعها ـ بما يؤدي إلى طمع الإنسان ورجائه في الوصول إلى إرضائها في ما لا يحتمل حصوله ـ ضرباً من المرض.

وأياً كان فعلاج هذه الحالة علاج فكري وتربوي، أما العلاج الفكري فمن خلال التأمل والتفكير وتوعية الذات، وأما العلاج التربوي فبالأساليب المحفزة للاهتمام بالأشياء والعناية بها، على ما سيأتي تفصيله عند ذكر أدوات التربية النفسية في الأصل الثامن.

الحالة الثالثة: حصول انحراف في المزاج النفسي عن الاعتدال الذي عليه عامة الناس كما في الجبان والمتهور، فإن الجبان يعتني بالاحتمال الذي لا ينبغي الاهتمام به، والمتهور لا يعتني بالاحتمال الذي ينبغي الاهتمام به، والصفة المعتدلة هي الشجاعة. وهذه الحالة ليست مرضية مرضاً نفسياً أو جسدياً على حدّ الحالة الأولى، وربما تحلل تحليلاً نفسياً بتدخل ميول باطنة تسبب حصولها مثل الحب الزائد للحياة أو السعي إلى إثبات الذات فيرجع إلى الحالة الثانية.

١١، ١٢ ـ لزوم تناسق السلوك والمشاعر ومراعاة الأولويات

(الحكمة ١١ و١٢): أن من أهم مقتضيات الحكمة قاعدتين ..

الأولى: لزوم انسجام مشاعر الفرد وسلوكياته، بأن لا تتناقض مقتضياتها وجهاتها، بل يكون هناك تآلف بينها، فتنطلق مشاعره وتصرفاته عن قاعدة عميقة وراسخة في نفسه موجهة لها، ولا يكون المرء متقلب المزاج ومختلف الأحوال. فتارة يكون مفرطاً وأخرى يكون مفرّطاً.

وكلما كان المرء أكثر حكمة كانت تصرفاته أكثر تناسقاً وانسجاماً، وكلما كان أقل حكمة اختلفت تصرفاته وتوجهاته بحسب أحواله، حتى لا يسع المرء أن يحدس ببعضها من بعض آخر.

---

(١) الأحزاب:٣٢.

الثانية: لزوم رعاية الأولويات بين المقاصد والأدوات المتعددة، فمن الخطأ أن يبذل المرء اهتماماً زائداً ببعض النوافل والقيم غير الإلزامية على حساب قلة الاهتمام بالفرائض والقيم الإلزامية، فيهتك من جهة حقاً ملزماً ويراعي من جهة حقاً مندوباً، فللمرء في هذه الحياة طاقة محدودة عليه أن يلاحظ أولويات صرفها من منظور حكيم، وإلى هذا المعنى أشير في عدد من الآثار الشريفة مثل[١]: ((من ورع عن محارم الله فهو من أورع الناس)) و[٢]((لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض)).

هذا بعض ما حضرني في أصل الحكمة.

ثناء على الله سبحانه ومسألة

سبحانك اللهم وبحمدك ما أروع ما أودعته فينا من نظام الحكمة، وهديتنا إليه من سنن الحياة، لم تزل تروّعنا[٣]يا رب بعظيم صنعك كلما تأملنا ناحية من نواحي الحياة وأبعادها، ولا تزال تبهرنا ببديع خلقك وجليل تدبيرك كلما توقفنا عند شيء من تفاصيلها وآفاقها، على أنك عظمت آلاؤك لم تقتصر على ما زرعته فينا من النظام الحكيم، بل يسّرت لنا الازدياد فيه والرقيّ في مراتبه ودرجاته، ووجهتنا إلى ذلك بما أرسلته إلينا من رسائلك، توقظنا بها من وجوه الغفلة وتنير لنا بها مزالق الدرب، ولا سيما القرآن العظيم والذكر الحكيم.

اللهم إن خزائن الحكمة عندك ومفاتيحها بيدك، فافتح عقولنا لاستقبال ضياء الحكمة من عندك، ووسع قلوبنا لاستيعاب أنوار الهدى من لدنك، وافتح اللهم للحكمة بصائر قلوبنا وآذانها وقوّ في دواخلنا نور الحكمة وضياءها،

---

(١) الخصال ص:١٢٥، والمضمون متكرر في الآثار الشريفة.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:١١.

(٣) أي تُدخل العجب في نفوسنا، من روّعه الشيءُ: أي أعجبه، ومنه هذا شيء رائع: أي مُعجِبٌ ومُذهل.

واجعل جوارحنا منقادة لصوت الحكمة وندائها، وبلّغ بنا في ذلك مبالغ من عنيت به من أوليائك وتعهدته من أحبائك.

اللهم ما جهلناه من الحكمة فعلّمناه، وما علمتنا منها فعمّلناه، ووفقنا اللهم لإعلاء صوت الحكمة بين خلقك واكتب مثل ما سألناك لأنفسنا لسائر عبادك، فإنا جميعاً فقراء إلى فضلك، ومحتاجون إلى نوالك، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الأصل الثاني
قوة الاعتقاد بالحقائق الكبرى

ويتضمن هذا الأصل بيان أهميته ثم نذكر مطلبين ..

المطلب الأول: التذكير بتلك الحقائق، وهي كما يأتي ..

(١) وجود الله تبارك وتعالى.

(٢) رسالة الله تعالى إلى خلقه.

(٣) الصفات المقدسة لله عزّ وجل.

(٤) التذكير بغايته تعالى من خلق الإنسان.

(٥) وجود الكائنات وبقاؤها كله بإذنه.

(٦) كل شيء في عالم الوجود جارٍ خاضع لحساب وتقدير.

(٧) وجود خلق غير مادي من الملائكة والجن وتفاعله مع الإنسان.

(٨) النظام الذي خلق عليه الإنسان.

وتتضمن هذه الحقيقة الثامنة جملة من مضامين هذا النظام ..

١ ـ بقاء الإنسان بعد الممات.

٢ ـ ارتهان سعادة الإنسان وشقائه بعد الممات بأعماله في الحياة.

٣ ـ أهمية المعرفة به تعالى في سعادة الإنسان.

٤ ـ إيداع مبادئ اهتداء الإنسان وسعادته في باطنه.

٥ ـ هذه الحياة دار اختبار وامتحان للإنسان.

٦ ـ حقيقة ممات الإنسان.

٧ ـ مرحلتان للإنسان بعد الممات: البرزخ والقيامة.

المطلب الثاني: في بيان ضرورة قوة الاعتقاد بتلك الحقائق.

ويتضمن تذكرات ثلاث حول ما يأتي ..

(١) في ضرورة البلوغ بالاعتقاد إلى درجة اليقين.

(٢) ما يوجب ضعف الاعتقاد وقلة اليقين.

(٣) في ما ينبغي للمرء أن يكون عليه تجاه الله سبحانه ورسوله وأوصيائه والدار الآخرة.

أهمية هذا الأصل

إن قوة العقيدة ورسوخها واستحضارها أول خطوة في مقام تزكية النفس وتربيتها، لأن التزكية ليست إلا استقامة الإنسان على ما اكتشفه من حقيقة هذه الحياة والعمل بمقتضاها، فلو أنه فعل ذلك لاستنار عقله ونفذت بصيرته وسلمت نفسه واعتدلت أخلاقه، وقد قال الله تعالى[١]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾.

وذلك أن أصول العقائد في الدين ليست إلا معرفة من المرء بحقيقة الحياة التي يعيشها وما غاب عنه من آفاقها وغمض عليه من سننها، فإن الله تعالى حين حجب عن حواس الإنسان ما حجبه من أبعادها وخصه بالعقل والتفكير القادر على اكتشاف آفاقها، فرض عليه أن يهتدي بعقله إلى ما غاب عنه كي يعتبر به، فكان عليه أن يعرف أن لهذه الحياة رباً وخالقاً لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، ثم إنه لم يخلق ما خلقه سدى ولا لعباً ولم يترك الإنسان لسبيله هملاً، بل وضع له دستوراً لهذه الحياة زرع أصوله في باطنه وبعث إليه أنبياءه لينبهوه على شواهد آياته ويثيروا له دفائن عقله، وعززهم بأوصيائهم إتماماً للحجة وتأكيداً للمحجة، ولكي لا تخلو الأرض من حجة لله فيها إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، وجعل حياته الدنيا هذه جزءاً من حياة خالدة يزرع فيها اليوم ليحصده غداً، زرعاً تكون بذوره أعماله، ونتاجه

---

(١) فصلت:٣٠.

درجاته، فـ﴿لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾[١].

وتعتمد قوة العقيدة على دعامتين أساسيتين: وضوحها ورسوخها ..

أما وضوح العقيدة فهو بخلوها في أصولها من شوائب الضبابية والإبهام القادح، فإن مثل هذه الشوائب تؤدي إلى ضعف الاعتقاد وعدم استتباعه لأثره.

وأما رسوخها فهو باليقين بها حتى كأنه يشهد ما يعتقد به إن كان غائباً ويحلُّ به إن كان مستقبلاً حتى لا ينشغل بالحال الحاضر ويهمل الغائب والمستقبل.

وليعلم أن الدين ليس عادات وآداباً يقلّد المرء فيها آباءه أو يجري عليها متأثراً بمجتمعه، وإنما هو اكتشاف حقيقة هذه الحياة وأبعادها وموقع الإنسان فيها ليعمل على مقتضاها، فلا بد للمرء من أن يطيل التفكير فيها ويكثر التأمل حولها، لاستنطاقها عن باطنها والاهتداء إلى واقعها حتى تكون الحقيقة بصيرته التي يتبصر بها طريقه ويستنير بها في سبيله فيكون منها على مثل ضوء الشمس، وإلا ابتلي بعوارض لا مخلص له منها، كأن يبتلى بالشك فيه لأول عارض من شبهة، فإن من دخل في الدين بالتقليد خرج منه بمثله، أو يجعل الدين وسيلة للدنيا يستدر بها رزقه، ويعمل به ما دام يعود بالنفع عليه، أو يتخذ منه غطاء لنفسياته يصول به على الآخرين، أو يعتقد به فعلاً ولكن باعتقاد واهن لا تظهر عليه آثاره ولا ينتج فيه ثماره. فليسع امرؤ فيها لتوثيق معتقداته وتعميق متبنياته حتى يستحضرها بين جنباته في جميع أحواله، ويستمد منها بصيرة وقوة وعزماً، فلا يجعل يقينه شكاً وعزمه وهناً، ولا ينقض ما عقده من بعد قوة أنكاثاً.

---

(١) النجم:٣٩-٤١.

المطلب الأول
في التذكير بالحقائق الكبرى

إن أصول الحقائق التي ينبغي أن يتأملها الإنسان ويستحضرها في جميع أحواله ثمانية ..

وجود الله تبارك وتعالى

(الحقيقة ١): وجود الله سبحانه وتعالى الذي هو أول أصول الدين وأهمها، وهو سبحانه أصل هذه الحياة وخالقها وسانّ سننها وواضع قوانينها والسائق لها إلى غاياتها، المحيط بجميع مفاصلها، الشاهد على كل ما يجري فيها، فعلى الإنسان أن يُكثر من ذكر الله العظيم الذي هو في محضره دوماً، فهو معه أينما كان، يشهد أفعاله ويراقب أعماله، ويقف على هواجسه، ويطلع على ضمائره، ثم إليه مرجعه ومآبه. وليعلم أن سره في محضره سبحانه وتعالى إعلان، وخواطره بين يديه كلام، ونيّاته عنده أفعال وملكاته لدى جنابه عيان، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة وهو السميع البصير.

وليتأمل عظمته في آياته التي ينكشف كل يوم مزيد من دلائلها وينبه على عظيم ما يجهل منها، من مجرات لا إحصاء لعددها ولا تحديد لسعتها، تحتوي على ملايين النجوم المنيرة والكواكب المعلقة، مرتبطة في ما بينها بنظام واتساق.

ثم هذه الأرض التي نعيش عليها بمكوناتها ومعادنها وأنظمتها وحدودها وما عليها من بدائع خلقته وروائع صنعته، من أنواع الحيوانات وصنوف النباتات التي صنع كل منها على مثال بديع ونظام منيع، ناهيك عن نفوسنا هذه في أجزائها وقواها وسننها ومكوناتها، فسبحان الله الذي خلق هذه الكائنات كلها، ما أعظم قدرته وأجلّ شأنه وأوضح برهانه وأبين حجته، وما أصغر الواحد منا في محضره في هذا المشهد العظيم.

رسالة الله تعالى إلى خلقه

(الحقيقة ٢): وجود رسالة من الله سبحانه وتعالى إلى خلقه تذكّرهم بوجوده وتدلهم على آياته وتبلغهم بحقيقة هذه الحياة وأمدها وما وراءها وسننها وقوانينها. وهذه الرسالة موجهة إلى آحاد الناس فرداً فرداً.

وقد اختار الله سبحانه لتبليغ هذه الرسالة بعض خلقه ممن ارتقت فطنتهم إلى درجة تؤهلهم لاستقبال هذه المعاني، واستنارت فطرتهم بالميل إلى الأخلاق الفاضلة، فأنار عقولهم وأوحى إليهم وأقنعهم بمضمون تلك الرسالة ثم أتم الحجة بهم على من أرسلوا إليه وخلّف لمن بعدهم بعض حججهم ليقتفوا أثرهم.

وإن وقوف المرء على هذه الرسالة والإذعان بها ضروري للسلامة من التيه والضلالة، فإن العقل وإن كان قد يهتدي إلى أصل وجود كائن غير مادي خالق لهذا الخلق إلا أنه قد يواجه بعض الترديد والوسوسة فيه لحجب تلك العوالم عن حواسه ومغايرتها سنخاً مع العالم المادي المشهود له، فضلاً عن أنه قد يتحيّر في وحدته وتعدده، وسنن عمله ومدى عنايته بخلقه، وما هو موضع رغبته. ولا يهتدي بطبيعة الحال إلى وجود نشأة أخرى بعد هذه النشأة وكون الإنسان باقياً فيها بعد مماته وعائداً إلى الحياة لتلقي حسابه.

ولم يكتفِ الله سبحانه وتعالى برسول واحد، لحِكم أهمها أن رسالته كانت تشوّه بعد حين من إرساله، من جهة عدم انتشار الكتابة آنذاك بحيث تكون أمراً محفوظاً لا تمسه زيادة ولا نقصان، بل كان بعد رحيل الرسل من يتصرف فيها ويحرّفها ويؤوّلها إلى غير جهتها، أو يعرض عليها الفقدان بعوارض الزمان وطوارئ الحدثان، أو تختفي معالم أدلة تلك الرسائل وحقانية أصحابها من جهة طول المدة، فتكون قصصاً لا يُعلم صدقها ولا يُستيقن بواقعيّة أصلها، لا سيما في أوساط الأباعد عن مراكز بعث الأنبياء.

حتى إذا تهيأت الأمور لحفظ الرسالة وبقائها ناصعة كما كانت عليه مهما مرّ عليها الزمان اختار الله سبحانه وتعالى من نسل أنبيائه محمداً ﷺ فختم به

الأنبياء وأرسله بآخر رسالة له إلى خلقه، وهي القرآن الكريم، الذي توفرت أسباب حفظه من جهات عدة، أهمها قوّة حفظ المجتمع العربي الذي نزل فيه، وانتشاره العام بين عامة أهل الدين لاهتمامهم الكبير بالبلاغة والفصاحة، فأنزله نصاً بليغاً واضحاً حتى يتشوق إليه أهل لغته فلا يختص بقوم من صحابته كما كان حال التوراة والإنجيل، فعمّت العناية به واشتد حرص عامة الناس عليه حتى كان كل من يدخل في الإسلام يسعى إلى تعلمه وحفظه، وقد حفّز ذلك بنفسه تنمية الكتابة وشيوعها في المجتمع العربي بالرّغم من قلتها حتى كتب القرآن من قبل عدد من الصحابة في حياته ثم وُحّد ما كان قد كتب بعد بضع سنين من رحيل النبي ﷺ في مصحف معلن بين المسلمين كلهم لم يزل باقياً، فكان كتاباً محفوظاً مصوناً مما وقع في الكتب السابقة، لم تقع فيه زيادة ولا نقصان، وبذلك انحفظت معالم الدين بما يوجب اليقين لمن بحث عنها منصفاً مخلصاً.

وليس مضمون الدين على العموم بالذي يقتضي تغييراً وتحولاً، لأن الجزء الأهم منه هو أصوله وعقائده، التي تتضمن رؤية عميقة للحياة وآفاقها ونهايتها، كما إن أصل تشريعاته هو ما فطر عليه الإنسان من قيم وأخلاق.

وهذا المعنى أمر ثابت بل يمكن عدّه على الإجمال من أصول الدين، وربما اختلفت بعض التشريعات من زمان إلى زمان في حدود وتفاصيل قد تكون مجالاً لأحكام متغيرة ومختلفة.

هذا، ولو نظرت إلى أحوال أرباب سائر الأديان ـ ممن يؤمن بكائن غير مادي ومدى تحيرهم وتيههم في ذلك حتى ذهبوا إلى عبادة الأصنام والحيوانات والأشخاص ولم يهتدوا إلى الحقائق المتقدمة التي أبانها الله سبحانه في رسائله إلى خلقه ـ لعلمت مدى ضرورة هذه الرسائل في رسم معالم المشهد واضحة في قواعدها وأصولها.

على أن هناك شواهد كثيرة على أن جملة من هذه الأديان محرفة عن الأديان الحقة ولكنها شوهت بالزيادة والنقصان حتى انمحى كثير من معالمها

وبقي بعض مضامينها، نظير ما وقع من دعوى ألوهية المسيح عيسى بن مريم عند المؤمنين به، وهي دعوى باطلة بوضوح لمن تأملها حق تأملها.

فليقف الإنسان على رسالته تعالى إلى خلقه في هذه الحياة وليتأمل فيها بإمعان وليصغ إلى هذا النداء الذي توجه إليه من عوالم الغيب، ليكشف له الغطاء عن حقيقة هذا المشهد ويرفع الستار عن واقع هذه الحياة مستدلاً بأمارات لائحة وأدلة واضحة تنبهه من غفلته وتوقظه من نومته.

الصفات المقدسة لله عزّ وجل

(الحقيقة ٣): ما تضمنته الرسائل الإلهية من المعرفة بصفاته المقدسة، وذلك أمر ضروري للإنسان حتى يلتفت إلى ما ينبغي أن يكون عليه سبحانه تجاهه في مقام الإذعان به والتأدب في محضره، فإن التعامل الحكيم يتوقف على معرفة المرء بشخصية[١] من يتعامل معه وصفاته.

فقد دلت شواهد الفطرة ونصت الرسالات الإلهية على أنه سبحانه منزه عن المادة وعوارضها من كم وكيف وزمان وحدّ، لا يتطور من حال إلى حال ولا تطرأ عليه زيادة ولا نقصان ليس كمثله شيء، متصف بالعلم النافذ في كل شيء والقدرة البالغة على كل شيء، لا شريك له ولا ضد ولا ندّ، بل كل شيء هو جنده وخزائن الأشياء كلها بيده ولا يقع أمر إلا بإذنه وإرادته، فليس هناك إله غيره ولا مصدر للقدرة والتأثير سواه، بل هو المؤثر الوحيد في الكون، له الحمد والمجد وحده وهو العلي العظيم.

وجُلّ هذه المعاني مما يدل عليه العقل السليم بالتأمل والتبصر في ما تدل عليه آياته وتشهد عليه دلائل وجوده، وقد رفعت رسائله إلى الخلق نوازع الشك والترديد وبواعث الشبهة والاحتمال وانقطع الشك في ذلك كله باليقين، فمن أثبت لله شيئاً من عوارض خلقه فقد أخطأ، ومن أثبت له شريكاً أو نداً فقد أثبت وهماً وادعى باطلاً.

---

(١) إطلاق هذا التعبير في شأن الباري سبحانه مبني على ضرب من التوسع والمجاز.

ومزيد توضيح القول إن صفاته تعالى على ضربين: صفات كينونة[١]، وصفات أفعال ..

أما صفات كينونته فهو سبحانه وتعالى متصف بكل كمال بريء عن كل نقص، فما اتصف به سبحانه واتصف به عباده يختلف في كينونية الصفة، فليست صفته أمراً زائداً على ذاته كما هو الحال في خلقه حيث يمكن أن يتصفوا بالقدرة والعلم والحياة وبخلافها، فهذه الصفات هي من صميم ذاته، ولا يطرأ عليه سبحانه وتعالى تطور أو تكامل كما يطرأ ذلك على خلقه، فهو على صفة واحدة في العلو والكمال.

وذلك من أبعاد قاعدة نفي المماثلة المشار إليها بقوله تعالى[٢]: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأوضحه أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته الشريفة كالخطبة الأولى في نهج البلاغة، ومن قوله[٣]فيها: ((.. الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن. الذي ليس لصفته حدٌ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود .. وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة.

فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيمَ فقد ضمّنه، ومن قال علامَ فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم. مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة. بصير إذ لا منظور إليه من خلقه. متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده ..)).

وأما صفات أفعاله فإنه سبحانه يتصف بالمعاني النبيلة من الحكمة

---

(١) الكينونة مفهوم واسع يشمل الميزات الموضوعية والذاتية للواقع والوجود، والمراد منها هنا الوجود.

(٢) الشورى:١١.

(٣) نهج البلاغة ج:١ ص:١٤-١٦.

والرحمة والرأفة والفضل والعدل، إلا أنه من جهة أخرى يتصف بما يليق بذاته المقدسة خاصة من الكبرياء والجبروت والعظمة وما يترتب عليها من المعاقبة والخذلان، فهو ـ كما جاء في بعض أدعية ليالي شهر رمضان[١] ـ: ((أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة)). وليست أفعاله هذه بانفعال واختلاف حال، لما تقدم ذكره من سلامته من أيّ نقصان.

التذكير بغايته تعالى من خلق الإنسان

(الحقيقة ٤): الغاية من خلقه سبحانه للإنسان وسائر ما خلقه من الكائنات، وقد جاء شرح ذلك في رسالته سبحانه وتعالى إلى العباد، وأبانه أمير المؤمنين عليه السلام في غير واحدة من خطبه، حتى يعرف الإنسان نظام الخلقة وقصة الخليقة ومبادئ الحياة ومسيرتها وغاياتها من علٍ، ويستنطق ما يعيشه من أمارات ذلك ودلائله، فيسير في مسيرة الخير في الحياة، ويسلك الصراط المستقيم.

والواقع أن وقوف الإنسان على هذه المعاني في غاية الأهمية لكي يعرف المرء ما خلق له ومن أجله، ويجري على وَفقِ ما أريد له فلا يلتفت يميناً ولا شمالاً فيخطئ السبيل ويضلّ الطريق.

وقد دلت الرسائل الإلهية على أنه تعالى إنما خلق الخلق جميعاً لإرائة قدرته وإدراك عظمته فخلق خلقاً مدركاً، جعلهم على أصناف متعددة من الملائكة والجن والإنسان، وجعل لكل منهم قواماً خاصاً وخلق من دونهم خلقاً كثيراً غير ذي إدراك، مجسداً فيه عظيم قدرته وجليل إبداعه فيدرك هؤلاء من خلالها بعض مظاهر صفاته، مضافاً إلى ما يدركونه من الآيات في أنفسهم من خصوصيات خلقتهم وتفاصيل تكوينهم ولينتفع ببعضها الإنسان من بينهم، وقد أكد الله تعالى في رسائله إلى خلقه غايتَه هذه كما قال تعالى[٢]: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

---

(١) مصباح المتهجد ص:٥٧٨.

(٢) الذاريات:٥٦.

الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقد بدأ سبحانه وتعالى ـ في ما دلّ عليه ظاهر جملة من النصوص ـ بخلق ملائكته، خلقهم خلقاً لطيفاً لا كثافة فيه، جبلهم على عبادته والائتمار به والتواضع لقدرته، إذ كانوا بطبيعة خلقهم غير محجوبين عن إدراكه خلواً من نوازع الشهوات التي تؤدي إلى معصيته، فهم يستحضرون جنابه دون حجاب ويستيقنون به وبآياته دون غطاء، لا يلحقهم من عبادتهم سأم ولا يعيقهم ملل، لا يتخلفون عن شيء من قوله ولا ينشغلون بشيء عن حضوره، فكانوا بذلك المثل الأعلى في عبادته كما أراده سبحانه. كما وصف ذلك أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)(١).

---

(١) قال عليه السلام في بعض كلامه (نهج البلاغة ج:١ ص:١٦٨-١٧٣) يصف خلقهم: ((ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته، ملأ بهم فروج فجاجها، وحشا بهم فتوق أجوائها. وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد. ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها. أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات، أولي أجنحة تسبح جلال عزته لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعته، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً مما انفرد به ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾، جعلهم في ما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته. وأمدهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة، وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده، ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده. لم تثقلهم موصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الإحن في ما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم.

منهم من هو في خلق الغمام الدلح، وفي عظم الجبال الشمخ، وفي فترة الظلام الأبهم، ومنهم من خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى، فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية. قد استفرغتهم أشغال عبادته ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته. وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره. قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته، وتمكنت من

ثم خلق من صنوف المدركين من خلقه الجن، خلقه خلقاً لطيفاً دون لطف ملائكته ودون كثافة المادة التي خلق منها الإنسان فحشره مع ملائكته، مشغولاً بعبادته في نشأة لم يذكر وجود نسل له فيها[1] إلا أنه قد ميزه عنهم بأن جعل في مادته رغبات جامحة قد يخرج بها عن الخضوع لله سبحانه إذا غلبت عليه.

وقد خلق من وراء ذلك هذا العالم المادي بما فيه من بدائع صنعه وروائع خلقته، وهيّأ فيه أسباب المعاش من مياه أجراها وشموس أنارها ونباتات أنبتها

سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم، ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، ولا تعدو على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات. قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلا إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته. لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم غل التحاسد، ولا شعبتهم مصارف الريب، ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان. لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونى ولا فتور، وليس في أطباق السماوات موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة بربهم علماً، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظماً)).

(١) نعم جاء ذكر وجود ذرية له كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾ (الكهف:٥٠)، لكن من المحتمل أن يكون حصول الذرية له بعد طرده من محله الأول كما جاء في الآية الشريفة بعد ذكر خديعته لآدم: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ (البقرة:٣٦).

وحيوانات خلقها ومعادن كوّنها.

وقد اقتضت حكمته أن ينشئ الكائنات في هذه النشأة خلقاً متدرجاً ينتقل من حالٍ إلى حال على وَفقِ سنن سنّها وقوانين قنّنها، إثباتاً لعظيم قدرته وبديع صنعه، نظير خلق الإنسان والحيوان من نطفة وخلق النبات من بذرة تنتقل فيها من مرحلة إلى أخرى حتى يحصل كماله، ثم يبدأ بالتنازل حتى يفنى.

فكان خلق السماوات والأرضين وكل ما فيها على هذا المثال بعينه، فقد بدأ في خلقها من مادة أودع فيها طاقات تؤدي إلى انفلاقها وتطورها وتكاملها، فكوّن منها المجرات العظيمة بما تحتوي عليه من كواكب وشموس وأقمار حتى أصبح فيها ما هو قابل للحياة النباتية بما أودع فيها من مقدمات الحياة ومقوماتها، فخلق سبحانه من التراب أنواعاً من النباتات تتغذى بالتربة والماء منها متشابه وغير متشابه، وجعل استمرارها من خلال ما أودعه فيها من بذور وسيقان وغير ذلك، ثم إذ تهيأت الأمور خلق الحيوانات من تراب بأنواعها تتغذى من النباتات أو من بعضها، وأودع فيها نظام تكاثرها واستمرارها.

ثم حيث تمهدت الأمور خلق الإنسان ـ الذي هو أرقى الكائنات المادية ـ ممزوجاً من لطف الروح وكثافة المادة، جامعاً فيه بين صفة الملائكة من التعقل والإدراك وصفة الحيوانات من الشهوات والتعلقات المادية، مميزاً له بالتمكن من الانتفاع بهذا الخلق العظيم. ليتعامل مع هذا العالم المادي بحسب حاجته ويقف بذلك على روائع خلقته وتفاصيل صنعته، ليكون خليفة له في الأرض، فبدأ خلقه جسداً من طين ونفخ فيه روحاً من الحياة جاعلاً فيه مبادئ الحكمة ونوازع الاغترار، وجعله بطبيعة خلقته محجوباً عما وراء هذه الحياة من وجوده سبحانه ووجود ملائكته والجن إلا ما عسى أن يستدل عليه بعقله أو يوحى إليه من قِبله سبحانه، ضعيفاً تتسلل إليه إيحاءات الملائكة والجن من حيث لا يحتسب.

هذا، وقد أبلغ ملائكته والجن عند إرادة خلقه، منبهاً على امتيازه على سائر الكائنات المادية التي شهدوها من قبل.

ولم تخلُ حال الملائكة والجن عند تبليغهم من قِبله سبحانه بخلق الإنسان

عن توقف في وجه الحكمة في خلقه، حيث ذكروا له سبحانه أنهم يفون بما يريده من تسبيحه وتقديسه، وأن هذا الكائن سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

ولعلهم علموا ذلك بالالتفات إلى تزاحم المصالح في هذه الحياة والابتلاء بالشهوات فيها، على ما تمثلت في أحوال الحيوانات المخلوقة من قبل، إذ تتجاذبه دوافع المعرفة والشكر والإذعان وبواعث الجهل والغفلة والكفران. فنهرهم سبحانه وتعالى عن ذلك وذكر أنه يعلم عن ميزة هذا الكائن ما لا يعلمونه، ثم عرضه عليهم بعد خلقه كاشفاً لهم عن امتيازه، وأمرهم بالسجود له بعد ما بدر منهم من استصغاره، فاستجابت الملائكة لأمره، على سجيتهم في الطاعة والامتثال، ونزغت في الشيطان ـ الذي كان من الجن ـ نوازغ الحسد فأبى ذلك مفضلاً نفسه عليه، فاستوجب إبعاده تعالى إياه عن موضع قربه ومحل عنايته بعد طول عبادته.

ثم إن الله سبحانه وإن كان قد قدّر خلقة الإنسان ليحلّ في الأرض على سبيل الامتحان والاختبار والتناسل والفناء إلا أنه حيث كان يعلم العناء فيها على آدم وزوجته لم يشأ أن يفعل ذلك ابتداءً، فاختبرهما بنهيهما عن الأكل من شجرة معينة، فعملت نوازع الحسد في نفس الشيطان حتى غشّ آدم وزوجته فاستوجب ارتكابهما لما نُهيا عنه، فأنزلهما ـ أي الجن والإنس ـ الله تعالى من النشأة التي كانا فيها إلى نشأة هذه الحياة على وَفقِ تقدير منه تعالى لذلك، ومتعهما فيها إلى حين، ليرى كيفية طاعتهم له واستجابتهم لتعاليمه، ثم إذا انقضى الأمد الذي قدّره سبحانه أنشأ هذه الحياة نشأة أخرى أبان فيها عن نفسه ورفع حجب الغطاء عنه، ليجزي كلاً بعمله.

هذا، ولم يكن صنيعه سبحانه في إنزال آدم وزوجته إلى الأرض ـ بعد اختبارٍ منه ـ من جهة أن هذا الفعل فيما لو وقع منه سبحانه إجحافاً بآدم وأهله، ولكنه أراد أن لا يكون ذلك تحكّماً محضاً منه سبحانه، بل يكون لاختيارهما دخل فيه دفعاً لخواطر العتب منهما عليهما السلام تجاهه تعالى، لِمَ لَمْ يُبقِهما في النعيم الأول محفوفَين بملائكته؟ فحمّلهما مسؤولية هذا العمل الذي وقع باختيارهما،

جارياً سبحانه في ذلك على ما فطر عليه الإنسان من مشاعر وعواطف توجب ارتفاع العتب في مثله، مع ما كان في هذا الاختبار من دلالة لآدم وذريته على كيد الشيطان لهم وكدّه في إضلالهم، وهو سبحانه تعالى أعلم.

وقد أرسل سبحانه إلى الإنسان في كل مدة رسلاً يبينون له غاية خلقته ويعلمونه بما قدره سبحانه وتعالى له من تفاصيل مسيرته ليكون على بينة من أمره، ولا ينافي ذلك عدم اطلاع بعض الخلق على ذلك، فإنه إنما كان عن قصور قدّره له سبحانه وذلك من وجوه التشابه والابتلاء الذي قدّره في هذه الحياة، وهو أعلم بحيثيات أفعاله، وليس من العقل أن يرفض المرء ما يدريه لمكان ما لا يدريه، وقد صدق سبحانه إذ قال[١]: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً**﴾.

وبذلك يُعلم أنه سبحانه لم يخلق هذا الخلق ليتركه إلى نفسه يتحول من حال إلى حال وتطرأ عليه عوارض التطور والفناء من غير غاية أمّها ولا نهاية قدّرها، بل خلق هذا الخلق كله دلالة على قدرته وإعلاماً بعظمته، موجهاً له إلى غاياته، سائقاً إياه إلى نهاياته، فمن ظن غير ذلك فقد ظن به سبحانه عبثاً ولهواً تعالى عن ذلك قال عزّ من قائل[٢]: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾. وقال سبحانه[٤]: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾، وقال عن المؤمنين يذكر شعورهم بذلك[٥]: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

فاستحضر أيها الإنسان ـ سددك الله ـ ما أبانه سبحانه من غاية خلقك

---

(١) الإسراء:٨٥.

(٢) ص:٢٧.

(٣) الدخان:٣٨ـ٤٠.

(٤) القيامة:٣٦.

(٥) آل عمران:١٩١.

واشكر له أفضاله عليك، واعلم أنك إذا سرت على المسير الذي وجهك إليه أدى بك إلى خير دائم، وإن انحرفت عنه أدى بك إلى خسران مقيم.

وجود الكائنات وبقاؤها كله بإذنه

(الحقيقة ٥): أن وجود الكائنات وأفعالها كله بإذن الله تعالى، وإن وكّل ببعض أمورها جنوداً من خلقه خاضعين له حسب ما اقتضته كبرياؤه وعظمته.

اعلم ـ سددك الله سبحانه ـ أن مما اقتضته شواهد الفطرة وأكدته الرسائل الإلهية أن وجود الكائنات وأفعالها متقوّمة بفيض الله سبحانه وتعالى آناً فآناً، فلا وجود لشيء دون إمداده، ولئن ترك سبحانه شيئاً آناً زال وجوده كما قال سبحانه[1]: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾، فلا يتوهم أحد أن الله سبحانه أحدث الأشياء فهي باقية بنفسها من دون حاجة إلى مدده ولكنه تعالى قادر على إعدامها، وإنما مثل الأشياء بالنسبة إلى فيضه سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل ضياء المصباح الذي يستمد الطاقة من الكهرباء، فإذا انقطعت الكهرباء انطفأ المصباح.

كما إنه لا حاجة له سبحانه وتعالى في شيء من أموره إلى الاستعانة بخلقه، وكيف يحتاج إلى ما خلقه؟! ولكنه سبحانه سخّر جنوداً من خلقه وكّلهم ببعض الأفعال حسب ما اقتضته رفعته وعظيم شأنه، فمنهم من وكله بإيصال وحيه إلى رسله ومنهم من وكله بتوفي خلقه، ومنهم من وكله بإمداد عباده ونصرتهم، وإنما يتصرفون جميعاً بمدده، وإنما الأمر كله له ومنه، كما قال سبحانه يذكر نصر المؤمنين بالملائكة[2]: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾، وقد أوحى الله سبحانه إلى بعض أنبيائه من خلال ملائكته وإلى بعض آخر كموسى عليه السلام بنحو مباشر كما قال

---

(١) فاطر:٤١.

(٢) آل عمران:١٢٦. ولاحظ الأنفال:١٠.

تعالى[١]: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وليس لأحد من جنوده ولا رسله سبحانه أن يحيد عما وكّل به، ولا أن يشفع لغيره إلا بإذنه، ومن شفع في شيء كان لله سبحانه الأمر في الاستجابة من عدمها، ولن يجد أحد تحقق شيء مما يرغب فيه خارج نطاق حكمه، ومن ثم ابتلي العباد الصالحون بأهل الضلالة من أقربائهم وذويهم ولم يستجب الله سبحانه لدعائهم لهم بالهداية حسب ما اقتضته مقاديره، ولا قبل شفاعتهم في المغفرة لهم، ولا أذن لهم في معجزة رجوها عسى أن يهتدي الخلق ويسلموا من العقاب، فالكل تابع له وخاضع لحكمه كما قال تعالى لنوح عن ابنه[٢]: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. وقال لإبراهيم حيث أعطاه الإمامة ورجاها لذريته[٣]: ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. وقال لنبيه ﷺ[٤]: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾. وقال[٥]: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾. وقال[٦]: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. وقال[٧]: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. وقال[٨]: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ

---

(١) الشورى:٥١.

(٢) هود:٤٦.

(٣) البقرة:١٢٤.

(٤) التوبة:٨٠.

(٥) القصص:٥٦.

(٦) الأنعام:٣٥.

(٧) فاطر:٨.

(٨) آل عمران:١٢٨.

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

فعلى الإنسان الشعور بالله سبحانه في جميع أحواله والالتفات إلى مدده الذي يتوقف عليه وجوده وأفعاله، فلا حول ولا قوة لأحد إلا بالله، ولا يملك المرء لنفسه ولا غيره نفعاً ولا ضرراً إلا بتمليكه، فلا يظنن أحد أن هناك مركز قدرة يلجأ إليه دونه.

نعم قد أذن سبحانه في شفاعة عباده الصالحين لبعض المذنبين ممن وجد نقصان أعمالهم بدرجة تشملهم موازين فضله وكرمه هبة للشافعين وإكراماً لهم لما عانوا في سبيله وصبروا على الأذى في جنبه، من غير أن يخرج ذلك عن حدود تناسب سعي الإنسان وجزائه وتفاوت المسيء والمحسن على ما قضى به قوله تعالى[1]: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ وغيره مما ورد في الآيات الشريفة.

كل شيء في عالم الوجود جارٍ خاضع لحساب وتقدير

(الحقيقة ٦): أن كل شيء في عوالم الوجود والكون من العالم المادي وما ورائه خاضع لحساب وتقدير على وَفقِ ما دلت عليه الرسائل الإلهية إلى خلقه، ولمحاسبته مراتب ..

فالأولى: ما تكون بلحاظ مقام علمه وإمداده حيث أحاط تعالى بكل شيء علماً، وافتقر إليه كل شيء في وجوده.

والثانية: ما هو من شؤون عظمته حيث خلق من ملائكته خلقاً كلفهم بثبت الأمور والمقادير كلها بعد إبلاغها إياهم، وربما أخفى عنهم بعضاً استأثره بعلمه، فأمرهم بكتابة تقديرات غير حتمية، حتى يبلغهم قضاؤه فيمحو ما شاء ويثبت ما شاء، وقد قال عز من قائل[2]: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾.

والثالثة: ما هو من شؤون قضائه في يوم القيامة حيث وكل بعض ملائكته

---

(١) النجم:٣٩.

(٢) الرعد:٣٩.

بسائر خلقه، يحصون أفعالهم ويكتبون أعمالهم، فهم شهود عليهم في أمورهم كلها وشهداء في حقهم يوم القيامة عند إقامة الموازين والفصل بالقضاء.

والرابعة: ما هو من شؤون قضائه في القيامة أيضاً حيث أثبت كل تصرف للإنسان في جوارحه ليشهد عليه بها يوم القيامة.

وجود خلق غير مادي من الملائكة والجن وتفاعله مع الإنسان

(الحقيقة ٧): وجود خلق آخر لله غير مادي وتفاعله مع الإنسان في هذه الحياة.

قد علمت أن الكائنات المخلوقة لا تنحصر بما هو من سنخ هذا الوجود المادي ـ من الإنسان وسائر الموجودات المرافقة له في هذه الحياة ـ بل هناك وجودات ألطف منه تتفاعل مع الإنسان وتشعر به ولو من حيث لا يحتسب كما تضمنته سائر الرسائل الإلهية إلى خلقه، والاطلاع على ذلك ينفع في التفات الإنسان إلى خريطة الوجود والاطلاع على موضعه منها، ويُظهر له عظمة الله تعالى في الآفاق الغائبة عنه. مضافاً إلى أن لهذه الكائنات إيحاءات نفسية إيجابية وسلبية على الإنسان، وهي ـ كما تقدم ذكره ـ صنفان ..

الأول: الملائكة، وهي موجودات خيّرة تعمل جنوداً لله تعالى في هذه الحياة وفي الآخرة، وهي على أقسام بعضها متفرغ لعبادته وبعضها موكّل بعمل محدد بإذنه سبحانه وتعالى كإنزال الوحي على الأنبياء أو قبض الأرواح وغير ذلك. ومنها ما يقف على حال الإنسان وتحفُ به عند الأعمال الفاضلة وتوحي إليه بإيحاءات الثبات والاستقامة، وتستغفر له وترجو له حسن العاقبة وقد تعينه إعانة مادية بإذن الله تعالى، كما قال تعالى[1]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ..﴾، وقال سبحانه[2]:

---

(١) فصلت:٣٠، ٣١.

(٢) غافر:٧.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ إلى آيات كثيرة أخرى معروفة.

والآخر: الجن، وهي موجودات أشبه بالإنسان ولكنها ألطف منه حيث إنها ليست من هذه المادة المحسوسة ولا ترى بالعين المادية، وهي مكلفة كالإنسان منها مطيعة وأخرى عاصية.

ولا علم لنا بنظام حياتها، إلا أنها تتميز بالتمكن من أفعال خارقة بالنسبة إلى الإنسان نظير ما حكي في الآيات من عملها لسليمان، وهي تعلم ببعض ما يغيب عن الإنسان بحسب نشأتها وطبيعتها.

وقد يتراءى للناظر في النصوص والآثار ـ وقد قال به بعض المفسرين[1] ـ أن المخلوق الأول منها هو الشيطان ـ فهو من سائر الجِنّة على حدّ آدم عليه السلام بالنسبة إلى سائر البشر ـ وقد خُلق قبل الإنسان وغاظه إكرامه سبحانه للإنسان فعزم على أن يسعى إلى ضلال آدم وذريته حسداً لهم ونكاية بهم، من خلال إيحاءات نفسية سيئة تزين لهم هذه الحياة وتشجعهم على الرذائل وتثبطهم عن الأعمال الفاضلة وتسوفهم بالأماني، وذلك مما أذن الله به سبحانه بحسب تقديره ـ استكمالاً لنظام الامتحان والابتلاء في هذه الحياة ـ وحذّر الإنسان من الانصياع لأوامره والتأثر بوساوسه، وقد ذكر ذلك في آيات عديدة.

وفي ذريته أيضاً أفراد شريرة معنية بمثل هذه الإيحاءات السيئة للإنسان، وهي تحتف بالإنسان عند ممارسة الأعمال الشريرة والأفعال الرذيلة، وقد تكون قريناً للإنسان الشرير يصاحبه في أحواله، وقد وصف جملة من أفعالها، وسيأتي ذكر من ذلك.

النظام الذي خلق عليه الإنسان

(الحقيقة ٨): ذكر النظام الذي خلق عليه الإنسان في هذه الحياة وما

---

(١) لاحظ تفسير مجمع البيان ج:١ ص:١٦٣.

بعدها، وتبصّر الإنسان في هذا الموضوع ضروري جداً، فإنه أمس الأمور به، ولن يتحقق السلوك الصحيح للإنسان من دونه.

وهذا النظام بطبيعة الحال يكون مناسباً لغايته سبحانه من خلق الإنسان وهي معرفته والإذعان له والخضوع لعظمته كما خلق الملائكة والجن لهذه الغاية نفسها.

ولهذا النظام على وَفقِ ما أنبأ الله سبحانه وتعالى به عباده في رسالته إليهم عدة مفاصل ـ ظهر بعضها في طيّ ما تقدم ـ ..

بقاء الإنسان بعد الممات

الأول ـ وهو خطير جداً ـ: أن الإنسان لا يفنى بانقضاء هذه الحياة بل يبقى بعدها وإنما تنفصل بالموت روحه عن جسده، وعليه فإن الإنسان كائن مؤلف من روح لطيف وجسم كثيف، وقوام وجوده هو الأول ولكن الثاني هو الذي يبتدئ به في نشأته في هذه الحياة حيث إنه يكون أولاً جنيناً نامياً حتى تنفخ فيه الروح الإنسانية.

ووجه خطورة هذا المعنى أنه يوجب قلق الإنسان بشأن طبيعة حياته بعد الموت وما يتفق له حينئذٍ، فما هي العلاقة بين ممارساته في هذه الحياة وبين وضعه وأحواله في ما بعده؟ فهل تنعكس عليه ممارساته الفاضلة وغيرها أم ماذا؟ وكيف يستعد الإنسان لحياته الأخرى ويحاول أن يكون سعيداً فيها؟ والجواب عن ذلك كله مما حدد بوضوح في رسالته سبحانه وتعالى.

ارتهان سعادة الإنسان وشقائه بعد الممات بأعماله في الحياة

الثاني: أن سعادة الإنسان وشقاءه بعد هذه الحياة مرهون ـ على الإجمال ـ بتصرفاته في هذه الحياة، فإذا كانت تصرفاته كلها من قبيل الأعمال الفاضلة سعد في تلك الحياة، وكذا إذا صدرت منه تصرفات قبيحة ولكنه تاب عنها توبة نصوحاً حتى كرهها وأقلع عنها وندم على ارتكابها. وإذا كانت تصرفاته من

قبيل الأعمال القبيحة شقي فيها. وإن كانت تصرفاته مختلطة من عمل صالح وآخر سيئ ولم يتب منه لقي بعض السعادة وبعض الشقاء. وذلك كله أمر لا محيص عنه حسب تقديره سبحانه وتعالى على التفصيل الآتي.

وفي معرفة هذا المعنى ما يوجب أن يتأمل المرء كثيراً في كل خطوة قبل أن يخطوها، ويربي نفسه تربية عميقة على الأعمال الفاضلة، لأن أعماله سوف تترك ظلاً ظليلاً وخالداً على حياته الخالدة، فيكون كل فعل خير أو شر مضاعفاً عليه بما لا يحصى من خلال أثره الباقي عليه.

أهمية المعرفة به تعالى في سعادة الإنسان

الثالث: أن أهم عامل يؤثر في سعادة الإنسان هو معرفة الإنسان بصاحب هذه الحياة في كل مكوناتها وتفاصيلها والخالق له المتفضل عليه بصنوف النعم وأنواعها، فمعرفة الله سبحانه والإذعان له يترك ظلاً ظليلاً على حياته الآخرة، فمن عرف الله تعالى وأذعن له فقد حصل على رأس مال رابح وخالد.

وذلك لما في معرفته والإذعان له من معاني الشكر والأدب والعرفان، وقد جعل سبحانه وتعالى الشكر والأدب من سنن التنمية لأنه سيد الأخلاق الفاضلة.

كما إن أهم عامل يؤثر في شقاء الإنسان هو معاندة المرء في الإقرار به سبحانه وإثبات الشريك له، فإنه انتقاص عظيم لحقه ونكران قبيح لجميله، ينعكس على صاحبه نكداً ويوجب تعاسة وبعداً.

ودونه في عوامل الشقاء إهمال المرء لهذا الأمر وعدم تحريه وبحثه، فيضل السبيل من جهة قلة اهتمامه بما يحتمله من وجوده ورغبته سبحانه في معرفته والإذعان له، فيعيش المرء كالأنعام لا يعرف صاحبه ولا المنعم عليه.

ومن كان قاصراً عن معرفة الله تعالى ـ من دون تقصير منه ـ كان له سبحانه تقدير عذره، وتنزيله على ما يستوجبه بحسب حاله، ولكنه لن يبلغ درجة العارف به المذعن له في ما عرفه من حقه وشكره على معروفه.

وفي حكم معرفته سبحانه الوقوف على رسالته إلى الخلق في أمر هذا العالم وأبعاده وشؤونه، لأن هذه الرسالة تكشف للمرء أبعاداً ضرورية لن ينالها العقل، كما إنها تقي المرء من الشكوك والشبهة في ما يدركه، فإن العقل لن يهتدي إلى كثير من الحقائق المهمة والمؤثرة في مسيرة الإنسان. على أنه قد يصاب أكثر الناس في مدركاته الحقة بالتشويش والشبهة كما تقدم ذلك، فالسبيل إلى معرفة حقائق هذه الحياة منحصر بالوقوف على رسالته.

على أن في هذه الرسالة تحديداً لحدود الوظائف الفطرية التي لا تخلو هي بدورها عن تشابه وتشويش لا سيما لدى أغلب الناس، وقد تختلط هذه الوظائف بإدراكات ومشاعر أخرى لا قيمة لها. وبذلك تحدد الرسالة المنهج الصحيح في هذه الحياة تحديداً يرفع عنه اللبس والخطأ.

ثم في الوقوف على رسالته تعالى إلى خلقه والإذعان لها وتقديرها تأدب معه سبحانه وتقدير لمخاطبته سبحانه للإنسان ولطفه به، وقد عرفت أن مقولة الأدب مع الله تعالى من أهم ركائز علاقته سبحانه بخلقه، فمن انتهك الأدب معه سبحانه فقد هتك نفسه وأفسد حياته.

إيداع مبادئ اهتداء الإنسان وسعادته في باطنه

الرابع: أن الله تبارك وتعالى أودع مبادئ اهتداء الإنسان وسعادته في نفسه حتى يكون رسولاً في باطنه متهيئاً لتلقي رسالته التي يوحي بها من خلال أنبيائه، فإن تلك المبادئ ترجع إلى أمرين ..

أحدهما: حقائق ينبغي إدراكها وأهمها وجود الله تعالى، وهو مما يمكن أن ينتقل إليه الإنسان بعقله من خلال الاستدلال عليه بخلقه، على أنه سبحانه زرع في الإنسان شعوراً بالحاجة ينزع به إلى ما وراء الغيب مما يهيؤه لمعرفته سبحانه والإذعان لوجوده، نظير شعور الطفل بالجوع الدال على وجود مصدر للحليب يتغذى منه فنراه يبحث عن هذا المصدر من دون تردد منه في وجوده[1]،

---

(١) هذه الغريزة الفطرية معروفة في طب الأطفال برد فعل التقام الحلمة (Rooting Reflex).

ونظير شعورنا بالجوع والعطش الكاشف عن وجود ما نشعر بحاجتنا إليه. ومن الحقائق المهمة أن الإنسان يسعد بالعمل الفاضل ويشقى بالفعل القبيح، وهذا المعنى أيضاً موجود كشعور مرموز لدى الإنسان حتى إنه يدفعه إلى التضحية. ومن جملتها عدم فناء الإنسان بالممات، وهو أيضاً من نوازع النفس التي ربما تهيئه للقبول به عند تبليغه إن لم يبلغ به الشعور به إلى درجة يوجب عنده الإذعان. وهذه المشاعر[١] كلها مركوزة في فطرة الإنسان وعند استجابته لها تخدمه بشكل لا تستقيم الحياة بدونها.

والآخر: قيم فاضلة ينبغي العمل عليها كدستور لحياته، وضمان لسعادته في الدنيا والآخرة، وهي أيضاً مما زرعه سبحانه داخل الإنسان في ملكه تسمى بالضمير.

وهذا من عناصر إتمام الحجة عليه في تصديق رسله حيث جاؤوه بما يوافق عقله وتشهد له فطرته كما قال سبحانه[٢] في ذكر ما يوجب التصديق برسوله: ﴿**يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك.

هذا، كما إنه سبحانه وتعالى جعل في نفس الإنسان بحسب طبيعة خلقته وتكوينه نوازع الجهالة والشر، فمن نوازع الجهالة أنه يركن إلى عاجل قليل ويعرض من أجله عن آجل كثير، ومن نوازع الشر أنه يميل إلى إرضاء الشهوات على حساب القيم الفاضلة والمعاني النبيلة.

لكنه لم يجعل تلك النوازع قاهرة له سالبة لاختياره، بل جعله قادراً على عدم الاستجابة لها والاندفاع إليها، وبذلك كانت هذه الحياة اختباراً للإنسان بأن يختار بين نداء العقل والفطرة وبين نوازع الجهل والشهوة.

---

(١) وتسمى بالمشاعر الفطرية وهي تدل على صدق ما يشعر به الإنسان بخلاف المشاعر المكتسبة، وسيأتي التفريق بينهما في مباحث معرفة النفس في الأصل الرابع.

(٢) الأعراف:١٥٧.

هذه الحياة دار اختبار وامتحان للإنسان

الخامس: أن هذه الحياة بالنسبة إلى الإنسان إنما هي دار اختبار وامتحان، فهي مدة قصيرة من مجموع حياته الخالدة أوجدت لهذه الغاية على حدّ فرصة المتعلم في طول السنة في أن يجدّ ويدرس أو يتساهل ويلعب، فيحصل على درجته من النجاح والفشل في نهاية السنة ليكافأ بالارتقاء أو يجازى بالرسوب.

فكل ما يتمتع به المرء من نعم أو يبتلى به من عوارض ظروف أوجدها الله سبحانه وتعالى ليختبر بها مقدار مراعاته لنداء الحكمة وصوت العقل واقتضاء الضمير، فليس في نعمه سبحانه دلالة على كرامته ولا في ابتلاءاته دلالة على إهانته، بل أراد الله تعالى بالإنعام عليه اختبار مدى شكره عليها، أو اغتراره بها وإهماله لما وجب عليه فيها، كما أراد سبحانه بابتلائه اختبار مدى صبره عليه وثباته على مبادئه معه.

فمن تلقى حياته الدنيا هذه بأزيد من ذلك وانهمك فيها فقد اغتر بها وجهل حقيقتها قال سبحانه(١): ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۞ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام(٢): ((أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإن الآخرة قد أشرفت باطلاع، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار. أفلا تائب من خطيئته قبل منيته؟ ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟ ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل. فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضرره أجله، ومن قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد

---

(١) الحديد:٢٠، ٢١.

(٢) نهج البلاغة ج:١ ص:٧١-٧٢.

خسر عمله وضره أجله. ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها. ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضرره الباطل. ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى. ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل. تزوّدوا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غداً)).

وكان عليه السلام كثيراً ما ينادي أصحابه ويقول[1]: ((تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجة على الدنيا وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإن أمامكم عقبة كؤوداً ومنازل مخوفة مهولة لا بد من الورود عليها والوقوف عندها. واعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم دانية، وكأنكم بمخالبها وقد نشبت فيكم، وقد دهمتكم فيها مفظعات الأمور ومعضلات المحذور. فقطعوا علائق الدنيا واستظهروا بزاد التقوى)).

وتفريعاً على ذلك كان الإنسان في هذه الحياة تحت رقابة إلهية في جميع تصرفاته وأفعاله لتثبيتها وتوثيقها ثم مناقشته الحساب في يوم القيامة على وَفقِ موازين العدل بإقامة الشهود على كلها، كي لا يتأتّى له إنكار شيء منها، فتوزن حسناته وسيئاته ويجازى على أساسها.

وقد جعل الله سبحانه للشهادة على تصرفات الإنسان ملائكة كراماً يحصون عليه أعماله ويثبتونها، لا يتهمون في زيادة أو نقصان. كما جعل جوارح الإنسان شهوداً عليه وله يوم القيامة كما قال سبحانه[2]: **﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾**، وقال[3]: **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**، وقال[4]: **﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾**،

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٨٣-١٨٤.

(٢) الانفطار ص:١١، ١٢.

(٣) النور:٢٤.

(٤) فصلت:٢٢.

وقال[١]: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.

واذا اعتذر الإنسان بالجهل وعدم العلم استشهد الله سبحانه برسله الذين أرسلهم ومن اقتفى أثرهم في تبليغ رسالته حتى يشهدوا بتبليغها لهم كما قال سبحانه[٢]: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقال جل شأنه[٣]: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، وقال من قائل[٤]: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾.

حقيقة ممات الإنسان

السادس: أن حقيقة ممات الإنسان ليست فناءً تماماً أو موقتاً، بل هي انفصال روح الإنسان عن جسده، وهو إيذان بانتهاء فرصة الامتحان، ويتحقق ذلك بأمرين متزامنين حسب سُنّته في قرن الأمور المادية والروحية على نحو متآلف، أحدهما: فساد هذا الجسد حتى لا يصلح للعمل والبقاء. والآخر: قبض روحه منه من قبل جنود من ملائكته سبحانه موكلين بذلك.

وتدل الآثار الشريفة على ..

أولاً: أن حال الإنسان عموماً عند الوفاة هو لحظة تبصّر لما غفل عنه، واستيقاظ عما استغرق فيه من نومه، إذ يجد انقضاء هذه الحياة التي اغتر بها وجداناً ويراه عياناً، فيسقط عنه قناع الانطباعات الزائفة، وحجاب الأهواء الزائلة، لا سيما أنه خلال عملية النزع يشعر بأن الممات ليس فناءً وإنما هو انتزاع للروح من هذا الجسد، فهو يستيقن بصدق ما أخبر الله تعالى عنه من بقائه بعد

---

(١) الإسراء:٣٦.

(٢) الأعراف:٦.

(٣) البقرة:١٤٣.

(٤) المائدة:١١٦.

هذه الحياة.

وربما ندم على سوء عمله وأراد التوبة ولكن لن تقبل منه، قال سبحانه[١]: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾، وقال تعالى عن فرعون[٢]: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وقد ورد أن بعض الناس ـ كالمعاندين في شأن الله سبحانه والدار الآخرة ـ يعاملون بشدة في انتزاع أرواحهم قال سبحانه[٣]: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وقد جاء في بعض الروايات أن الملائكة يرفقون بأهل الصلاح ويبشرونهم، ويتراءى للمؤمنين نبيهم ﷺ وأهل بيته ﵈ تلك اللحظة فيسعدون بذلك، وربما أري بعضهم موضعه في الجنان.

وثانياً: أن للإنسان معاناة شديدة عند مفارقته لهذه الحياة ونزع روحه من جسده، لمكان شدّة امتزاجهما في هذه الحياة، ولأنسه بالجسد الذي متع به، فيستوحش مما طرأ عليه من الانفصال عنه، قال أمير المؤمنين ﵇ يصف نزعات الموت[٤]: ((وإن للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على قلوب أهل الدنيا)).

ولعل هذه المعاناة تكون أكثر كلما كان أنسه بهذه الحياة أكثر وترقّبه للقاء الله سبحانه أقل، وتخففه كثرة الأنس بذكر الله تعالى والموت والاستزادة من التقوى والأعمال الصالحة. فمن كان قد عرف الحياة الأخرى واستعد لها يجد تطميناً نفسياً مما يقبل عليه بحسب درجة استعداده، ومن جحد تلك الحياة وكابر

---

(١) النساء:١٧.

(٢) يونس:٩٠، ٩١.

(٣) الأنفال:٥٠.

(٤) نهج البلاغة ج:٢ ص:٢١٠.

في التسليم بها يجد تهديداً مهولاً يؤكد مخاوفه في وقت لا يملك فيه رجوعاً ولا تقبل منه توبة ولا ينفعه إذعان وتسليم بعد أن لاحت عليه تباشير الآخرة وظهرت له أعلامها، وأيقن بما كان يجحده، قال الله سبحانه وتعالى(١): ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأتِيهُمُ المَلائِكَةُ أَوْ يَأتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾.

على أن الإنسان المتأمل في آفاق تلك الحياة لا يزال يتذكر لحظة فراقها ويسعى إلى الاستئناس بها والاستعداد لها، ويتجنب الاستغراق في ملاذ هذه الحياة بما يوجب مزيد التعلق بها ويشق معه الانفصال عنها، فإنها منزل عابر في سفرة بعيدة إلى مقصد عظيم، فما تعلق بهذا المنزل أحد إلا عن جهل، ولا بالغ في التعلق به إلا عن غفلة، إذ لا يصحبه شيء من نعمائها ولا يأخذ معه شيئاً من متعها، ولكن الذي ينتظره مقدار بحثه عن الحقائق التي سوف يطلع عليها والقيم التي اهتم بمراعاتها، ومن تعلق بشيء مفارق له لا محالة زاد على نفسه ألم الفراق عند تجاوزه، وتحسّر على ما انصرف عنه من التعلّقات المثمرة، فكان بذلك ظالماً لنفسه.

وكيف لا يكون كذلك وإنما الموت هو لحظة مواجهة الحقائق الكبرى في هذه الحياة عياناً لمن آمن بها أو عاند في قبولها، حيث ينتقل في سفره إلى مرحلة تتجلى تباشير تلك الحقائق وتتراءى أعلامها، فيستيقن بما كان قد علم به أو شك فيه، ومن ثم عبّر عن الموت باليقين قال سبحانه وتعالى(٢): ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾.

على أن أهل الصلاح ـ بالرّغم من عنايتهم ـ قلقون مما يقبلون عليه ويستقبلونه من آفاق ما بعد هذه الحياة، يملك الهمّ قلوبهم وتملأ العبرة أعينهم، يخشون أن يكونوا قد اغتروا من الحياة بما يتمثل عقبة أمامهم، إذا ارتكبوا خطيئة

---

(١) الأنعام:١٥٨.

(٢) الحجر:٩٩.□

بقيت غصة في أعماقهم، وقرحة في دواخلهم، كيف غلبهم الهوى حتى سجلت عليهم سابقة ارتكاب الخطيئة وضعتها، وأخلّت بنقاء صحائفهم وبياضها، ثم لا يفارقهم الشعور بالتقصير والغبن مما تلف من أوقاتهم بغير استثمار لائق، ولا انتفاع مناسب، فيكون وقتاً ضائعاً لا يتدارك فواته ولا تستدرك لحظاته.

على أنهم يعيشون حالة الانتظار في عمق نفوسهم في جميع أحوالهم، وكذلك حال الإنسان إذا كان على موعد عظيم، لا سيما إذا كان ارتحالاً عن مأمنه وافتراقاً عن مسكنه من غير أمل لرجوع، ولا اصطحاباً لأنيس، وأيّ موعد أعظم من مفارقة هذه الحياة ولقاء الله تبارك وتعالى، وإدبار معالم الدنيا وغيابها وإقبال معالم الآخرة وحضورها.

ومن ثم لم يزل الله سبحانه في رسائله الكريمة إلى خلقه والأنبياء والأوصياء يذكّرون الناس بالموت كي يوقظوهم من نومتهم، فإن لتذكر الموت في نفس الإنسان أثراً خاصاً لما يوجبه من الالتفات إلى الرحيل عن هذه الحياة ومتعها، ويبعده عن الاستغراق فيها الذي هو أصل كل خطيئة ومنشأ كل رذيلة، فمن تذكّر الموت بعض الذكر عاش في الدنيا عيشة مستعارة، ولم تملك منه تمام عقله ونياط قلبه، ولأمير المؤمنين عليه السلام عظات في التذكير بالموت لا يستغني إنسان عن الاستماع لها والإصغاء إليها.

مرحلتان للإنسان بعد الممات: البرزخ والقيامة

السابع: أن للإنسان بعد مماته مرحلتين: الأولى حالته بعد انفصال روحه عن جسده، والأخرى إعادته إلى الحياة في النشأة الأخرى لغرض المحاسبة والجزاء.

أما **المرحلة الأولى** فإن الله سبحانه وتعالى جعلها حتى يجمع عباده للحساب في نشأة واحدة جميعاً حسب ما اقتضته مقاديره، وقد يتلقى بعض عباده فيها ما يوجب تصفية أعمالهم لطفاً بهم عن أن يعرضوا على الحساب في ساحة القيامة.

وتدل بعض النصوص على اختلاف أحوال الناس في هذه النشأة، فعامّة الناس يكونون في هذه المرحلة في سبات سواء من الكافرين أو المؤمنين كما قال تعالى[١]: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ﴾.

هذا، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام[٢]: ((أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً. شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا، ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا. فكلتا الغايتين مدت لهم إلى مباءة فأتت مبالغ الخوف والرجاء، فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا، ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق، فقالوا كلحت الوجوه النواضر وخوت الأجساد النواعم، ولبسنا أهدام البلى، وتكاءدنا ضيق المضجع، وتوارثنا الوحشة، وتهكمت علينا الربوع الصموت، فانمحت محاسن أجسادنا، وتنكرت معارف صورنا، وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا. ولم نجد من كرب فرجاً، ولا من ضيق متسعاً، فلو مثلتهم بعقلك أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها. وعاث في كل جارحة منهم جديد بلى سمجها، وسهل طرق الآفة إليها، مستسلمات فلا أيد تدفع، ولا قلوب تجزع، لرأيت أشجان قلوب، وأقذاء عيون. لهم في كل فظاعة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي. وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون كان في الدنيا غذي ترف وربيب شرف. يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به ضنا بغضارة عيشه، وشحاحة بلهوه ولعبه..)).

ويكون بعض عتاة الكافرين في عذاب وجحيم غير مادي وليس من

---

(١) المؤمنون:١١٣.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٠٧-٢١٠.

جنس عذاب الآخرة المادي، كما قال تعالى عن فرعون[1]: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾، كما يكون بعض الصالحين وخيار المؤمنين في نعيم وسلام كما ورد في شأن بعض الأنبياء والأوصياء، وقد ورد أن النبي ﷺ رأى في معراجه بعض الأنبياء عليهم السلام كموسى عليه السلام كما ورد وصف حال الشهداء في الآيات الشريفة.

وأما **المرحلة الثانية** فيخلق الله سبحانه أجسام الخلق جميعاً ويعيد إليهم أرواحهم ويوقفهم للحساب في محضر الأنبياء والشهداء والصالحين على تفصيل مذكور في القرآن الكريم.

هذا إجمال حقيقة المشهد في عالم الوجود كما اقتضى بعض فصوله العقل، وفصلته رسالة الله سبحانه إلى خلقه في بيان ذلك.

---

(١) غافر:٤٦.

المطلب الثاني
في قوة الاعتقاد بتلك الحقائق ومقتضايتها

خطورة المشهد

لقد تضمنت الحقائق الكبرى المتقدمة أمراً عظيماً ونبأ خطيراً، وهو أنه سبحانه لم يخلق هذا الكون ليتركه على سننه التي سنّه عليها حتى يلحقه ما يلحقه بحسبها من غير عناية يعملها وغاية ينظر إليها، ولا خلق هذا الإنسان ليتمتع بهذه الحياة ثم يفنى بمفارقتها على حدّ الأنعام وغيرها، بل خلق هذا الكون ليجسد عظيم قدرته وبديع صنعته إلى أمد محدود وأجل معدود، ثم يقلب نظامه لينشأ به نشأة أخرى قال عزّ اسمه[1]: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾. كما خلق الإنسان كائناً مخلداً حدد لتصرفاته قانوناً إن جرى عليه تولاّه الله تعالى وجازاه فبارك في حياته وسعد بها سعادة دائمة، وإن نبذه وخالفه تركه إلى نفسه، يبوء بآثامه، وينوء بتبعاته في شقاء مقيم، فلكل امرئ من حياته ما سعى.

وهذا يعني أن الإنسان قد مُتّع بهذه الحياة كجلسة امتحان وفرصة اختبار، بداية لسفرة طويلة يكون زاده فيها مساعيه في تلك الفرصة العاجلة والمدة الزائلة فما أقصر هذه الحياة في مسيرة الإنسان إذا قيست بما بعدها من عوالم الخلود، وما أخطر مسعى يترك على حياة الإنسان أثراً خالداً وظلاً دائماً إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

وايم الله إذا صدقت هذه الرسالة ـ وهي صادقة فعلاً لقوة منبهاتها وتواتر قرائنها ـ فإنها تقلب حياة الإنسان رأساً على عقب، وكيف لا وإن حياته

(١) الأنبياء:١٠٤.

لتختلف بذلك من مدة منقضية إلى أمد خالد، ومن استمتاع لاهٍ إلى عمل هادف يكون كل تصرف منه بذرة تؤتي غداً نتاجها ويذوق ثمارها.

فسبحان الله ما أعظم هذا المشهد وأعمقه، لا تُسبر أغواره ولا ينفذ إلى كنهه، وما ادعاه للعمل وأوجبه للجدّ، وما أكثر خسارة من جهله، وما أكثر ندم من اعتقده ثم فرط في العمل على وَفقِه في يوم تكثر فيه الحسرة والتغابن من غير ما نفع ولا جدوى، وإلى الله المصير.

وقد سبق من قبل التذكير بأن المرء لو احتمل صدق هذه الرسالة ولم يجزم به لكفى ذلك في الاعتبار بها والعمل على وَفقِها، لعظم خطرها وجليل أثرها، ولما غرس في العقل وتقرّر لدى العقلاء من الاعتناء بالاحتمال في حال أهمية المحتمل، حتى إنه كلما كان المحتمل أهم شفع لتأثير احتمال أضعف، وعليه فلن يستطيع امرؤ يعملُ بموازين عقله ويجري على قواعد فطرته الإعراضَ عن هذه الرسالة إلا في حال الجزم بخطئها، وأنّى له ذلك؟!

فاستيقنوا سددكم الله بما آمنتم به وعقدتم قلوبكم عليه، يقيناً يدرأ عنكم آثار الشك وشوائب الشبهة وعوارض الريب، حتى يتمثل لكم ما آمنتم به حتى كأنكم عشتموه ورأيتموه، ولئن كان الله سبحانه لم يوجب عليكم ذلك لنفسه فإنه طالبكم بما يتوقف عليه وكلفكم بما لا يتأتّى من دونه، فإن من لم يبلغ باعتقاده حدّ اليقين كان عرضة للتقصير ومظنة للتفريط، فكم من معتقد ترى عمله كعمل المنكر لهذه الحقائق أو الشاك فيها، عدا ممارسات محدودة اعتادها وتربى عليها. وذاك علامة على عدم بلوغه حدّ اليقين بها، وإنما المستيقن بذلك من أصبح ذلك همه الأعمق في هذه الحياة وغايته المثلى، حتى يجري في أعماق عقله ومنابت مشاعره في قلبه جري الدم في عروقه، منصوبة قباله، ماثلة أمامه، فتكون صراطه الأقوم، ودليله الهادي، وميزانه في اختيار الأعمال.

وإن من عقل المرء أن يعتبر بما علمه ويتناسق قوله وعمله، ومن جهله أن يصف الخطر ولا يحذر منه، ويؤمن بالشيء ولا يعمل بمقتضاه، فتتناقض أقواله وتتهافت أفعاله.

وينبغي تأكيد بعض ما تقدم في ضمن تذكِرات ثلاث ..

(تذكرة ١): في ضرورة البلوغ بالاعتقاد إلى درجة اليقين

اعلم أن الاعتقاد الجازم بالشيء يكون على مرتبتين: العلم الاعتيادي بالشيء، واليقين به، فإذا اعتقدت بخطأ تصرف ما لسوء عاقبته أو ضرورته من جهة أهمية آثاره، فقد يكون هذا الاعتقاد ـ بالرّغم من الجزم به ـ ضعيفاً، لا يؤدي بك إلى تجنب ما اعتقدت خطأه ولا الإتيان بما اعتقدت صلاحه، فتغلب عليك نزعاتك حتى كأنك شاك في ما علمته ومتردد في ما اعتقدته، وحينئذٍ لا يستتبع الاعتقاد الأثر اللائق به والعمل المناسب له، بل يضرُ بصاحبه من حيث إن الحجة به إثم عليه والمعذرة معه منتفية عنه.

وقد يبلغ الاعتقاد درجة من الوضوح والاستحضار لما يعتقد به حتى كأنه يعاينه ويعيش آثاره وتبعاته، وحينئذٍ يستتبع رعايته والعمل بمقتضاه من دون توانٍ أو وهن، وذلك هو اليقين.

ومقتضى العقل السليم أن يبلغ المرء بكل ما يعتقده درجة اليقين كي ينتفع بعمله فيحذر مما يقتضي الحذر منه، ويرغب في ما يقتضي الرغبة فيه.

ومن ثم كان على المؤمن أن يعتقد بالله سبحانه وتعالى حتى كأنه يراه ويعتقد برسوله ﷺ حتى كأنه حاضر عنده، يصغي إلى ما يتلوه من الآيات ويشهد ما جاء به من البيّنات، ويعتقد بانقضاء هذه الحياة حتى كأنه تجاوزها إلى القبر والقيامة، ويعتقد بالجنة والنار حتى كأنه ذاقهما وعاش فيهما، كما قال سبحانه(١): **﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾**، وقال عزّ من قائل(٢): **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾**.

---

(١) التكاثر:٥ـ٧.

(٢) الأنفال:٢ـ٤.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[1] في وصف المتقين: ((فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون)). وعن الإمام الحسين عليه السلام[2] في رسالته إلى بني هاشم غداة وصوله إلى العراق: ((أما بعد فكأن الدنيا لم تكن والآخرة لم تزل))، وعنه عليه السلام[3] في دعاء عرفة: ((اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك)).

وفي الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام[4] يقول: ((إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً. فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، وقال: إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم وكأني أنظر إلى أهل الجنة، يتنعمون في الجنة، ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار، يدور في مسامعي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: ((هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان))، ثم قال له: ((ألزم ما أنت عليه)). فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر)).

فانظروا سددكم الله إلى ما يجب أن يكون عليه المرء، وما هو عليه حاله، كيف يؤمن بهذه الحقائق الخطيرة ثم يستغرق في هذه الحياة ويعيش الغفلة عما

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٦١.

(٢) كامل الزيارات ص:١٥٨.

(٣) إقبال الأعمال ج:٢ ص:٧٨.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٥٣.

وراءها حتى كأنه لا يعتقد بشيء وراءها، ولو عرضت سيرته هذه على العقلاء لرأوا أنها سيرة من لا يرى وراء هذه الحياة حقيقة ينبغي الاعتبار بها والاستعداد لها، ولو قيل لهم إن صاحبها يعتقد لنفسه إلهاً رقيباً عليه ويرى أن لكل لحظة من عمره ما يفوق قيمة الدنيا وما فيها فيما لو استثمرها وعمل صالحاً فيها، وأنه يرى أن أعماله بذور يحصد زرعها بعد وفاته ـ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ـ لأنكروا هذا الوصف، ورأوا أنه على تقديره لا يتجاوز عقائد لقّن بها من غير إيمان حقيقي على وَفقِها.

وليعلم امرؤ أن الفاصل بين درجة اعتقاد المرء وهو في هذه الحياة وبين ما يكون عليه حين ينكشف له الغطاء بعد لقائه الله سبحانه وشهادته لعوالم البرزخ والقيامة مؤشر على مقدار غبنه لنفسه وخسارته في يوم ﴿**لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً**﴾(١)، فليرقَ المرء باعتقاده إلى درجة لو كشف له الغطاء لم يزدد يقيناً، حتى لا يفاجأ بما يشهده غداً، ولا تلحقه الحسرة والندامة على قلة اعتباره عندما بلغته أنباؤه.

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام(٢) في بعض كلامه: ((لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه إذاً لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم. ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمّت كل امرئ نفسه لا يلتفت إلى غيرها. ولكنكم نسيتم ما ذُكّرتم، وأمنتم ما حُذّرتم، فتاه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم)).

فاسعوا رحمكم الله على أن يجري ذكر الله سبحانه والدار الآخرة من قلوبكم مجرى الدم في عروقكم، حتى تكون أبصار قلوبكم شاخصة إليه وأعناقكم ممدودة إلى لقائه، فإنكم معه وفي محضره في جميع أحوالكم، سائرون إلى لقائه بكل خطوة تخطونها ولحظة تمضونها.

وليكن مثل أحدكم تجاهه مثل من عاش مع غيره في مكان واحد، يلتفت

---

(١) الأنعام:١٥٨.

(٢) نهج البلاغة ج:٢٢٩ـ٢٣٠.

إلى حضوره في جميع أحواله ويأنس به في مجموع أوقاته، ويتجنب أن يرتكب في محضره أي تصرف غير لائق. كما ينبغي أن يكون شعوركم تجاه الموت وعوالمه شعور من كان على موعد لأمر خطير، فهو يترقب حلوله ويتأهب لقدومه، ويشعر بدقائق الساعة حتى كأنها أجراس تدق في مسامعه تؤذنه بقرب الموعد ودخول المورد.

ولعمري إن أمر هذه الحياة كذلك، فإن لحظاتها معدودة وثوانيها محسوبة، وإن انقضاء أوقاتها وتطور أحوالها لهو أجراس في مسامع النابهين وآذان لإيقاظ الغافلين، قال عزّ من قائل[1]: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً**﴾.

(تذكرة ٢): ما يوجب ضعف الاعتقاد وقلة اليقين

قد تقدم أن المفروض بمن اعتقد بشيءٍ اعتقاداً جازماً على أساس صحيح أن يكون موقناً به، يملك جوانحه ويسخر جوارحه، حتى يعمل على مقتضاه، إلا أن هناك أموراً تحول دون سلامة الاعتقاد ونفوذه في النفس وسلطانه عليها ..

الأول: ضعف منشأ الاعتقاد بأن ينشأ عن تقليد وتلقين دون تبصّر ومعاينة، فإن ذلك يوجب ضموراً في الاعتقاد، ووهناً فيه يعيقه عن التأثير، لأن من تبع غيره ليس كمن عاين بنفسه، ومن ثم يلزم كل إنسان أن يكون طالباً للحقيقة بنفسه باحثاً عنها بجهده، حتى يكون اعتقاده سليماً ومحفزاً له على العمل على وَفقه.

الثاني: وجود شبهات غير محلولة في أعماق المرء تجاه ما يعتقده، بحيث كان اعتقاده به في حقيقته التزاماً وبناءً لا قناعة وإذعاناً، وقد علم أن الإنسان قد يعقد نفسه على أمر لا قناعة له به في باطنه لتعصّب أو هوى، وهذا قد يؤدي إلى كون الاعتقاد عليلاً والالتزام مدخولاً، حيث لا يسنده قناعة وجدانية.

ولا بد في هذه الحالة من بحث المرء عن مدى صحة الشبهة وعدمها حتى

(١) الفرقان:٦٢.

يستأصل الشك من نفسه وينجلي الحق لديه، ولا يجوز له أن يترك الشبهة في داخله تعشعش في سريرته وتنخر في عقيدته.

الثالث: أن يتعلق اعتقاده بأمر غائب أو مستقبلي فتتشبث النفس بما يجده حاضراً أو حالاً، لأنه يراه ملأ بصره وسمعه، فيستولي على قلبه ويزاحم ما غاب عنه حتى وإن كان جليلاً وخطيراً.

وقد لوحظ بالتأمل في أحوال الناس أنهم يفنون في الواقع المحسوس الذي يعيشونه ولا يعتبرون بأعماق الواقع ولا بعواقب الأمور اعتباراً يليق بها، حتى وإن اعتقدوا بها وأذعنوا لصدقها.

وعليه فإن المرء إذا لم يعالج هذا الإشكال استغرق في هذه الحياة العاجلة وزبرجها وغفل عن أبعادها وامتداداتها، وقد قال عزّ وجل[١]: ﴿**كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ وقال سبحانه[٢]: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾.

وكيف لا يستغرق المرء في هذه الحياة الدنيا ولا يلهو بها عن ذكر الله سبحانه والدار الآخرة وهي شغله الشاغل، واهتمامه الدائم، عليها تنفتح حواسه في تمام يومه وبها تتعلق همومه في خلواته، يتذوق متعها إن أصابها، ويتألم لفقدها إن مُنِعَهَا، والمرء مأنوس بما عاشه وفكر فيه، فرب أخ للمرء لا يذكره لبعده، وصديق أقرب إلى أخيه من نفسه.

وقد جاء في الحديث[٣]أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل ذات يوم سوق البصرة فنظر إلى الناس يبيعون ويشترون، فبكى عليه السلام بكاء شديداً، ثم قال: ((يا عبيد الدنيا وعمال أهلها إذا كنتم بالنهار تحلفون، وبالليل في فرشكم تنامون، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون، فمتى تحرزون[٤]الزاد وتفكرون في المعاد؟!))

---

(١) القيامة:٢٠ـ٢١.

(٢) الروم:٧.

(٣) الأمالي للشيخ المفيد ص:١١٩.

(٤) في بحار الأنوار (ج:١٠٠ ص:٣٢): (تجهزون).

فقال له رجل: إنه لا بد لنا من المعاش فكيف نصنع؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((إن طلب المعاش من حلّه لا يشغل عن عمل الآخرة)).

ولذلك ما انفك المتقون عن تخصيص بعض أوقاتهم للخلوة والتفكير في أمر هذه الحياة وآيات الله فيها وما يتجهون إليه من الدار الآخرة كما قال سبحانه[١]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، فيتخذون من كل شيء تذكرة إلى الله سبحانه، فإذا رأوا شيئاً وجدوا فيه آية على بديع صنعه وعظيم قدرته، لا سيما في ما استجد لهم الاطلاع عليه من روائع خلقه، حتى كأنهم ينظرون في الكائنات كنظر المرء إلى لوحات فنية فائقة لفنان بارع، وإذا رأوا تحول الدول والحكومات وجدوا فيه آثار كبريائه وجبروته كما قال عز من قائل[٢]: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإذا شهدوا فناء شيء كزهرة يراها الإنسان اليوم وتذبل غداً تذكروا انقضاء كل شيء في هذه الحياة وسرعة قدوم الآخرة وإذا سمعوا بميت أو ذكر الأجل ذكروا أنهم على الأثر، وراعهم من ذلك ما يقبلون عليه مع قلة الزاد وطول السفر وسألوا الله سبحانه إعانتهم على الاستعداد له، وإذا عاشوا نعمة شكروا الله سبحانه وتعالى عليها وتذكروا الفاقدين لها من خلقه ممن لا يمتازون عليه بفضيلة ولا يختصون دونه باستحقاق وقالوا في أنفسهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾[٣]، وإذا ارتكبوا ذنباً أتوا إلى الله سبحانه وندموا من فعلتهم في محضره، وخلّف ذلك حزازة في ضمائرهم وحزناً في قلوبهم بما

---

(١) آل عمران:١٩٠ـ١٩١.

(٢) آل عمران:٢٦.

(٣) النمل:١٥.

أخفقوا فيه، مع تذكرهم لعظيم نعمة الله عليهم في الستر عليهم، وإذا مدحوا في وجوههم خافوا مما يقال لهم واستذكروا أن الله سبحانه يعلم من عيوبهم وذنوبهم ما لا يعلمه الناس ولكنه ستر القبيح الذي ارتكبوه ونشر الجميل الذي لا يستحقونه، وإذا التذوا بالطيبات ذكروا نعم الآخرة وهفت قلوبهم إليها، وإذا ذاقوا حرارة أو مرارة ذكروا النار ولهيبها كما جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام[(١)]: ((نعمَ البيت الحمام يذّكر النار ويذهب بالدرن))، وإذا وجدوا في أنفسهم بطراً وإقبالاً على الدنيا خافوا ذلك وزاروا قبور الموتى دفعاً لقساوة قلوبهم وطول آمالهم، أو لجأوا إلى مسجد فتعبدوا فيه التجاء إلى الله تعالى واستذكاراً للقائه.

وعلى الإجمال فإن من كان نصيبه من ذكر الله سبحانه والدار الآخرة صلاته التي يصليها على سهو من قلبه واستعجال من أمره كيف له أن يقدّر الله سبحانه حق تقديره وهو لا يؤمن به حق إيمانه ولا يجاهد في سبيله حق جهاده.

ولينظر المرء موقع هذه الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآفاق الغائبة والمستقبلية للوجود، ومقدار المساحة التي تحتلها في مجموع هذا العالم الوسيع، ثم ليحله في قلبه بنفس النسبة حتى يكون موفقاً في عمله وصائباً في تقديره.

فانظر رحمك الله إلى مساحة ما تشهده من هذه الحياة المادية بالنسبة إلى سائر آفاقها من المجرات التي لا إحصاء لعددها ولا إحاطة بسعتها تجد شيئاً ضئيلاً وأمراً قليلاً، فما بالك بما وراء هذه الحياة المادية من وجود الله العظيم وعوالم الروح والملائكة المقربين؟! ثم انظر إلى قلة أمد حياة أحدنا بالنسبة إلى الامتداد الخالد للحياة بعد الموت في عوالم البرزخ والقيامة تجد قطرة في بحر بل هي دون ذلك، إذ لا نسبة بين شيء محدود وبين أمر غير محدود، فمن أحلّ دنياه محلها تجاه سائر آفاق الوجود وألزمها حجمها فقد اهتدى، ومن نظر إليها نظر المستغرق فيها حتى كأنها تمام مساحة الوجود ولم يترك لغيرها إلا هامشاً ضعيفاً

---

(١) الكافي ج:٦ ص:٤٩٦ ح:١. ولاحظ تهذيب الأحكام ج:١ ص:٣٧٧.

فقد أخطأ التقدير، وزل في الحساب، وقد صدق الله سبحانه إذ قال[1]: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ نعوذ بالله من ذلك.

فعلى المرء أن ينظر إلى هذه الحياة من علٍ ولا يستغرق فيها، فإن من نظر من موضعه إلى ما حوله حجبه عن غير داره أسوارها وحدودها، ومن نظر من فوق رأى المدينة كلها ووجد صغر داره بين أزقتها ومحلاتها، وهكذا كلما نظر الإنسان إلى هذه الحياة التي يعيشها محدوداً بها حجبته حدودها عن التفطن لما سواها، وإذا نظر إليها من علٍ بالتأمل في نشأتها وآفاقها ونهايتها ومصير الخلائق فيها وجدها نزراً عابراً وسيراً عاجلاً فلم تُلهه عما وراءها.

(تذكرة ٣): في ما ينبغي للمرء تجاه الله ورسوله وأوصيائه والدار الآخرة

تفريعاً على ما تقدم ينبغي للإنسان أن يستحضر الله سبحانه في جميع أحواله، متعلقاً به بعلائق أربع هي من أصول الصفات والفضائل التي فطر الإنسان عليها ..

الأولى: الشعور بالشكر والامتنان بما أنعم عليه من عظيم نعمه وإحسانه، فإنما المرء في أصله صنيعة من صنائع الله، وحياته من فيض إنعامه، ولو استثمرها أدى إلى سعادة دائمة، كما إن المشهد الذي يعيش فيه بصنوف نعمه كلها يعود إليه سبحانه فهو صاحبه وخالقه، وإنما مثل الإنسان فيه مثل امرئ حل في مضيف آخر يستمتع بضيافته ويعيش بين صنوف نعمته، فهو في جميع أحواله في هذا المضيف يعيش مشاعر الشكر لصاحبه والامتنان له، ويبدي ذلك له كلما صادفه، وأن الله سبحانه أولى بهذا الصنيع من غيره، إذ هو أصل كل إحسان وأساس كل إنعام، فكل من في الكون جنوده وكل نعمة هي من خزائنه.

الثانية: حس الافتقار إليه سبحانه كما هو واقع الحال، فإن وجود الخلق كله مرهون بمدده فهم رهائن فاقة إلى فضله ومعروفه، يملك من أمورهم ما لا

---

(١) الحشر:١٩.

يملكونه ويقدر من شؤونهم على ما لا يقدرون عليه كما قال عز من قائل[١]: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**.

ويترتب على هذه الصفة رجاء المرء إياه في جميع ما يصبو إليه في الدنيا والآخرة، وإشفاقه من قطيعته وعقابه وعدله فيهما.

وهذه الصفة مما فُطر الإنسان عليها على حدّ مفطورية الطفل الرضيع على الافتقار إلى إعانة أمه وعواطفها، ولئن كانت الأم مجهزة بإمكانات وعواطف تناسب افتقار الطفل إلى أمه، فإن الله سبحانه وتعالى يحب عباده أيضاً وقد ضمن لهم الرحمة والشفقة والرأفة على ما يعلم من صلاحهم، كما قال سبحانه عن المؤمنين[٢]: **﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾**، وقال[٣]: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾**، وقد جاء في الآيات الشريفة وصفه تعالى بأنه رحيم رؤوف ودود بالناس عامة والمؤمنين به سبحانه خاصة.

الثالثة: مراعاة الأدب بالنسبة إليه سبحانه، والأدب هو التواصل اللائق مع الآخرين، وهو مما فطر عليه الإنسان، حيث إن كثيراً من التزاماته تجاه الآخرين ضرب من الأدب الذي يفرضه التواصل معهم حسب مراتبهم ولياقاتهم، وعلى المرء في محضر الله سبحانه أن يتأدب بما يليق بعظمته وقدرته بالتواضع لديه والخضوع بين يديه والاستحياء منه كما قال عز من قائل[٤]: **﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾**.

الرابعة: محبته سبحانه، فإنه مستجمع لجهات المحبة وأسبابها فهو أصل الإنسان وخالقه والمنعم عليه والمتولي لأموره والحاضر معه في جميع أحواله، فهو أولى بالمحبة من الآباء والأصدقاء وسائر المحسنين كما قال سبحانه[٥]:

---

(١) فاطر:١٥.

(٢) المائدة:٥٤.

(٣) آل عمران:٣١.

(٤) النساء:١٠٨.

(٥) البقرة:١٦٥.

﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ**﴾.

فعلى المرء تحقيقاً لذلك كله أن يسعى في تحصيل رضاه سبحانه فإنه السعادة العظمى والغاية القصوى، ويتجنب سخطه فإنه الشقاء المقيم كما قال عز وجل[١]: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ**﴾، وقال[٢]: ﴿**لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ**﴾.

ولا يغيبنّ سبحانه وتعالى عن بال المرء بالنظر إلى ظاهر هذه الحياة حيث أجرى أمورها على سنن محددة ونظام دقيق فربما عاد ذلك حجاباً عن الحقيقة بدل أن يكون منبهاً عليها فظن جريان الأمور فيها على هذا النظام بطبيعتها ولا عامل مدبّر لها وراءها، مع أن في بديع نظمها ودقة تكوينها ما يدل على خالقها وبارئها، وسوف ينكشف للمرء هذا الحجاب بعد الرحيل من هذه الحياة وفي الآخرة حيث يظهر ما كان باطناً وينجلي ما كان مشتبهاً وأن الملك كله لله سبحانه وتعالى.

وينبغي للإنسان أن يتصف تجاه رسوله ـ مضافاً إلى الإذعان برسالته ـ بصفات خمس ..

الأولى: تصديقه في ما بلغه عن الله سبحانه.

الثانية: إطاعته في ما أمر به، حيث أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته.

الثالثة: التأسي به في منهجه وسلوكه في الحياة، فإن الله جعل الأنبياء مثلاً لسائر خلقه وأمر بالاهتداء بهديهم كما قال سبحانه في عيسى ابن مريم[٣]: ﴿**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾، وقال بعد ذكر جمع من الأنبياء[٤]: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾، وقال عز من قائل[٥]: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾، وقال

---

(١) التوبة:٧٢.

(٢) غافر:١٠.

(٣) الزخرف:٥٩.

(٤) الأنعام:٩٠.

(٥) الأحزاب:٢١.

أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلامه[١] بعد وصف إعراض النبي صلى الله عليه وآله عن الدنيا والأمر بالتأسي به: ((فما أعظم منّة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه))، وقال عليه السلام[٢] عن نفسه: ((ألا وإنّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ)).

وإياك أن تعتذر عن التأسي بهم برفعة مكانهم وعلو شأنهم، فإن ذلك كلمة حق يراد بها باطل، وهي من تلبيس الشيطان وأحابيله، فراراً عن العمل وهروباً عن الاقتداء، ولا محيص للمؤمن من أن يمشي في صراطهم ويقتدي بفعالهم ويطأ عقبهم، فإن لم يستطع بلوغ مبلغهم واللحاق بهم فإن عليه أن يعذر الله من نفسه بمتابعتهم بورع واجتهاد وعفة وسداد.

الرابعة: إحلاله بالمحل الذي أحله الله سبحانه من حيث صفاته الكريمة ومقامه عنده تعالى من غير أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

الخامسة: رعاية الأدب معه حسب ما يناسب مقامه الكريم شكراً لموقعه في هداية الخلق وتبليغ رسالة الله سبحانه إلى خلقه.

ويجب للمصطفين من عترته مثل ما يجب له صلى الله عليه وآله عدا مقام النبوة ومقتضياته.

وينبغي للمرء تجاه الدار الآخرة طلب أمور ..

الأول: أن يحل محل رضا الله تعالى ودار ضيافته غير مطرود منه ولا مقطوعاً عنه ولا مهجوراً من قبله، فما آلم أن يجد المرء نفسه غداً في موضع سخط الله سبحانه والبعد منه والعقوق له، بعد أن سقطت الحجب ورفع الغطاء وبان له عياناً حقيقة الأمور، وظهر له أن الملك كله لله الواحد القهار.

وقرّب لنفسك ذلك بحال الطفل إذا هجره أبواه أو حال الولد الراشد إذا قاطعاه لعقوق كيف يكون ذلك غصة في حلقه ونكداً في معيشته، على أن الله سبحانه أقرب إلى الإنسان من أبيه وأمه وقد فُطر على الحاجة إليه، فإن كان قد

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:٦٠.

(٢) نهج البلاغة ج:٣ ص:٧٠.

غفل عن ذلك أو أغفل نفسه للحجاب المضروب في هذه الحياة فإنه سوف يستيقظ يوم تنكشف الحقائق وتظهر السرائر، ولا يمكنه التدارك حينذاك.

الثاني: أن يتشوق إلى نعم الآخرة مما أعدّه الله تعالى للصالحين ويتذكرها دائماً، ولا سيما في موضعين ..

أحدهما: عند معاناة الضيق والابتلاء بالمصيبة، حيث يتأمل ما أعد الله سبحانه للصابرين، كما قال تعالى[1]: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾.

والآخر: عند تذوق نعمة فيرجو لنفسه مثلها أو خيراً منها في الآخرة.

ولا يستهينن أحد بنعم الآخرة ويزعم أنه لا يهتم بها، فإن ذلك زعم باطل وبدعة مخالفة لسنن الأنبياء والأوصياء كما يتمثل في أدعيتهم وسؤالهم من الله سبحانه وتعالى.

على أن خلقة الإنسان في الدنيا والآخرة واحدة، فهي الجسد المادي الذي يتمتع بنعم الحياة ولا يجد غنى عنها، وأن المرء مهما زهد في هذه الحياة فإنه لن يجد غنى عن حاجاته منها، فكيف بنعم الآخرة التي قال عنها سبحانه[2]: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وإنما نحن عبيد الله سبحانه وتعالى نحتاج إلى ما خلقنا محتاجين إليه ونستمتع بما أودع في وجودنا الاستمتاع به ونشكره على كل ما أذن لنا فيه وأنعم علينا به من ذلك، ومن الجهل وسوء الأدب أن يتظاهر المرء بالاستغناء عما يحتاج إليه ويترفع عما هو مطبوع عليه في محضر من هو مصدره في حوائجه وعونه في نوائبه.

نعم لا شك في أن طلب رضوانه سبحانه وتعالى أشرف وأعلى ولكن لا تزاحم بين الأمرين فالمرء مفطور على الحاجة إلى ذلك كله، نعم إذا تزاحم الأمر بين معنى نبيل واحتياج مادي كان الراجح منهما مراعاة الأول بطبيعة الحال.

الثالث: أن يحذر عقاب الآخرة وعتابها ..

---

(١) البقرة:١٥٦.

(٢) السجدة:١٧.

أما عقابها فهو ما أعده الله للمتكبرين عن عبادته وغيرهم من العصاة من نار جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ وهي نار تطلع على الأفئدة لا يخمد لهيبها ولا يسلم نزيلها.

ولا ينبغي استهانة المرء بعذاب الآخرة كما مرّ مثله في أمر نعيمها، كيف وأن أحدنا يجد من نفسه قلة صبره على الأمراض القصيرة الأمد والعوارض اليسيرة فما بالك بعذاب الآخرة وشقائها.

وأما عتابها فهو ما يترتب على قلة اهتمام المرء بأمر دينه وآخرته وضعف إيمانه بهما وإن لم يؤدّ إلى الوقوع في المعصية فعلاً، من توقفه في العقبات، ومداقته في مقام الحساب، وطول مكثه في مواقف القيامة التي تجعل الولدان شيباً، وحرمانه من امتيازات المخلصين الذين كان الله سبحانه والدار الآخرة ملء نفوسهم حتى نظروا إليه ببصائرهم وصغر كل ما سواه في أعينهم.

وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في ما حكي من دعائه الذي علمه لكميل بن زياد النخعي مع الاستغاثة بالله سبحانه من عذابه ذكر مرارة هجرانه، فقال عليه السلام[1] من جملة ذلك: ((فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك، أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك)). وفي ما حكي من دعاء زين العابدين عليه السلام في سحر شهر رمضان في ما علمه لأبي حمزة الثمالي[2]: ((إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحلت بيني وبين الأبرار ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبك من قلبي، أنا لا أنسى أياديك عندي وسترك عليّ في دار الدنيا)).

هذا آخر ما تيسر إيراده في أصل قوة العقيدة.

---

(١) مصباح المتهجد ص:٨٤٧.

(٢) مصباح المتهجد ص:٥٩٠ـ٥٩١.

ثناء على الله تعالى ومسألة

اللهم لك الحمد على ما ميزته بنا من عقل مكّنته من الاهتداء إلى حقائق هذه الحياة وأبعادها، ثم ما تفضلت به علينا من رسالاتك التي نبّهت بها على دلالاتها وغاياتها، حتى آمنا بك وصدّقنا برسلك، فأبلغ اللهم بإيماننا هذا إلى درجة اليقين حتى يكون نوراً من بين أيدينا ومن خلفنا، تصوننا به من فتن هذه الدنيا وتضيء لنا به غداً ظلمات البرزخ وعرصات القيامة.

فما أوضح يا إلهي الحجة عليك، وما أبين الدليل السائق إليك، ففي كل شيء في هذا الكون لوحة بديعة ناطقة بعظمتك، وفي كل كائن في هذه الحياة دلالة على عظيم قدرتك، لولا أن الاعتياد عليها أطفأ دلالتها في أعين الناظرين، والمعايشة معها ألهت النظر لما وراءها في أذهان الباحثين، ولولا ذلك لم يغفل امرؤ عنك، ولا جهل عاقل عظيم أمرك، بل رآك في كل شيء حاضراً، ووجدك على كل شيء شاهداً.

إلهي ما أعظم إنعامك علينا بالاهتداء إليك، وما أكبر منّتك علينا بالدلالة عليك، فارزقنا يا رب محبتك وطاعتك، وهب لنا رحمتك ورأفتك. ويسّر لنا قربك ونيل مرضاتك، حتى تكون أقرب إلينا من نفوسنا وأحبّ إلينا من آبائنا وأبنائنا، وأحبنا كما أحببت الصالحين من عبادك، وتعهدنا بما تعهدت به خلّص أوليائك، ولا تُعرض بوجهك الكريم عنا لتقصيرنا، ولا توكلنا إلى أنفسنا لتفريطنا.

ثم ما أعظم يا إلهي ما دللتنا عليه من حقيقة حياتنا هذه وغاياتها، حيث أثبتّ لنا أنك خلقتنا لاختبار سلوكنا فيها تجاه ما نشهده من آياتك وبلّغته من رسالاتك، حتى تسيّرنا إليك لاحقاً فتولي كل امرئ ما تولاه.

إلهي وأنت تعلم ضعفنا في استيعاب هذه الحقيقة والقيام بحقها فأعنّا على ذلك بإيمان نستبطئ معه المسير إليك، ونحرص به على وشك اللحاق بك، حتى يكون الموت مأنسنا الذي نأنس به وحامّتنا التي نحب الدنو منها، واجعل اللهم يقيننا بالآخرة حتى كأننا متنا قبل مماتنا، ونلنا حلاوة رضوانك في الجنان قبل أن

نوالها، وذقنا مرارة سخطك وإعراضك قبل أن نذوقها، وهب لنا بصيرة نبصر بها ما غاب حتى كأنه حضرنا، وما هو مقبل حتى كأنّه حلّ بنا، اللهم اجعلنا نخشاك كأنّا نراك وأسعدنا بتقواك، واعمر قلوبنا بذكرك، وهب لنا يقيناً بك وفرقاً منك وتشوقاً إليك.

اللهم وصلِّ على أنبيائك ورسلك الذين بلّغوا إلينا رسالتك، وكانوا أدلاء لنا على معالم المسيرة إليك، وقد نصحوا لخلقك في أداء الرسالة وإتمام الدلالة، ولا سيما إبراهيم خليلك، وموسى كليمك، وعيسى بن مريم كلمتك، وخصِّ اللهم بالصلاة والسلام سيدنا محمد بن عبد الله الذي ختمت به رسالاتك إلى عبادك، فكان هو الخاتم لما سبق، والفاتح لما استقبل، والمهيمن على ذلك كله.

اللهم هب لنا محبته والتأدب معه، والإيفاء بحقه، والاتباع لهديه، والتأسي بجميل خصاله وفعاله، حتى نكون في ذلك كله بمثابة خاصته، اللهم وبلّغ رسالته إلى العالمين جميعاً وطوّعهم لاستماعها، والإصغاء إليها، وأزل عنها شوائب أعمال الجاهلين وأفكار الخاطئين، فإن الناس لو اهتدوا إلى تعاليمها على وجهها لم يرضوا بها بدلاً ولا ابتغوا عنها حِولاً.

وصلِّ اللهم معه على المصطفين من عترته الذين استأمنهم نبيك ﷺ على علمه، وقرنهم بالكتاب في مكانته، فكانوا معه في موضع الاصطفاء والأسوة والتعليم في هذه الأمة، ووفقنا تجاههم بمثل ما سألناك تجاه نبيك، ويسّر لنا الاقتفاء بهم والزكاة بتزكيتهم، واجعلنا من المؤتمّين بهم والمحشورين خلفهم، يوم يحشر كل امرئ خلف إمامه، ويجعل كل تابع مع من اتبعه واهتدى بهديه.

الأصل الثالث
الاطلاع على أصول[1] سنن السعادة والشقاء في الحياتين الدنيا والآخرة[2]

ولا بد أولاً من بيان أهمية هذا الأصل، ثم نذكر مقدمة في تذكرات ثلاث..

(١) حول حقيقة السعادة والشقاء.

(٢) في أن سنن السعادة والشقاء منها باطنة وأخرى ظاهرة.

(٣) السعادة والشقاء إنما تكون بلحاظ الأثر.

ثم جاء عرض سنن السعادة والشقاء الخمسة ..

(١) الغنى والفقر النفسيان.

(٢) الإمكانات المادية.

(٣) أثر الأعمال الفاضلة وأضدادها في الدنيا والآخرة.

(٤) السنن النفسية والاجتماعية العامة.

(٥) تولي الله سبحانه للمرء في حياته أو إيكاله إلى نفسه.

أهمية هذا الأصل

إعلموا سددكم الله أنه سبحانه وتعالى سنّ هذا الكون على سننٍ من اهتدى

---

(١) المراد بإضافة كلمة الأصول في هذا العنوان الاحتراز عن آحاد الفضائل والرذائل التي هي السنن التفصيلية والاطلاع عليها هو الأصل الرابع الآتي إن شاء الله تعالى.

(٢) ويمكن التعبير عن ذلك بآثار صفات الإنسان وأعماله بحسب سننه سبحانه في الأنفس والآفاق في كلّ من الحياتين الدنيا والآخرة.

إليها واستثمرها اتصف بالحكمة وفاز بالسعادة، ومن جهلها أو أهمل مراعاتها شقي بها.

واعتَبِروا ذلك بما تجدونه في البعد الكيميائي والفيزيائي للأشياء المادية، حيث تمكّن العلم ـ لا سيما في العصر الحديث ـ بمعونة اكتشاف السنن الحاكمة في عالم المادة من التقدم الباهر في مجال الطب والطاقة وغيرهما، فإن هذا التقدم إنما حصل من جهة معرفة بعض تلك السنن واستثمارها.

وعلى هذا المثال يجري الحال في الصفات الفاضلة والأعمال الصالحة وما يقابلها، فإن لها آثاراً تترتب عليها على وَفقِ سنن حاكمة عليها، منها ظاهرة ومنها باطنة تدل عليها دلائل النقل وشواهد العقل.

وهذه السنن في الحقيقة هي سنن السعادة والشقاء في هذه الحياة وما بعدها.

وليعلم أن هذه السنن لا تستثني الغافلين والمتغافلين، وإن كانت تنطوي على التعامل مع كل حالة بحسبها وتقديرها بما يليق بها، ولكن لن يقاس المتبصر بالجاهل بها ولا يساوى الغافل عنها بالمتغافل لها والمهمل لمراعاتها.

وحيث إن غرض كل إنسان في هذه الحياة هو السعادة فيها كان عليه أن يعرف هذه السنن حتى يتأتّى له تحصيلها، وقد نبّه الله سبحانه وتعالى خلقه بأن كثيراً من الناس لا يعرفون شيئاً عدا ظاهراً من الحياة الدنيا وهم يغفلون عن باطنها وعما يتعقبها من الدار الآخرة كما قال تعالى[1]: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾.

---

(١) الروم:٧.

مقدمة

في ذكر حقيقة السعادة والشقاء وتنوّع سننهما إلى باطنة وظاهرة

وينبغي في هذا السياق أولاً التذكير بمعانٍ حول السعادة والشقاء ..

(تذكرة ١): حول حقيقة السعادة والشقاء.

قد يظن المرء في بادئ النظر أن السعادة في هذه الحياة هي التمتع بالنعم الكثيرة والإمكانات الواسعة والجاه الكثير.

وهذا ظن خاطئ بل حقيقة السعادة هي الشعور الصادق والعميق بالراحة والسكينة والطمأنينة والاستقرار وانطواء المرء على الرضا بمحله وما لديه.

وهذا الشعور على ضربين ..

أحدهما: السعادة المعنوية، بالعمل بالقيم النبيلة والممارسات الفاضلة، وتجنب الممارسات الشائنة والأفعال القبيحة، فإن ذلك يستتبع شعوراً بالطمأنينة لما فيه من إرضاء الضمير والاستجابة للوجدان، ولذا تجد أن المرء بفطرته قد يقدم ممارسة نبيلة على نفع مادي، وما ذلك إلا لما يجده فيه من معاني النبل والرفعة، وما يستتبعه من الشعور بالراحة والسلامة، وما يوجبه خلافه من نغص وتلوّن ونكد واضطراب.

والآخر: السعادة المادية التي تحصل باستيفاء الحاجات وممارسة الملذات.

وقد يظن الظانُّ أن سبيل تحصيل هذه السعادة هو الكدُّ في تحصيل تلك النعم والملاذ والتمتع منها بأكبر قدر ممكن.

وهذا خطأ ممن يقع فيه سواء نظر إلى هذه الحياة المادية وحدها، أو قدَّر آفاق الحياة كلها ظاهرها وباطنها، وعاجلها وآجلها. بل السبيل الأنجع في تحصيل

هذه السعادة مجموع أمرين ..

١ ـ الغنى المادي، والمراد به أن يكون للمرء من الإمكانات المادية كفاف يقيه من المعاناة.

٢ ـ الغنى النفسي، والمراد به استغناء النفس عن الازدياد من الطلبات المادية وقناعته بيسير منها، فإن ذلك مما يورث راحة في النفس وسلامة من القلق والأذى، فكم من امرئ يعيش في إمكانات واسعة كالقصور يحزُّ في نفسه فقدان شيء يجده لدى الآخرين مما يجعل حياته نكداً، وآخر يعيش في قرية عيشة متواضعة، لكنه في هدوء ودعة، فأيُّ الرجلين أكثر سعادة وأروح بالاً؟ وسيأتي مزيد بيان لذلك.

(تذكرة ٢): في أن سنن السعادة والشقاء منها باطنة وأخرى ظاهرة.

إن سنن السعادة والشقاء تنقسم إلى ظاهرة وباطنة سواء ما تعلق منها بالدنيا أو بالآخرة.

فسنن الدنيا منها ظاهرة يلتفت إليها عامة الناس، وتتصف بسرعة الاستجابة للاقتضاءات النفسية من شهوة وغضب ولذة وألم، فينفّس بذلك عن نفسه.

ومنها باطنة يحتاج الانتقال إليها أو الاعتبار بها إلى شيء من التأمل والحكمة، وتبتني نوعاً على الترفع عن الاندفاع السريع والاستجابة العاجلة، والالتفات إلى عواقب الأمور وآثار الأعمال، إذ ربّ لذة أعقبها ندم، وربّ كلمة غاضبة سلبت نعمة وأوجبت نقمة، وربّ شهوة منعت من شهوات وأتبعت ويلات، وذلك كله معروف في الحياة.

وتختلف السنن الباطنة في مستوى الخفاء حسب التأمل والحكمة التي يقتضيها إدراكها.

ومن ثم كان على المرء أن لا يفنى في اقتضاءاته النفسية العاجلة بل يسعى إلى تهذيبها، حتى يسعد في طلباته، ولا يشقى برغباته في هذه الحياة الدنيا نفسها.

هذا، وتكون السنن الباطنة الاجتماعية أخفى من السنن الفردية، لأن

معرفتها تتوقف على تجميع الآثار الفردية والحدس بنتيجة تراكمها ومضاعفاتها في الأمد القريب أو البعيد.

هذا، ومن السنن الباطنية ما نبهت عليه النصوص الشرعية من آثار أعمال الخير والشر ما لا يتأتّى رصدها بملاحظة الحوادث واستقرائها، وقد يمثّل له بالأثر الإيجابي لصلة الرحم في طول العمر وأثر اليمين الكاذبة في الدمار والخراب على ما سيأتي ذكره قريباً.

وكذلك سنن الآخرة منها ظاهرة، وهي الأعمال الفاضلة وضدها التي يقوم بها الإنسان، مما حكم العقل بحسنها أو قبحها، أو ورد في الشرع ترجيحها أو ترجيح تركها.

ومنها باطنة تبتني على النظر إلى استتباعات العمل ولوازمه، فربَّ امرئ عمل عملاً صالحاً فاغترَّ به فوقع في عمل سيء أكثر قبحاً، فإن الأعمال الصالحة قد توجب ضعف محاسبة صاحبها لنفسه، أمناً منها، غافلاً عن كوامن النفوس ومخادعها، فيرتكب أعمالاً خطيرة غير متبصر بشأنها.

ألا ترى أن الخوارج في صدر الإسلام وقعوا مع المبالغة في العبادة والزهد في تكفير أهل الكبائر واستباحة الدماء وإثارة الفتن؟ وكأن إلى ذلك نظر أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال[١]عن عبادة أحدهم: ((نوم على يقين خير من صلاة في شك))، لأن هذه العبادة تؤثر في مزيد اعتقاد المرء بنفسه، وتجرئه على اتخاذ مواقف خطيرة من دون كسب البصيرة اللازمة تجاهها.

وربَّ امرئ أتى بأعمال صالحة غير ملزمة ففرط في أثرها أعمال أخرى واجبة، وفي مثله ورد عنه (صلوات الله عليه)[٢]أنه قال: ((لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض)). أو شدّد على نفسه بأعمال صالحة حتى تعب فانقطع عنها تماماً، وفي مثل ذلك ورد الأمر بالرفق بالنفس في العبادة كما ورد في الحديث

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:٢٢.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:١١.

المعتبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام[1] قال: ((لا تكرّهوا إلى أنفسكم العبادة)).

وربَّ امرئ غافل عمل عمل سوءٍ فثارت فطرته وانتفض وجدانه فلزم السداد والتحف بالصلاح، فكانت عاقبته خيراً.

ولذلك كله لزم على المرء تأمل كل عمل مع آثاره وعواقبه حسب ما يرشد إليه العقل، وينبّه عليه العلم، وتشهد له الخبرة، حذراً من أن تكون مغبته غير سعيدة، ونتائجه غير حميدة.

(تذكرة ٣): السعادة والشقاء إنما تكون بلحاظ الأثر.

إن السعادة والشقاء بالعمل أو النعمة إنما يقدّران بلحاظ التوابع والآثار، فلو حكم بها بالنظر إلى ذات العمل أو ذات النعمة دون ملاحظة التبعات لكان في ذلك مسامحة في الحكم، لما فيه من التجزئة للأشياء المترابطة.

وبذلك يظهر أنه ليس من السهل أن يجزم المرء بسعادته لنعمة يمتاز بها عن الآخرين، لعدم علمه بما يتبعها من آثار، فربما حاز المرء جمالاً أدى به إلى منغص بحيث كان يسلم منه من دونه، وربما حاز نعمة تعرض في أثرها لحادث لم يكن ليصيبه لولاها، ومثل ذلك كثير في الحياة.

وعليه فلا ينبغي للمرء أن يعتقد جازماً بأنه لو كان يتمتع بكذا لكان أسعد، بل عليه أن يلتفت إلى عوارض النعم ومنغصاتها.

هذه هي المقدمة التي تتعلق ببيان حقيقة السعادة والشقاء.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٨٦.

عرض سنن السعادة والشقاء

ثم إن العوامل والسنن المؤثرة في السعادة والشقاء في الدارين على أصناف أصولها خمسة ..

الأول: الاستغناء النفسي، وما يضاده من الحرص والشعور بالعوز والحاجة.

الثاني: النعم والإمكانات المادية، ونعني بها المال والزوجة والأولاد والجاه والصحة والاستعداد الذهني وغيرها، وأضدادها.

الثالث: الأخلاق الفاضلة والأعمال النبيلة وأضدادها.

الرابع: السنن النفسية والاجتماعية المؤدية إلى نتيجة تناسبها، حسب موضع الإفادة منها.

الخامس: تولي الله سبحانه وتعالى للمرء وعنايته به وتكفله بأموره، أو إيكال أمره إلى نفسه.

(السنّة ١): الغنى والفقر النفسيان.

اعلم أن مما يوجب سعادة الإنسان وهدوء باله هو استغناؤه النفسي عن الشيء، كما إن مما يوجب شقاءه هو شعوره بالعوز والحاجة إليه.

وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان مجبولاً على حاجات فطرية شديدة من قبيل الطعام والشراب، وأخرى دون ذلك كالزواج وحب الاطلاع والأمومة وغيرها، وهذا مما يشترك عامة الناس به، إلا أن هذا الشعور في أصله مما يكفي في رفعه شيء قليل، ولكن يتنامى الشعور بما يزيد على هذا المقدار بمحفزات إضافية مثل النهم والعادة والتربية والبيئة وعوامل أخرى.

وقد يتأكد هذا الشعور في النفس حتى يرى فقدان ما يزيد على أصل حاجته بمثابة تلك الحاجة فيوجب له ذلك نكداً وشقاءً، فيكون من سعادته حينئذٍ

التمتع بتلك الزيادة، فإن لم يجدها عانى من ذلك، وهذا هو المراد بالفقر النفسي. وأما الخالي عن هذا الشعور فهو يسعد بما أوتيه، ولا يفكر في ما يفقده، فيجد في الحياة متعة ونعيماً، ويرى نفسه فيها سعيداً محظوظاً، وهذا هو المقصود بالغنى النفسي.

وعليه فمن وجوه سعادة المرء أن يستغني نفسياً ما أمكن عما يزيد على حاجته، لا سيما في ما لا يتمكن من توفيره، أو يوجب له مضاعفات أخرى صعبة ومؤلمة، كما إن من شقائه أن يشعر بالعوز الشديد لذلك مع عجزه عن تحصيله أو سوء مضاعفاته.

وقد جاء في الحديث[١] عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: ((مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً)).

وفي الصحيح[٢] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((ما فتح الله على عبد باباً من أمر الدنيا إلا فتح الله عليه من الحرص مثله)).

وعنه عليه السلام أيضاً في الصحيح[٣]: ((من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال)).

وعنه عليه السلام[٤]: ((من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرته عند فراقها)).

ومن الناس من يغفل أو يتغافل عن أثر هذا العامل النفسي في السعادة والشقاء، حتى يعلل شكواه وهمه وقلقه كله بافتقاده لبعض الإمكانات المادية ـ على الرّغم من كفاية ما يتمتع بها ـ ويغفل عن أن منبع الشقاء الذي يصفه في الأصل هو شعوره بالحاجة من غير ضرورة، ولكنه لا يريد أن يلوم نفسه ويشكو طباعه، فيندب حظّه في فقدانها بينما يتمتع بعض آخر بها.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٣٤، ٣١٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣١٩.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٣٢٠.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٣٢٠.

فعلى المرء أن يلتفت إلى نفسه ويلقي باللوم عليها، ويسيطر على مشاعرها، ولا يأذن في استرسالها، فيسعى إلى تأصيل عامل القناعة في نفسه من خلال الأساليب التربوية، حتى يكون مصوناً من هذا الشقاء، متمتعاً بالسعادة بما عنده، فالقناعة غنيمة باردة، وكنز لا ينفد، وسعادة لا تفنى، بل هو نصف السعادة في هذه الحياة.

وقد كثر في هذا الزمان القلق والتوتر لدى الناس بالرّغم من كثرة الإمكانات ووفرتها، حتى أصبح بعضهم يتوجه إلى طرق غير سليمة ولا علمية في رفع القلق والشعور بالسعادة، ولكن العلاج الحقيقي في تخلص الإنسان عن الشعور بالنقصان والإحباط كلما وجد امتيازاً مادياً لغيره، بل يكون قانعاً بميسوره واثقاً بنفسه، لا يرى في زيادة المادة امتيازاً بل تخفيفاً في العبء والعناء، وليكن المرء فيما إذا وجد قناعة في نفسه شاكراً لله سبحانه على هذه القناعة كشكره للنعم التي أوتيها وتمتع بها.

عوامل مساعدة على حصول القناعة النفسية

ومن العوامل المساعدة على حصول القناعة في النفس ..

أولاً: الشعور بأن الاستغناء كمال والافتقار نقص، فمن تأمل جيداً في الأطماع الدنيوية والازدياد في أدواتها ووسائلها ـ خاصة ما يتعلق بالمظاهر مما يعد من شؤون الأبهة، ويبعث على عامل التنافس والرغبة في أن لا يكون المرء أقل من الآخرين فيها ويقتفي أثرهم ـ أحس بوضوح أن في الاستغناء رفعة وكمالاً، وأن في الافتقار ضعةً ونقصاً. فعلى المرء أن يستغني عن كلّ ما لا حاجة مادية إليه ولا يوقع فقدانه إياه في ضرر أو مشقة وحرج، وقد ورد في الدعاء[1]: ((اللهم اجعل غناي في نفسي)).

وفي الحديث[2] عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((من قنع بما رزقه الله فهو من

---

(١) لاحظ الكافي ج:٢ ص:٥٧٧-٥٧٨.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٣٩.

أغنى الناس)).

وثانياً: أن يفصل الإنسان في نفسه بين كيانه وبين رغباته وشهواته، ولا يفنى في تلك الرغبات، وذلك لكي يتمكن من محاسبتها وتقييمها بعقلانية، ولا يضطر إلى الاستجابة لها في كل ما اقتضته، فيصارح نفسه بأن كثيراً من رغباته لا تنشأ عن حاجة حقيقية ـ لا فردية ولا اجتماعية ـ وإنما تنشأ عن مشاعر زائفة بالنقصان وعدم الثقة بالنفس والاعتماد على الذات، وكلما اقترحت عليه رغباته أمراً تأمل في الأمر ملياً وبحث عن دليل تلك الرغبة ومنشئها، وإذا شك في ذلك فليجعل التأصيل العام هو الاستغناء ما لم يخش ضرراً أو يلزم حرج، فإن النفس تدعي الحاجة وهي متهمة في كثرة دعاواها وسرعة انسياقها إلى الأمور المادية.

وثالثاً: أن يستعين الإنسان بالنظر دوماً إلى من هو دونه، كيف يعيش في كفاف من غير همّ ولا نكد، ولا يستغرق في من يتميّز عنه في بعض إمكاناته فيوجب ذلك تنافسه في عرض هذه الحياة وزبرجها، وقد علم أن من ابتلى بحب متع الدنيا لم يقنع بشيء منها، فهي كمثل الماء المالح لا يشربه الظمآن إلا ازداد عطشاً، فإذا كان الإنسان طموحاً في الدنيا لم يزل يشعر بالحاجة إلى مزيد منها، فلا يتصف بالاستقرار مهما أوتي منها.

وقد قال الله سبحانه لنبيه ﷺ[1]: ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾. وقال سبحانه[2]: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾.

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام[3]: ((إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك، فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ**﴾ وقال: ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ**

---

(١) طه:١٣١.

(٢) النساء:٣٢.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٣٧-١٣٨.

الدُّنْيَا﴾، فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله ﷺ، فإنما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده)).

ورابعاً: أن يلتفت المرء إلى عوارض الإمكانات والنعم وضرائبها، فإن على كل نعمة ضريبةً ولكل فقدان تعويضاً، على ما سيأتي بيانه.

وخامساً: أن يلتفت إلى أن كل عناية بشيء من الأمور المادية دون حاجة حقيقية يكون على حساب الاهتمامات الفاضلة والأفعال النبيلة بدرجة أو أخرى، بلا فرق بين أن تكون تلك العناية في نفس أو مال ..

أما في النفس فلأن كل اهتمام يأخذ من الإنسان مأخذاً ويؤثر في نقصان الاهتمامات الأخرى أو فقدان التركيز عليها لا محالة، فإن الطاقة النفسية محدودة، ولم يجعل الله سبحانه وتعالى لامرئ من قلبين في جوفه، فمن زاد اهتماماً أو تركيزاً على شيء فقد نقص مثله من آخر. وحريّ بالمرء ـ على وَفقِ موازين العقل والحكمة ـ أن يجعل اهتمامه في الحياة ما أمكن بالعلم النافع والعمل الفاضل.

وأما في المال وما يلحق به فلأن ما يصرف من ذلك في الملذات ونحوها يمكن صرفه في مصرف لائق كإعانة الفقراء والمحتاجين، فربما انحلت به عقدة وانفرجت به كربة، فضلاً عمّا في الاستغناء عن مثل ذلك من المواساة مع الأدنى حالاً كالفقراء والمعسرين.

وسيأتي أن المواساة من أنبل الخصال الأخلاقية وأفضلها، وأين قيمة ذلك من الاستجابة لهوى أعمى ورغبة زائفة.

والحاصل: أن الأمور في هذه الحياة متزاحمة تكون الزيادة في بعضها على حساب بعض آخر، فلينظر المرء فيمَ يزيد وممَّ ينقص؟

وعلى ضوء ذلك فإن القاعدة العامة في الحياة هي أنه (لا خير في سَعَة تزيد على مقدار الكفاف، إلا أن تكون وصلة إلى معروف، أو معينةً على إحسان).

فضيلة القناعة بالمنظور الأخروي والإلهي

ولو نظرت إلى أفق أوسع من هذه الحياة على وَفقِ الحقائق والقيم التي بلّغها الله سبحانه وتعالى في مخاطبته لعباده، فإنه لا شك في هذه القاعدة، وذلك من أبعاد ما ورد في الآيات الشريفة من حديث حول الدنيا من أنها لعب ولهو وفتنة وتكاثر في الأموال والأولاد، وقال أمير المؤمنين عليه السلام[١] وقد دخل على أحد أصحابه ـ وهو العلاء بن زياد الحارثي ـ يعوده فرأى سعة داره: ((ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا، أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج. وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة)).

بل تزداد هذه القاعدة عمقاً وصدقاً بالنظر إلى هذا الأفق الواسع، وذلك..

أولاً: أن التزاحم في استثمار الحياة الدنيا لإمكانات المرء النفسية والمادية يزداد أضعافاً مضاعفة بالإيمان بالآخرة، لأنّ لكل هاجس وتصرّف أثراً خالداً في حياة المرء، ولا محل لاستصغار شيء من الخير والشر والعبث، فما من طاقة تصرف في غير خير أو معونة عليه إلا وتذهب هدراً، وتترك فراغاً وأثراً، وقد قال سبحانه وتعالى[٢]: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾، وعلى قياس ذلك يمكن القول ـ والله أعلم ـ إن من ترك مثقال ذرة من خير رأى أثر تركه وهدره لطاقته.

وفي دعاء للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام[٣]: ((اللّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رَوعِي مِنَ التَّمَنّي والتَّظَنّي والْحَسَدِ ذِكْراً لِعَظَمَتِكَ، وتَفَكُّراً فِي قُدْرَتِكَ، وتَدْبِيراً عَلَى عَدُوّكَ))، وقال عليه السلام[٤] في دعاء آخر: ((اللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٨٧.

(٢) الزلزلة:٧ـ٨.

(٣) الصحيفة السجادية ص:٩٦ (من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيِّ الأفعال).

(٤) الصحيفة السجادية ص:٦١ (من دعائه عليه السلام في الاشتياق إلى طلب المغفرة من الله جَلَّ جلاله).

مُحمَّدٍ وآله، واجْعَلْ همسات قُلوبنا وحركات أعْضائنا ولَمَحات أعْيُننا ولَهَجات أَلْسنتنا في مُوجِبات ثوابك، حتَّى لا تفُوتَنا حسَنةٌ نستَحِقُّ بها جزاءَك، ولا تَبْقى لَنَا سيِّئةٌ نستَوْجِبُ بِهَا عِقابَك)).

وثانياً: أن في القناعة فضائل معنوية كثيرة، فإنها تخفف الحساب، وتقي الإنسان الافتتان بالمادة وما تستتبعه من تعريضه للمعاصي، وتعطي له فسحة للانشغال بهمّ الآخرة، وتوجب الرضا بمقادير الله سبحانه والتسليم لها، وتعين على إدراك القيم والاعتقاد بها والعمل بموجبها فـ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[١]. وسنذكر إيضاحاً لهذه المعاني لاحقاً.

بل الناظر إلى هذه الدنيا من الأفق الأعلى المشرف على الآخرة يجد سهولة في القناعة فيها، لأن له بديلاً أعظم يشغل باله ويستولي على قلبه، فلا أهمية لمزيد من المتعة في سفرة عابرة كهذه الحياة، بل ذلك مما يهوّن عليه مصائب الحياة وشدائدها كما قال عزّ من قائل[٢]: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**﴾.

وفي كلام لأمير المؤمنين عليه السلام أنه قال[٣]: ((فإن تقوى الله دواءُ داءِ قلوبِكم، وبصرُ عمى أفئدتِكم، وشفاءُ مرضِ أجسادِكم..)).

وقد تكرر في الحديث مدح الاقتصار على الكفاف، ففي حديث معتبر عن أبي جعفر عليه السلام[٤] قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: إن من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيف الحال، ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضاً في الناس، جعل رزقه كفافاً، فصبر عليه، عجلت منيته، فقل تراثه وقلت بواكيه)).

وفي حديث آخر روي عن أبي عبد الله عليه السلام[٥]: ((طوبى لمن أسلم وكان

---

(١) العلق:٦ـ٧.

(٢) البقرة:١٥٦.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٧٣.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٤٠.

(٥) الكافي ج:٢ ص:١٤٠.

عيشه كفافاً)).

وفي حديث آخر عنه عن علي بن الحسين عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله[1]: ((أن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى: اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف)).

ومن أجل ذلك زهد الصالحون في هذه الحياة ما استطاعوا، وعملوا على الاستغناء عما تيسّر لهم من شؤون الدنيا، كل حسب قدراته ومقتضيات ظروفه وأحواله، من غير إهمال بالحقوق ولا إخلال بالحكمة.

وعلى الإجمال فإن للقناعة آثاراً تربوية إيجابية كبيرة للنفس الإنسانية تورث مشاعر طيبة عديدة وتغني المرء عن كثير من العناء، فهي حقاً من سنن السعادة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، والله الموفّق.

(السنّة ٢): الإمكانات المادية.

وهي أبرز مظاهر السعادة ووجوهها في بادئ النظر حتى إن المرء قد يظن انحصار الأمر بها، وقد سبق بيان الخطأ في ذلك، وقد يقدّر الإنسان أن هذه النعم هي موجبة للسعادة على وجه الإطلاق، لما فيها من تحقيق لمشتهياته وإيصال إلى ملذاته، فهو سبب للسعادة، كما إن فقدانها على العموم سبب للنكد والشقاء في الحياة.

قاعدة (على كل نعمة ضريبة ولكل فقدان تخفيف)

وهذا التقدير خاطئ بالتأمل الجامع في الأمور، إذ إن من سنن الحياة ـ التي تمثّل نحواً من العدل في النظام الكوني ـ هو (أن على كل نعمة ضريبةً، ولكل فقدان تخفيفاً)، وهذه القاعدة تنطبق في شأن كلٍّ من الدنيا والآخرة، إلا أن انطباقها في الحياة الدنيا نوعي، بمعنى أن النعمة مظنة الضريبة والفقدان مظنة التخفيف. ولكنها تنطبق في شأن الحياة الأخروية انطباقاً مطّرداً دون استثناء وشذوذ، ولهذه الحالة نظائر في تفاوت سنن الآخرة والدنيا ..

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٤١.

صدق القاعدة في شأن النعم والعناء بالمنظور الدنيوي

أ ـ أما صدق هذه القاعدة في الدنيا فذلك ما يلحظ بتتبع الحياة الفردية في مجموع مسيرتها والحياة الاجتماعية، مع الالتفات إلى مراحلها وتقلّب أحوالها، من أن النعم الفردية والاجتماعية تستتبع مضاعفات سلبية في كثير من الحالات، فتأمل حياة الأفراد المنعّمين والمترفين وحياة المجتمعات المنعّمة والمترفة تجد فيها أنواعاً جلية وأخرى خفية من النكد والعناء والأحداث والمحاذير مما لا تشهده في المجتمعات الفقيرة والمتوسطة.

فمن محاذير النعمة أنها عرضة للافتقاد، وافتقاد الشيء بعد التنعم به أشق على المرء من فقدانه ابتداءً.

ومنها: أن من النعم المادية ما يفارق بعض النعم النفسية والروحية، كما إن من الفقدان المادي ما يصاحب بعض الإمكانات النفسية والروحية، فترى أن بعض الظروف الشديدة تنمي قابليات الطفل، وبعض الظروف المترفة تجعل الطفل مدللاً كسولاً، وذلك معلوم للآباء.

ومنها: أنه ربَّ فقدان يكون مبدأ لوجدان، وربَّ نعمة تنبع من رحم المعاناة والشدائد، وربَّ بقية للسيف تكون أبقى عدداً[1]، كما إن رب نعمة تكون مبدأ لفقدان، وربَّ نقمة تنبت بين ظهراني النعم.

ومنها: أن النعمة قد تؤثر تأثيراً سلبياً في الإنسان حيث يصاب بالغرور والتكبر والبطر، مما يستتبع استهانة الإنسان بالأخلاق الفاضلة، وانتهاكه للقيم النبيلة بالظلم والتعدي والطغيان وغيرها، وذلك مما يوجب شقاء ونكداً، لأن الأخلاق الفاضلة هي من جملة سنن السعادة في الحياة على ما يأتي.

ومنها: أن من النعم ما لا يحصل إلا بعد عناء ونكد، فينبغي ملاحظتها مع مقدماتها ريثما يحدد مستوى سعادة صاحبها.

ومنها: أن من النعم ما يجعل صاحبها خادماً لها للمحافظة عليها والعناية

---

(١) كما قال أمير المؤمنين عليه السلام (نهج البلاغة ج:٤ ص:١٩) في إحدى كلماته القصار: ((بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولداً)).

بها، مما يسلب بعض السعادة بها.

فهذه المحاذير تتعلق بسنن الحياة الدنيا الباطنة، من اقتران سرّائها بضرّائها، وخيرها بشرها، وهي أمور يسهل اقتناصها، إلا أن الناس اعتادوا على أن ينظروا إلى الإمكانات المادية نظرة تجزيئية عن ملابساتها ولوازمها، وذلك انطلاقاً من رغباتهم الجامحة تجاهها، من دون تأمل مناسب فيها.

وقد أشير في النصوص الشريفة إلى هذه المعاني، لا سيما في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الدنيا وطباعها، فمن كلام له (صلوات الله عليه)[١]: ((لم يكن امرؤ منها في حَبْرة إلا أعقبته بعدها عَبْرة، ولم يلق في سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تطلّه فيها ديمة رخاء إلا هتنت[٢]عليه مزنة بلاء، وحريٌ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى أمَرَّ منها جانب فأوبى[٣]، لا ينال امرؤ من غضارتها رَغَباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف، غرّارة غرور ما فيها فانية، فانٍ من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه. كم من واثق بها فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أُبّهة قد جعلته حقيراً وذي نخوة قد ردته ذليلاً. سلطانها دول، وعيشها رَنِق[٤]، وعذبها أجاج، وحلوها صَبِر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام. حيُها بِعرَض موت، وصحيحها بِعرَض سقم، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب)).

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٢١٧-٢١٨.

(٢) هتنت عليه: انصبت.

(٣) أوبى: صار كثير الوباء.

(٤) رنِق: كدر.

صدق القاعدة المتقدمة في شأن النعم والعناء بالمنظور الأخروي

ب ـ وأما صدق القاعدة المتقدمة في شأن الحياة الآخرة فهو ظاهر بملاحظة شواهد النصوص الشرعية، فلكل نعمة لا محالة ضريبة بحسب السنن المعنوية للحياة التي يظهر أثرها في الآخرة، ولكل عناء تخفيف بموجبها ..

فمن ضرائب النعمة أن من أوتي نعمة حق عليه تقديرها ولزمه وظيفة أخلاقية بحسبها، ومن حرمها لم يلحقه حسابها ولا نالته معاقبة كفرانها، وقد قال سبحانه وتعالى[١]: ﴿**ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾، وعن النبي ﷺ[٢]أنه قال: ((اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين))، وعنه ﷺ[٣]أنه قال: ((نجا المخفون))، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال[٤]: ((ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء. في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب))، وفي كلام له آخر قال عليه السلام[٥]: ((أبتلي الناس بها فتنة، فما أخذوه منها لها أُخرِجوا منه وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قَدِموا عليه وأقاموا فيه)).

ومنها: أن النعمة توجب افتتان صاحبها، مما يعرّضه للبطر والطغيان ويؤدي به إلى الضياع والخسران، وذلك مما يسلم منه من حرم زيادة النعمة وعاش الكفاف.

ومنها: أن على صاحب النعمة زكاتها فمن أوتي جاهاً يسمع به كلمته كان عليه من السعي لتحقق المعروف وانتفاء المنكر ما ليس غيره مثله، ومن أوتي مالاً حقّ عليه رعاية أهل الفقر والفاقة بمقدار استطاعته، فإن لم يفعل عُدّ مفرّطاً ولحقه تبعة تفريطه ولا مبالاته، وهكذا في واجدي سائر النعم كالذكاء والذرية والصحة وغيرها.

ومنها: أن صاحب النعمة محجوج في مخالفاته بما أنعم عليه، يثبت عليه

---

(١) الكوثر:٨.

(٢) جامع أحاديث الشيعة ج:٨ ص:٤٧٣. روضة الواعظين ص:٤٥٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه ج:٤ ص:٣٦٤.

(٤) نهج البلاغة ج:١ ص:١٣٠ـ١٣١.

(٥) نهج البلاغة ج:١ ص:١٠٩.

فيها من الكفران بما يناسب ما أوتي من النعمة التي حُرِمَهَا آخرون. وفاقد النعمة وإن حوسب على مخالفته إلا أن حسابه أخف وعقابه أقل، تُقدَّر له في الحكم عليه ظروف الحرمان وعوارض النقصان.

وفي حديث عن أبي عبد الله عليه السلام[١]: ((من رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله منه باليسير من العمل)).

وفي حديث آخر معتبر[٢]عن أبي عبد الله عليه السلام أنه شكا إليه رجل أنه يطلب فيصيب ولا يقنع، وتنازعه نفسه إلى ما هو أكثر منه. وقال: علمني شيئاً أنتفع به. فقال أبو عبد الله عليه السلام: ((إن كان ما يكفيك يغنيك فأدنى ما فيها يغنيك، وإن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك)).

ومنها: أن فاقد النعمة تقدر منه الطاعة فوق تقديرها من واجدها، لثباته عليها بالرّغم من الحاجة، والتزامه بها على الرّغم من قلة المعونة، ولذلك ربما لا يدري المرء أيكون أكثر فرحاً بالنعمة واستمتاعاً بها، أو رضاً بفقدانها حذراً من عدم تقديره لها حق تقديرها.

ومنها: أن كل عناء يستوجب تخفيفاً في حق المرء، فقد وردت في المرض نصوص عديدة تدل على أنه يوجب محو الذنوب فعن أمير المؤمنين عليه السلام[٣]أنه قال لبعض أصحابه في علة اعتلّها: ((جعل الله ما كان من شكواك حطّاً لسيئاتك، فإن المرض لا أجر فيه ولكنه يحط السيئات، ويحتها حتّ الأوراق. وإنما الأجر في القول باللسان، والعمل بالأيدي والأقدام. وإن الله سبحانه يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة)).

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام[٤]: ((اللهم لك الحمد على ما لم أزل أتصرف فيه من سلامة بدني، ولك الحمد على ما أحدثت بي من علةٍ في جسدي

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٣٨.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٣٩.

(٣) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٢.

(٤) الصحيفة السجادية ص:٧٦-٧٧ (من دعائه عليه السلام إذا مرِض أو نزَل به كرب أو بليّة).

فما أدري يا إلهي أيّ الحالين أحق بالشكر لك، وأيّ الوقتين أولى بالحمد لك، أوقت الصحة التي هنأتني فيها طيبات رزقك، ونشطتني بها لابتغاء مرضاتك وفضلك، وقويتني معها على ما وفّقتني له من طاعتك، أم وقت العلة التي محصتني بها والنعم التي أتحفتني بها، تخفيفاً لما ثقل به عليَّ ظهري من الخطيئات، وتطهيراً لما انغمست فيه من السيئات، وتنبيهاً لتناول التوبة، وتذكيراً لمحو الحوبة بقديم النعمة، وفي خلال ذلك ما كتب لي الكاتبان من زكي الأعمال ما لا قلبٌ فكّر فيه ولا لسانٌ نطق به ولا جارحةٌ تكلّفته، بل إفضالاً منك عليَّ، وإحساناً من صنيعك إليَّ، اللهم فصلِّ على محمدٍ وآله، وحبّب إليَّ ما رضيت لي، ويسّر لي ما أحللت بي، وطهرني من دنس ما أسلفت، وامحُ عني شر ما قدّمتُ، وأوجدني حلاوة العافية وأذقني برد السلامة، واجعل مخرجي عن علتي إلى عفوك، ومتحولي عن صرعتي إلى تجاوزك، وخلاصي من كربي إلى روحك، وسلامتي من هذه الشدّة إلى فرجك إنك المتفضل بالإحسان، المتطول بالامتنان، الوهاب الكريم، ذو الجلال والإكرام)).

وفي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[1]: ((إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلا بإحدى خصلتين إما بذهاب ماله، أو ببلية في جسده)).

وفي الصحيح عنه عليه السلام[2] أيضاً: ((إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة فيضربوا باب الجنة، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الفقراء. فيقال لهم: أقبل الحساب؟ فيقولون: ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه. فيقول الله عز وجل: صدقوا، ادخلوا الجنة)).

وفي صحيح آخر عنه عليه السلام[3]: ((قال أمير المؤمنين عليه السلام: الفقر أزين للمؤمن من العذار على خدّ الفرس)).

هذا، ولو كان الفقدان لتحقيق عمل فاضل أو من آثاره فللمرء فيها

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٥٧.
(٢) الكافي ج:٢ ص:٢٦٤-٢٦٥.
(٣) الكافي ج:٢ ص:٢٦٥.

تعويض لا يوصف كما قال سبحانه[1] في المجاهدين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾.

أقسام ما يتفق للمرء من العوارض المؤلمة وآثارها

وفي ضوء ذلك يتضح أن ما يتفق للمرء في هذه الحياة من العوارض المؤلمة للفرد والمجتمع على قسمين ..

أحدهما: ما يكون قدراً له في هذه الحياة.

والآخر: ما يترتب عليه متفرعاً على إرادته واختياره الواعي.

فما كان قدراً عليه احتسب له ذلك، وعوّض عنه، وكذا ما كان مترتباً على اختياره الواعي إن كان بحسن نية، أو ما كان من دون نية سيئة ولا حسنة، ولكل درجته وتقديره. وأما ما كان مترتباً على نية سيئة فلا تعويض عنه.

ومن ثم ذكر في النصوص الشرعية أن الإنسان في الحقيقة لا يعاني إلا من تصرفاته السلبية الناقضة للقيم الفاضلة كما قال سبحانه[2]: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، وفي الحديث العلوي[3]: ((أوصيكم بخمسٍ لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً. لا يرجُوَنَّ أحد منكم إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه، ولا يستحين أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحينَّ أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه. وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه)).

وإلى هذا المعنى يرجع ما في الحديث[4] عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

---

(١) التوبة:١٢٠.

(٢) الشورى:٣٠.

(٣) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٨.

(٤) مشكاة الأنوار للطبرسي ص:٥٢١. وفي إرشاد القلوب (ج:١ ص:١٥٣) عن الصادق عليه السلام: ((عجبت للمؤمن لا يقضي الله بقضاء إلا كان خيراً له، وإن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن

((عجبت للمؤمن إن الله لا يقضي له بقضاء إلا كان خيراً له، إن أغناه كان خيراً له وإن ابتلاه كان خيراً له، وإن ملّكه ما بين المشرق والمغرب كان خيراً له، وإن قرض بالمقارض كان خيراً له، وفي قضاء الله للمؤمن كل خير)).

والوجه فيه: أن المراد بالمؤمن من يراعي القيم الفاضلة في هذه الحياة فلا يقع له شيء في الحياة وإن كان مؤلماً له إلا ويكون في جهة مصلحته. وعلى ذلك أيضا يبتني ما ورد[1] من: ((أن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل)). وغيره مما يشير إلى أن وقوع البلية رفعة لدرجة المرء لا سيما في ما كان على أساس رعاية الحقائق الماثلة والأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة. هذا من جهة.

الحكمة في تقدير العوارض المؤلمة

واعلم أن لله سبحانه حكمة بالغة في تقدير الحوادث المؤلمة في الحياة بقسميها فردية كانت أو اجتماعية ..

أما ما كان قدراً للإنسان في الحياة فهو اختبار وامتحان له حتى يميز الله سبحانه الناس بحسب خياراتهم، فيجازي كلاً بحسب سلوكه وخياره، قال تعالى[2]: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾، وقال[3]: ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾.

وأما ما كان مما يترتب على اختيارات الإنسان فهو على العموم أشبه بالآلام المنبهة على الأمراض، فإن اهتدى المجتمع والفرد إليها قبل وقوعها بالالتفات إلى سنن الحياة وحذر منها ووُقيها وسلم منها، وإن شعر بها عند إرهاصاتها فأصلح من شؤونه ما كان فاسداً لم يبتلِ بعنفوانها وشدتها ودوامها،

ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له)).

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٥٢.

(٢) العنكبوت:٢.

(٣) آل عمران:١٧٩.

وإلا وقع فيها ولم يبق له محيص منها إلا الاعتبار بها والاتعاظ منها لما يستقبله الإنسان من أمره، كما قال سبحانه[1]: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

فهذه الحياة مشهد مركب ومعقد تمتزج فيها الظواهر المختلفة والعوامل المتعددة ولكن لا يصعب على الإنسان التبصر لواقعها إذا كان حريصاً عليه، كما يتبصّر من سائر أموره ما هو على مثل هذه الصفة من التعقيد والتركيب، ولكنه يكتسب معرفة وبراعة فيها بالاهتمام والإصرار.

فلكل امرئ غداً حساب يلحظ فيه مجموع أعماله، وتقاس فيه بما أوتي من وجوه الإنعام عليه فيجازى بحسبها، ولن يترك له صغيرة إلا أتي بها، ولا نعمة إلا نظر إليها. فسبحان الله ما أدق موازين هذه الحياة وأعدلها وأروعها، فليتهيأ امرؤ أذعن بذلك ليوم توضع فيه موازين القسط فتقاس بها الأفعال وتُجازى على أساسها الأعمال.

هذا، وليس المقصود بما تقدم أن يكف المرء عن الجدّ في الحياة والتمتع بنعمها، ولكن المراد أن يلتفت المرء إلى عوارض النعم بما يشجع واجدها على القناعة ويستثمر ما يرزق منها بالأعمال الفاضلة، ويخفف على فاقدها افتقاده لها ويدرك أنه سوف يجد من آثار افتقادها ما يعوضه عنها.

(السنّة ٣): أثر الأعمال الفاضلة وأضدادها في الدنيا والآخرة.

وهذا المعنى ينطبق في شأن كل من الدنيا والآخرة، إلا أن كون الأعمال الفاضلة في هذه الدنيا سبباً للسعادة وأضدادها سبباً للشقاء هي حالة نوعية، ولكنها في شأن الآخرة هي حالة مطردة لا استثناء فيها ..

أثر الأعمال الفاضلة وأضدادها في الدنيا

(١) أما صدق هذه القاعدة في شأن الدنيا فهو تام على وَفقِ المنظورين

---

(١) الأنعام:٤٢.

الاجتماعي والفردي ..

أ ـ أما صدقها على وَفقِ المنظور الاجتماعي فهو أمر واضح، فإن المجتمع الذي يُلتَزم فيه برعاية الأخلاق الفاضلة لهو أقرب إلى السعادة من المجتمع الآخر الذي تشيع فيه أضدادها، ولذلك فطر الإنسان على المعاني الفاضلة والقيم النبيلة من خلال قوة الضمير والوجدان.

وهذه الفطرة الإنسانية هي المنبع للقوانين العادلة في الحياة التي يسعى العقلاء إلى تطبيقها في ما بينهم، ولم يكن سعيهم لذلك إلا بالنظر إلى أنها ضمان للمصالح الاجتماعية نوعاً، فيتحقق الصلاح العام بمراعاتها، وتنحفظ النظم العامة بالعمل عليها.

ولكن القانون إنما يختار من هذه القواعد ما يبلغ منها درجة الإلزام، ويعتبر ما فوقها من القيم الفاضلة كالتصدقات الشرعية ـ الزائدة على الضرائب المفروضة ـ من قبيل الأخلاق المحضة التي يكون تطبيقها منوطاً بالفرد حسب رغبته واختياره، وأما الإكراه عليها فيوجب مضاعفات سلبية في المجتمع، فيكون تحققها أوفق بالنظم وأسعد للمجتمع، ولكن الإلزام بها مخلاً به وغير قابل للبناء عليه.

ب ـ وأما صدق هذه القاعدة بالمنظور الفردي فالمراد به أن العمل الفاضل خير للمرء نفسه بلحاظ مصلحته الفردية ـ بغض النظر عن مصلحة المجتمع الذي قد ينتفع بهذا العمل ـ كما إن العمل القبيح شرٌ للمرء نفسه كذلك.

وهذا المعنى وإن كان يغفل عنه أو يستبعده كثير من الناس من الناشئين ممن لم يجرب هذه الحياة ويعرف سير الحوادث فيها أو المتوغلين في ملاذ الحياة، أو المحرومين من درجة الكفاف فيها، إلا أن ذلك مما يجده الحكماء الذين خبروا هذه الحياة، ونظروا إلى مجموع الحوادث فيها، وتأملوا طبيعة أسبابها ومسبباتها. كما أفصحوا عن ذلك في حِكَمهم.

فانظر إلى العدل والظلم ترى أن المرء إذا جعل سيرته على العدل كان خيراً لنفسه مما إذا جعل سيرته على الظلم، ومن ثم كان العدل أدوم للحكم،

ومن ضاق به العدل فالظلم له أضيق، فربَّ حاكم ظالم تفنن في وجوه ظلمه خشية ذهاب ملكه حتى خرّب الديار وهتك الأعراض وقتل النفوس واستباح الأموال، وهو بذلك كله يقرب نفسه إلى انتهاء ملكه من حيث لا يحتسب.

وإن شئت انظر إلى الوفاء بالعهد والخيانة فترى أن جعل المرء سيرته الوفاء بالعهود والعقود خير له من أن يجعل سيرته على الغدر والخيانة، فتنتفي ثقة الناس به ويترك التعامل معه، فلا يتوصل إلى نتائج العهود والعقود من وجوه السلامة والانتفاع.

وإن شئت انظر إلى الصدق والكذب، فتجد أن من كانت سيرته الصدق أكثر سعادة وانتفاعاً ممن كانت سيرته على الكذب، فالصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شفا خسران ومهانة. وكم من تاجر موّه على من يشتري منه، ثم حيث انكشف ذلك انزجر الناس عن الشراء منه، وآخر التزم الصدق فعرف به وعمَّ الاعتمادُ عليه فكثرت منافعه، فجمع بذلك صلاحاً ومنفعة.

وهكذا الحال في سائر الفضائل، فإنها أعوَدُ للنفع وأجلَبُ لخيرات الحياة، ومن ضاقت به الفضيلة كان بتركها أضيق.

وفي كلام لأمير المؤمنين عليه السلام[1] أنه قال: ((ألا وأنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى)).

وعن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام[2] أن رجلاً كتب إليه أن عظني بحرفين، فكتب إليه: ((من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو، وأسرع لمجيء ما يحذر)).

وتلك سنن الله سبحانه في الحياة لا فرق فيها بين مسلم وغيره، فكم من قوم مسلمين لم يعملوا بمقتضيات الفضيلة حسب تعاليم الدين فأوجب ذلك لهم فقراً وتخلفاً وجهلاً، وآخرين من غيرهم جروا على مقتضيات الفضيلة وآمنوا بمنفعتها فأوتوا ثمارها ورزقوا بركاتها.

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٧١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٧٣.

ومن ذلك يظهر أنه ليس من الصحيح أن يُظن أن تعاليم الشريعة أو قسماً منها ـ من قبيل الحجاب وغض البصر عن المشاهد المحرمة وغير ذلك ـ يبتني على ملاحظة الآثار المترتبة عليها في الحياة الآخرة ولو غضَّ النظر عنها لم يكن له ملزم بالنسبة إليها، وذلك لأن تعاليم الشريعة هي راشدة وحكيمة حتى لو اقتصر النظر فيها على السعادة الدنيوية للفرد والمجتمع، فالدنيا والآخرة متطابقتان في ما تمليانه من المنهج العملي في الحياة، فما كان حكمة بالنظر إلى الحياة الدنيا كان كذلك بالنسبة إلى الآخرة، ويصحّ العكس أيضاً.

خطأ الظن بارتهان السعادة بانتهاك القيم

وربما ظن بعض الناس أن سبل السعادة في الحياة تبتني على انتهاك القيم والحرمات كالكذب والخيانة والغدر ونحوها فمن تجنبه لزمه تحمل الشقاء فيها.

وهذا الوهم إنما يحدث لأحد امرئين ..

أما الأول فهو امرؤ نظر إلى مورد أعقب عدله ضرراً وكذبه نفعاً، فظن أن تدبير المعيشة يكون بالغلّ والغش وشبه ذلك، ولم يعلم أن النظر في ذلك ينبغي أن يكون إلى ما اتخذه المرء سيرة وجعله طريقة، وإنما يتأمل الحكيم جوامع الأمور وعواقبها دون الموارد المفردة والحالات المتشتتة.

وأما الآخر فهو امرؤ لم يجرب الحياة الفاضلة وسعادتها، بل سارع إلى الخطيئة في أول اختيار له، فظن أن الحياة لن تستقيم إلا بها، فكان ذلك هو الأسلوب الذي اختاره فيها والشرعة التي وردها، مرجحاً لها بين خياراته، ولو ثبت على القيم الفاضلة تجاوز موضع الابتلاء والمحنة وكان أسعد بحياته، ولكنه لم يتأمل سنن الحياة وعواقب الأمور، فهو يقارن بين خيار مارسه وعرف لوازمه، وخيار لم يجربه ولكن يحكم عليه من دون خبرة ويظن أنه ينتج نكداً.

وقد تشير النصوص الشريفة إلى أن انتهاك القيم والتخلف عن الوظائف لا يضمن للمرء سعادة مادية إضافية ذات بالٍ في هذه الحياة، ولئن ازداد في جهة أصابه النقصان في جهة أخرى من الجهات المتعلقة بهذه الحياة نفسها بالنظر إلى

مجموعها من متعها والذكر الجميل بعدها وامتداد ذرية المرء فيها وغير ذلك، ولكل امرئ حدٌ لا يجوزه، ولكنه يخطئ في سبيل الوصول إليه جهلاً بسنن الحياة ومقاديرها، فمن توجّه إلى الدنيا وسعادتها من دون الالتفات إلى ضميره وأداء وظيفته لم يضمن زيادة حظه منها وخسر إرضاء ضميره والعمل بوظيفته، ومن التفت إلى ضميره ووظيفته كان ذلك أرجى لسعادته.

يضاف إلى ذلك أن مصلحة المجتمع في الحقيقة عائدة إلى أفراده أيضاً على العموم، فمن عاش في مجتمع فاضل يراعي الحقوق والقيم فيه انتفع بها في تحصيل حقوقه ومراعاة القيم بالنسبة إليه، وكذلك بالنسبة إلى من يهمه في حياته وبعدها مثل أهله وأولاده. ومن عاش في مجتمع ينتهك الحقوق والقيم فيه تضرر بها هو ومن يتعلق به، ومن ثم يكون للبيئة الاجتماعية دور كبير في إسعاد المرء من حيث ما تضمنه له من الخدمات المادية والتربوية.

ومن ذلك يظهر أن حال الفضائل والرذائل بحسب آثارها وعواقبها على عكس ما يتراءى من ظاهرها، فالفضائل في ما يتراءى للمرء بالنظر إلى ظاهرها تضحية من المرء في الحياة، إذ يفتقد بها نفعاً كان يتيسّر له تحصيله، ولكنها بحسب واقعها هي سنن للازدياد والبركة فيها، والرذائل بحسب ظاهرها تمتع بلذائذ الحياة ولكنها في حقيقتها وعواقبها سنن الافتقاد والنقصان فيها.

فانظر إلى العدل والظلم تجد أن المتراءى أن العادل يعطي للغير حقه فيفقد بذلك شيئاً كان يمكن له أن يحصل عليه ويستمتع به، كما إن الظالم يسلب من الغير ما يستحقه فيحصل على شيء إضافي يمكن أن ينتفع به، ولكن الأمر بحسب الحقيقة على خلاف ذلك، فالعادل ينتفع بعدله أكثر مما يعطي لغيره، والظالم يتضرر بظلمه أكثر من إضراره بمن ظلمه.

وكذلك الحال في الصدق والكذب، فالصادق ربما كان مسترسلاً يبرز الحقيقة أمام الغير ولا يحجبها عنه، والكاذب يحتكر الواقع لنفسه ويخفيه عن غيره، بل يوقعه في الخطأ، فكأنه امتاز بالاطلاع عليه وأوقع بغيره ولكن واقع الأمر ليس كذلك، فالصدق سلامة ونجاة، والكذب غضاضة وابتلاء.

وهكذا الحال في سائر الصفات، فتأمل الصفات المحددة كالتواضع والحياء والشكر والقناعة وغيرها، وتأمل أضدادها المذمومة كالتكبر والخرق والكفران والحرص، فتجد أنه ما من صفة حسنة ـ في موضع حسنها ـ إلا وهي مبدأ استثمار رابح، وما من صفة سيئة إلا وهي تدعو إلى تصرف خاسر.

هذا بالنظر إلى العنصر الجوارحي للأفعال الفاضلة وأضدادها، وأثره في السعادة والشقاء.

أهمية النية في سنن الحياة

وأما بالنظر إلى العنصر الجوانحي لها ـ وهو النية الحسنة في الفعل الفاضل والسيئة في ضده ـ فهو أيضاً من وجوه السعادة والشقاء بنفسه، لأن النية الحسنة تعطي شعوراً بالراحة والطمأنينة والسكينة، والنية السيئة توجب شعوراً بالقلق والنكد والحزازة، على أن النية تمهد لما ينوى بها، فنية الفضيلة تمهد للفضيلة حيث تنير الفطرة وتقوّي رسوخها في النفس فتتربى النفس عليها بتكرارها، كما إن نية الرذيلة تظلم النفس وتزرع فيها شوكة يكون المرء عرضة للإصابة بها، فإن نيّات الإنسان لن تكون فلتة عن صفاته وخلقه، بل كل نية تنشأ عن خلق يناسبها وتقويه بدورها.

وهكذا ظهر أن الأخلاق الفاضلة وأضدادها هي أسباب نوعية لسعادة أو شقاء المجتمع والفرد في الدنيا.

أثر الأعمال الفاضلة وأضدادها في الآخرة

(٢) وأما استيجاب العمل الفاضل للسعادة في الآخرة أو تخفيفه للشقاء فيها وعكس ذلك في العمل القبيح فذلك أمر لا ريب فيه.

فإن الفضائل وأضدادها هي الحاكمة في الحياة الأخرى كما قال سبحانه[١]: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾، وقوله[٢]:﴿لَئِن شَكَرْتُمْ

---

(١) الرحمن:٦٠.

(٢) إبراهيم:٧.

لأزيدنّكم﴾، وقوله[١]: **﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**، وقوله[٢]: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾**، وقوله[٣]: **﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾**، وقوله[٤]: **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾**، وقوله[٥]: **﴿ويربي الصدقات﴾**، وقوله[٦]: **﴿والعمل الصالح يرفعه﴾**.

وذلك أن نسبة هذه الحياة إلى ما بعدها نسبة الزرع إلى الحصاد والشجرة إلى ثمرتها، ففي هذه الحياة يزرع المرء وفي الأخرى يحصد نتاجه، وإنما يكون محتوى البذر قيمة العمل من حسن وقبح وخير أو شر، فمن زرع في هذه الحياة شراً حصد شراً ومن زرع خيراً حصد خيراً، ومن ارتكب غير ذلك لم يكن قد بذر شيئاً حتى يكون له حصاد منه حينها.

واعلم أن لكل من عنصري الفعل الجوانحي ـ وهي النية ـ والجوارحي ـ وهي الممارسة ـ دوراً في قيمة العمل في الآخرة ..

أما دور الممارسة الفاضلة فهو أمر لا شك فيه، فهي ذات تأثير كبير في قيمة العمل، فليس من نوى العمل من غير أن يقدر عليه كمن نواه وقدر عليه، وإن لم يحرم الأول بعض الأجر، ولكن لا يساوى بالثاني الذي تحمل عناء الفعل وأدرك الواقع، فإن للعناء حظاً من الأجر كما إن لإدراك الواقع حظاً، على ما اقتضته حكمته تعالى في الحياة من تفضيل المصيب على المخطئ، لما تحقق بفعله من المصلحة، وهذا هو ما دلت عليه أدلة ثواب الأعمال الصالحة.

وما ورد[٧] من أن ((نية المؤمن خير من عمله)) ناظر إلى بعض

---

(١) البقرة:٥٧. الأعراف:١٦٠.

(٢) الأنعام:١٦٠.

(٣) الحشر:١٩.

(٤) الفتح:١٠.

(٥) البقرة:٢٧٦.

(٦) فاطر:١٠.

(٧) لاحظ الكافي ج:٢ ص:٨٤.

الاعتبارات، كأن يكون المراد أن النية أهم جزئي العمل منها ومن جزئه الخارجي[١]، وقد ورد[٢] في بعض آخر من الروايات أنه ((لا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السُنة)).

أهمية النية في الآخرة

أما النية فهي مقوّمة لقيمة العمل في الآخرة وآثاره سلباً أو إيجاباً، فإن عمل الخير يكون على وجهين ..

أحدهما: أن يأتي بالخير رجاءً لتحصيل منفعة عاجلة، أو درء مفسدة متوقعة من غير نظر إلى حسن العمل وقيمته الفطرية، أو أثر متوقع له بعد هذه الحياة، وذلك مما لا حصاد منه في الآخرة.

والآخر: أن يأتي بالخير لكونه خيراً، فينبعث فيه المرء عن فطرته، ويتحرك من منطلق ضميره، وهذا العمل يترك أثراً إيجابياً بعد هذه الحياة، فلا يساوى المحسن في الآخرة بغيره، كما لا يساوى المسيء بغيره حتى إذا لم يكن مؤمناً بل لكلٍّ جزاء من عمله، وإن كان ذلك بتخفيف العقوبة ودرء بعض الأهوال.

أهمية الداعي الإلهي وأثره في العمل

والانقلاب الأعظم الذي يقع في قيمة الأعمال الحسنة وآثارها في ما بعد هذه الحياة هو ما يحققه الإيمان بالله سبحانه وتعالى والدار الآخرة، والإتيان بالعمل لله عز وجل، فإنه يعطي للأعمال أبعاداً عميقة وآثاراً جليلة من

---

(١) علل الشرائع (ج:٢ ص:٥٢٤) بإسناده إلى زيد الشحام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني سمعتك تقول: ((نية المؤمن خير من عمله))، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال: ((لأن العمل ربما كان رياء للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطى تعالى على النية ما لا يعطي على العمل)). قال أبو عبد الله عليه السلام: ((إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته، ويكتب نفسه تسبيحاً، ويجعل نومه عليه صدقة)). ولاحظ فقه الرضا عليه السلام ص:٣٧٨-٣٧٩ باب النيات.

(٢) لاحظ الكافي ج:١ ص:٧٠.

وجهين..

الوجه الأول: أن الله سبحانه هو صاحب هذه الحياة بجميع كائناتها وأطوارها فهو الذي خلقها وأبدعها، وسنّ سننها وقنّن قوانينها، فالكل مدين له في وجوده وفي النعم التي يتمتع بها.

وعليه فلو لوحظ مقياس الفطرة السليمة والضمير الحي فهو يقضي بأن حقه سبحانه وتعالى هو القيمة الأولى في هذه الحياة، فيجب على المرء العرفان لجميله والشكر لمعروفه.

وحيث إن سنن حياة الإنسان مبنية على الأعمال الفاضلة كان لمراعاة هذا الحق بطبيعة الحال الأثر العميق في هذه الحياة الدنيا وما بعدها، كما أكدت ذلك الرسالات الإلهية.

وقد دلت الرسالات الإلهية ودلائل الفطرة على أنه سبحانه وتعالى لم يكن ليحتاج في عظمته إلى مراعاة حقه، ولكن الإنسان هو الذي يحتاج إلى ذلك ليبارك له في حياته الخالدة ويسلم فيها، بعد أن كانت سنن حياته وسعادته فيها مبنية على قيم الحياة الفاضلة، وكان حقه سبحانه قاعدة لهذه القيم كلها.

فعلى المرء أن يتعرف على الله سبحانه ويتحرّز عن جعل الأنداد له في خلقه ونعمه، ويكثر من ذكره والخضوع له، ويستقبل رسله بالتصديق والتوقير والاستجابة، ليكون ذلك إبداءً لحسن نيته معه، ووفاءً ببعض حقه. على أن حقه يتعاظم بالشكر، لأنه لا يتأتّى شكره إلا بوسائل إنعامه.

الوجه الثاني: حمايته سبحانه وتعالى للقيم الفاضلة في الحياة بحقه العظيم، وأثر ذلك في تنامي بركاتها وتبعاتها.

وذلك أن الله جلت نعماؤه حيث كان خالق هذه الحياة وصاحبها وواضع سننها ـ كما غرس قواعد الحياة الإنسانية من خلال ما أودعه في ضميره من القيم الفاضلة ـ فإنه قد حمى هذه القيم بحقه العظيم كما بلغه من خلال رسالاته، فتضاعفت آثار كل قيمة أضعافاً مضاعفة بكون مراعاتها مراعاة لعظيم حقه، وانتهاكها كفراناً لجليل نعمته، فتعاظمت سنن السعادة وتفاقمت سنن الشقاء،

فمن راعى قيمة بالنظر إليها وإلى أمره بها فقد راعى قيمتين، ومن انتهك قيمة أمر بها وقد وقف على ذلك فقد انتهك حقين، أعظمهما قيمة شكره وأجلهما مراعاة حقه.

وإنما مثل ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل أب رعى حقوق أسرته في ما بينهم بحقه عليهم، فكان مراعاة حق كل واحد لغيره مراعاة لحق أبيه وانتهاكه انتهاكاً لحقه.

وعليه فإن قصد بعمله الله سبحانه وجزيل مثوبته في الدار الآخرة فقد نظر إلى آفاق عظيمة للحياة، فتكون بركة عمله بمقدار سعتها وتصديقه بها، فهو ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾[1]. فإن كان قد نوى الشكر لله سبحانه فلأن ذلك أعظم نية يمكن أن ينويها المرء في شيء من أعماله، لأن حقه تبارك وتعالى على عباده هو أعظم الحقوق وأولاها بالعرفان والتقدير. وأما إذا أتى به رجاءً لثوابه أو خوفاً لعقابه فلأن لمن رجا حقاً على المرجو على وَفقِ مقاييس الفضل وموازين الجود والكرم، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى على نفسه أن لا يخيب من صدق بوعده فنزل بفنائه ورجاه رجاءً صادقاً.

هذا أثر العمل الفاضل متى أتي به ابتغاء وجهه سبحانه.

أثر الداعي الفاضل بالعمل إذا لم يكن إلهياً

وأما من أتى بعمل فاضل منطلقاً من فضله ولكن من غير نظر إلى شكر الله سبحانه وطاعته ورجاء مثوبته فلن يعدم أثراً في ما بعد هذه الحياة من فضله، إذ لا يتساوى المحسن وغيره، ولكن لن يكون له مثل تلك المكانة، ولا ينال حظاً كبيراً من عظيم تلك البركة.

ومن عمل عملاً سليماً راغباً في أثره في هذه الحياة كتقدير الناس إياه وثنائهم عليه فقد انقطع أثره بانقطاعها، ولم يكن له إلا ما وصل إليه على وَفقِ سننها وقوانينها.

---

(١) إبراهيم:٢٤.

كما إن من عمل عملاً سيئاً لن يعدم أثراً سلبياً له على كل حال إن عاجلاً أو آجلاً في ما بعد هذه الحياة، فإن علم نهي الله إياه وارتكبه بالرّغم من ذلك أو لم يهتم بالاطلاع على نهيه من عدمه ازدادت سلبيات عمله وتفاقم سيء أثره، وإن عاند الله سبحانه وتعالى في ذلك فقد باء بالإثم العظيم والعذاب الأليم.

مستويات النية وآثارها

هذا، وإن لمستوى النية أثراً في ارتفاع قيمة العمل وهبوطها، فربّ فعل كإعانة فقير ـ مثلاً ـ صدر من شخصين ولكن كانت نية أحدهما عليه أقوى وأصفى من جهة شدة تأذيه من معاناته وحرصه على رفعها عنه، فهو يندفع نحو إعانته بنحو أقوى، فتكون بركة عمله أكثر من الآخر، وربّ فعل قبيح صدر من اثنين لكن كان ذلك من أحدهما بخبث وإصرار دون الآخر، فيكون ما تلحقه من اللعنة بفعله أكبر.

ومن ثم جاءت في الآيات الشريفة درجات متفاوتة من الفضيلة للفعل الواحد، فقد جاء في بعضها أن أجر العمل ضعف العمل عشر مرات فقال عزّ من قائل[1]: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾، وجاء في بعضها ما يزيد على ذلك أضعافاً مضاعفة قال سبحانه[2]: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

وقد تتعدد النية للمرء بالعمل الواحد فتتضاعف قيمته، ومن ثم أوصي بأن يستحضر المرء جهات الحسن والصلاح في فعله ليندفع منها جميعاً. وربما اشتبه على المرء أمر نيته فظنها نية خير، ولكنها كانت طلباً لبعض مآربه في هذه الحياة، وهو مما ينبغي الحذر منه، فكم من امرئ يسيء وهو يظن أنه يُحسِن صُنعاً

(١) الأنعام:١٦٠.

(٢) البقرة:٢٦١.

كما قال تعالى[1]: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

ابتغاء وجه الله تعالى لا يعني عدم مراعاة الدواعي الفطرية

وليعلم أن ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى لا يلغي مراعاة النوازع الفطرية الفضيلة كحقوق الناس، بل المراعي لها أفضل من المهمل لها، تقديراً لسلامة عقله واستجابته لفطرته، فمن ترك المساءة إلى أبويه لأن الله سبحانه وتعالى نهاه عن الإساءة إليهما ولعظيم حقهما عليه كان أفضل وأنبل ممن ترك المساءة إليهما لأن الله سبحانه وتعالى نهاه فحسب، ويقول: إنه لولا ذلك لم يرعَ لهما حرمة ولا حقاً.

ولا ينبغي أن يتوهم أن الثاني أفضل، لتحقق الإخلاص منه، حيث لم يشرك في نيته غير الله سبحانه وتعالى، فإن الإخلاص ينفي دخالة قصد آخر في ما لا يكون وفاءً لحق فطري للخلق كما في الصلاة والصيام والحج، وأما في مورد الحقوق الفطرية للناس فضم الداعي الفطري يجعل العمل أنبل حيث استجاب المرء لنداء ضميره، الذي جعله الله تعالى سبيلاً لرشده، وكيف لا وقد حث الشارع على مراعاة الحقوق، والعمل مع الناس بالمعروف، ومن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق.

وهذه نكتة ظريفة ينبغي الالتفات إليها.

(السُنّة ٤): السنن النفسية والاجتماعية العامة[2].

إن من جملة سنن هذه الحياة هي السنن العامة الرابطة بين أفعال الإنسان

---

(١) الكهف ١٠٣-١٠٤.

(٢) إن السنن الحاكمة في باب أعمال الإنسان على ضربين ..

أ ـ سنن غائية، وهي ما يترتب على فعل الخير بما هو خير أو على فعل الشر بما هو شر. وهذا الضرب مرّ ذكره في (السُنّة ٣).

ب ـ سنن آلية خادمة لمقصد المرء أياً كان خيراً أو شراً. وهذا هو المراد بالسنن العامة.

ونتائجها في المستوى الفردي والاجتماعي، فإذا نظر المرء إلى نتيجة محددة وقصدها ـ خيراً كان أو شراً ـ تأتّى له أن يتوصل إليها بأسبابها، فيجب على من رغب في السعادة أن يلتفت إلى أسبابها ويسلكها حتى ينتفع بها لغايته هذه، وتلك هي الحكمة التي تتناسق بها غايات الإنسان وأفعاله، وفاقد الحكمة ينظر إلى غاية ويعمل بما لا يؤدي إليها.

وقد تضمن القرآن الكريم التذكير بكثير من سنن الحياة ..

فمن السنن النفسية مثلاً أن الاستغناء والترف المادي مظنة للطغيان والفساد كما في قوله تعالى[١]: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ وقوله[٢]: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾.

ومن السنن الاجتماعية مثلاً أن الأحوال الاجتماعية لن تتغير إلا بتغيير في المجتمع نفسه، كما قال سبحانه[٣]: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾، ومن ثم نرى أن المصلحين يسعون إلى إيجاد تغيير في سلوك المجتمع وأولوياته، كما إن المفسدين يسعون إلى مثل ذلك بما يؤدي إلى ما يرغبون فيه من تقبل الاستبداد وتهزيع الأخلاق.

كما تضمنت كلمات النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام كثيراً من الحكم التي تبين مثل هذه السنن، وفي نهج البلاغة كثير منها كقوله عليه السلام[٤] يبين كيفية السلامة من تبعات الفتنة وعوارضها: ((كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب)). وقوله عليه السلام[٥] يبين أسباب الهوان الاجتماعي: ((أزرى بنفسه من استشعر الطمع، ورضي بالذل من كشف عن ضره، وهانت عليه نفسه من أمّرَ عليها لسانه)).

---

(١) الإسراء:١٦.

(٢) العلق:٦ـ٧.

(٣) فاطر:١٠.

(٤) نهج البلاغة ج:٤ ص:٣.

(٥) نهج البلاغة ج:٤ ص:٣.

ولم يزل الحكماء يذكرون الحكم التي أفضت إليها تجاربهم في الحياة في جمل مختصرة، عسى أن ينتفع بها الآخرون.

فعلى المرء أن يتأمل هذه الحياة بعين المتأمل في أحوالها المستبصر لسننها، وليتأمل الحِكم التي وصفها من قبله كي يستغني عن تجربتها ويسلم من ندامة مخالفتها. ثم ليستثمر هذه السنن في سبيل تحصيل السعادة فيها وفي ما بعدها، فإن ﴿**مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[١].

الآثار الوضعية في هذه الحياة

إن هناك آثاراً قهرية للأعمال الفاضلة الفردية والاجتماعية وأضدادها وردت في نصوص الكتاب والسنّة، منها إيجابية تعرف بالبركات ومنها سلبية تعرف بعدم البركة فيها أو كون فاعلها ملعوناً.

أمثلة للأعمال المباركة والنصوص فيها

ومن أمثلتها ..

١ ـ بركة الإيمان وأثر الكفران والجحود، قال سبحانه[٢]: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾.

وجاء في الأحاديث من ذلك شيء كثير.

٢ ـ بركة التقوى والعمل الفاضل، وأثر المعصية والأمر السيء، وقال سبحانه[٣]: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾، وقال أمير المؤمنين

---

(١) البقرة:٢٦٩.

(٢) النحل:١١٢.

(٣) الأعراف:٩٦.

عليه السلام[١]: ((فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد إنصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها)).

وقال عليه السلام[٢]: ((إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب ويقلع مقلع، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر. وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق، فقال: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾ فرحم الله امرأ استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيته)).

٣ ـ بركة صنع المعروف للآخرين، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال[٣]: ((إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار منه المعروف من الشفرة في سنام البعير، أو من السيل إلى منتهاه)).

وعنهم عليهم السلام[٤]: ((صنائع المعروف تقي مصارع السوء)).

وعن أبي عبد الله عليه السلام[٥]أنه قال: ((ما أحسن عبدٌ الصّدقةَ في الدنيا إلا أحسن الله الخلافة على ولده من بعده)).

وقال: ((حسن الصدقة يقضي الدين ويخلف على البركة)).

٤ ـ بركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الأثر عن أمير المؤمنين عليه السلام[٦]في وصيته للحسنين عليهما السلام: ((لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم)).

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٧٣-١٧٤.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٥.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢٩.

(٤) الكافي ج:٤ ص:٢٩.

(٥) الكافي ج:٤ ص:١٠.

(٦) نهج البلاغة ج:٣ ص:٧٧.

٥ ـ بركة صلة الرحم، فعن أبي جعفر عليه السلام[١] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم)).

وعن أبي عبد الله عليه السلام[٢] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((من سرّه النَّسَاءُ في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه)).

وعنه[٣] أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم، فتنمى أموالهم وتطول أعمارهم. فكيف إذا كانوا أبراراً بررة)).

٦ ـ بركة الإسرار بالخير، ففي الحديث المتكرر عن أبي عبد الله عليه السلام[٤]: ((ما من عبد يسر خيراً إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسر شراً إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر الله له شراً)). وفي حديث آخر عنه[٥] قال: ((من أراد الله عز وجل بالقليل من عمله أظهر الله له أكثر مما أراد، ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله عز وجل إلا أن يقلله في عين من سمعه)).

٧ ـ بركة حسن الجوار، ففي الصحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام[٦] قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حسن الجوار يعمر الديار وينسئ في الأعمار)). وفي حديث آخر عنه عليه السلام[٧] قال: ((حسن الجوار يزيد في الرزق)).

٨ ـ بركة الصبر، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[٨]: ((إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً. وابتلى قوماً بالمصائب

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٥٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٥٢.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٥٥.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٢٩٥ـ٢٩٦.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٢٩٦.

(٦) الكافي ج:٢ ص:٦٦٧ـ٦٦٨.

(٧) الكافي ج:٢ ص:٦٦٦.

(٨) الكافي ج:٢ ص:٩٢.

فصبروا، فصارت عليهم نعمة)).

٩ ـ بركة الشكر، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[١] عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة))، وفي حديث آخر عنه عليه السلام[٢] قال: ((من أعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾)).

١٠ ـ بركة البِرّ وحسن الخلق، ففي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[٣] قال: ((البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار))، وفي حديث آخر عنه عليه السلام[٤] قال: ((من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مُدّ له في عمره)).

١١ ـ بركة الرفق، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[٥] عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((الرفق يمن والخرق شؤم))، وعنه عليه السلام[٦]: ((ما زوي الرفق عن أهل بيت إلا زوي عنهم الخير))، وفي حديث آخر عنه عليه السلام[٧]: ((من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس)).

١٢ ـ بركة تنفيس كربة الآخرين وستر عوراتهم، ففي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[٨]: ((أيما مؤمن نفّس عن مؤمن كربة وهو معسر يسّر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة))، قال: ((ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة))، قال: ((والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير)).

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٩٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٩٥.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٠٠.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٠٥.

(٥) الكافي ج:٢ ص:١١٩.

(٦) الكافي ج:٢ ص:١١٩.

(٧) الكافي ج:٢ ص:١٢٠.

(٨) الكافي ج:٢ ص:٢٠٠.

أمثلة للأعمال السالبة للبركة والنصوص فيها

ومن القسم الثاني وهو ما نبّه فيه على عدم بركة العمل وآثاره السلبية ..

١ ـ عدم بركة المال الحرام المستحصل بالأساليب المحظورة كالغش والتدليس والكذب، فعن أبي الحسن الكاظم عليه السلام[١]: ((إن الحرام لا ينمى، وإن نمى لا يُبارَك له فيه، وما أنفقه لم يؤجر عليه، وما خلّفه كان زاده إلى النار)).

وعن أبي عبد الله عليه السلام[٢]عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: ((إذا التاجران صدقا بورك لهما، فإذا كذبا وخانا لم يبارك لهما)).

وعن النبي صلى الله عليه وآله[٣]: ((الأمانة تجلب الغنى، والخيانة تجلب الفقر)).

٢ ـ سلب الإسراف للبركة، فعن أبي عبد الله عليه السلام[٤]: ((إن مع الإسراف قلة البركة)).

٣ ـ شؤم تعيير الآخرين وتتبع عثراتهم، ففي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[٥]قال: ((من عيّر مؤمناً بذنب لم يمت حتى يركبه)). وفي حديث معتبر عن أبي جعفر عليه السلام[٦]عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال بعد النهي عن تتبع عورات المسلمين: ((من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله تعالى عورته يفضحه ولو في بيته)). وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام[٧]: ((لا تبدي الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك))، وقال: ((من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن)).

٤ ـ شؤم طلب الدنيا بالدين، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[٨]قال:

---

(١) الكافي ج:٥ ص:١٢٥.

(٢) الكافي ج:٥ ص:١٧٤.

(٣) قرب الإسناد ص:١١٦ـ١١٧.

(٤) الكافي ج:٤ ص:٥٥.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٣٥٦.

(٦) الكافي ج:٢ ص:٣٥٤.

(٧) الكافي ج:٢ ص:٣٥٩.

(٨) الكافي ج:٢ ص:٢٩٩.

((قال رسول الله ﷺ: إن الله عزّ وجل يقول: ويل للذين يَختِلُون الدنيا بالدين، وويل للذين يقتلون الذين يأمرون بالقِسط من الناس، وويل للذين يسير المؤمن فيهم بالتقية، أبي يغترُّون أم عليَّ يَجترِئون، فبي حلفت لأتيحنَّ لهم فتنةً تترك الحليم منهم حيران)).

٥ ـ شؤم الخصومة، ففي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[(١)] قال: ((إياكم والخصومة، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق وتكسب الضغائن)).

٦ ـ شؤم كون الدنيا أكبر همّ الإنسان، ففي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[(٢)]: ((من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم الله له. ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله الغنى في قلبه وجمع له أمره)).

٧ ـ شؤم الظلم وآثاره على ولد الإنسان، ففي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[(٣)]: ((من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده)). وفي حديث آخر عنه عليه السلام[(٤)] أنه قال مبتدءاً: ((من ظلم سلط الله عليه من يظلمه أو على عقب عقبه)). قال الراوي: هو يظلم فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟! فقال: ((إن الله عز وجل يقول: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾)).

وفي حديث[(٥)] دخل رجلان على أبي عبد الله عليه السلام في مداراة بينهما ومعاملة، فلما أن سمع كلامهما قال: ((أما إنه ما ظفر أحد بخير من ظفر بالظلم، أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم)). ثم قال: ((من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فُعِل به، أما إنه إنما يحصد ابن آدم ما يزرع، وليس يحصد أحدٌ من المر حلواً، ولا من الحلو مراً))، فاصطلح

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٠١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣١٩.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٣٣٢.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٣٣٢.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٣٣٤.

الرجلان قبل أن يقوما.

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام[1] قال: ((من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له ولم يأجره الله على ظلامته)).

وفي حديث عن أبي جعفر عليه السلام[2] قال: ((ما انتصر الله من ظالم إلا بظالم، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾)).

هذه نماذج من بركات موصوفة للأعمال وأضدادها.

مبنى الآثار الوضعية ومنشأها

والظاهر أن هذه الآثار الوضعية مبنية على آثار ظريفة وباطنة للفضائل في نفس الفرد والمجتمع وما يتبعها من النتائج العملية في المستوى الفردي والاجتماعي، من حيث لا يحتسبه المرء ولا يقصده عادة. وهي في الغالب تندرج في قاعدة بركة الفضيلة وشؤم الرذيلة وقانون (كما تدين تدان) وتكون على ضربين، فمنها آثار تكشف عنها النصوص الشرعية المنتهية إلى الله سبحانه الذي هو خالق هذه الحياة والسّانُّ لسُننها، ومنها آثار قد تخفى على عامة الناس ولكن يمكن أن يلتفت إليها المرء في حال تبصره في هذه الحياة وسننها، بالتأمل في ما تمليه طبيعة الأعمال ونتائجها وتأتي النصوص الشرعية منبهة عليها، كما يتضح ذلك بالتأمل في جملة من النماذج السابقة ..

١ ـ فإيمان الإنسان بالغيب من الله سبحانه والدار الآخرة تبصر وفضيلة في نفسه، ومقوٍّ للفضائل في هذه الحياة ومحفز للدواعي عليها، وهو سكن وطمأنينة وملجأ وغوث في شدائد الحياة كالجفاف وقلة الأمطار.

وإذا وجد في أهل الإيمان ظواهر سلبية فذلك يرجع إلى سوء تلقيهم للإيمان ومقتضياته، أو عدم أخذ الإيمان مأخذه من قلوبهم حتى تغسل عنهم المزاجيات السيئة.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٣٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٣٤.

كما إن جحود الفرد والمجتمع للمبادئ الإيمانية بعد قيام الحجة الواضحة لديه على صدق هذه الدعوة يؤدي بطبيعة الحال إلى الخلاف والشقاق في المجتمع، مما يستتبع زوال النعم عنهم وتواتر النقم عليهم كما لوحظ ذلك في المجتمعات التي بعث فيها الأنبياء كما قال تعالى[١]: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.

٢ ـ وأما بركة تقوى الله سبحانه وسلبيات معصيته فمن الوجه فيها أن التقوى هي جماع الفضائل التي هي سنن الخير في الحياة ـ على ما تقدم ـ فإنها تحفز الفضائل في النفس وتقوي البصيرة وتخفف دواعي الشرّ ومشاعر القلق، كما جاء في وصف حقيقة التقوى في الآيات الشريفة والآثار النبوية والعلوية خاصة، منها ما جاء في نهج البلاغة في خطبة المتقين وغيرها. وليست تقوى المرء على ما يُظنّ مجرد اهتمام بالذكر والعبادة في غفلة عن سائر الفضائل والخيرات، فالمتقي يقظان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، وغيره نائم في يقظته تائه في مسيرته محجوب بمتعه العاجلة.

٣ ـ وأما بركة المعروف فمن أسبابها أن ممارسة المعروف تستتبع المجازاة بمثله، فالمعروف يوجب صفاء في طبع صاحبه وسلامة في تعامله مع الآخرين، ولا يكاد يُجهل أهلُ المعروف وإن كان صنيعهم للمعروف سراً، فإنه أشبه بالعطر في رائحته الزكية، فهو مما يشم من فاعله ويستدل به على فعله، كما يستدل بفعله عليه، فإذا كان قد أعان أفراداً معدودين فقد كسب أضعاف ذلك من القلوب، فيكون عوناً له في شدائد الحياة، ووقاية له عن مصارع السوء.

٤ ـ وأما بركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صلاح المجتمع والسلطة الحاكمة عليه فمن الوجه فيه أنه لا يأمر بالمعروف إلا فاعله والحريص عليه، ولا

---

(١) البقرة: ٢١٣.

ينهى عن المنكر إلا تاركه والكاره له، وإذا صلح المجتمع وُلّي عليه صالحٌ، وإن فسد وُلّي عليه فاسدٌ، فلن تجد فساداً في حاكم إلا في أثر ضعف في مبادئ المجتمع وقيمه أو في تمسكه بتلك المبادئ والقيم، كما لن تجد صلاحاً فيه إلا في أثر ترقي المجتمع وتمسكه بقوة وحكمة للمبادئ التي يؤمن بها، وقد قال تعالى[1]: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

٥ ـ وأما بركة صلة الرحم وأثرها في نمو الأموال وزيادة الأعمار فمن الوجه فيها[2]أن صلة الرحم نحو تكافل وتأمين اجتماعي لكل واحد من الأرحام، مما يوجب سكينة واستقراراً في النفوس واجتماعاً للقلوب، وتكاملاً في الجهود ووقاية عن المخاطر، وقطع الرحم يثير العداوة ويوجب الغربة ويفضي إلى القلق.

٦ ـ وأما عدم بركة المال الحرام المستحصل بالكذب والغش والخيانة والسرقة ونحوها فمن الوجه فيه أن الحرام يفسد قلب صاحبه ويؤدي إلى فساد سلوكه، وهو بطبيعته مما ينعكس على التعامل معه. فكم من تاجر بر أمين أثرى على أساس أمانته وكم من كاسب تضرر بتلبيسه وخيانته وذلك مشهود في الحياة، ومن ثم ترى الاهتمام بأخلاقيات التعامل كأداة مهنية لترويج السلع وجذب الزبائن.

---

(١) الأنعام:١٢٩.

(٢) مما ينبه على هذا الوجه فيه ما في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام (الكافي ج:٢ ص:١٥٤، ولاحظ ص:١٥٣) قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((لن يرغب المرء عن عشيرته وإن كان ذا مال وولد، وعن مودتهم وكرامتهم ودفاعهم بأيديهم وألسنتهم، هم أشد الناس حيطة من ورائه وأعطفهم عليه وألمهم لشعثه، إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما يقبض عنهم يداً واحدة ويقبض عنه منهم أيدي كثيرة، ومن يلن حاشيته يعرف صديقه منه المودة، ومن بسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له في آخرته. ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خيراً من المال يأكله ويورثه. لا يزدادن أحدكم كبراً وعظماً في نفسه ونأياً عن عشيرته، إن كان موسراً في المال، ولا يزدادن أحدكم في أخيه زهداً ولا منه بعداً إذا لم ير منه مروة وكان معوزاً في المال، ولا يغفل أحدكم عن القرابة بها الخصاصة أن يسدها بما لا ينفعه إن أمسكه ولا يضره إن استهلكه)).

٧ ـ وأما سلب الإسراف للبركة فمن الوجه فيه أن تقدير الإنسان لما متع به من نعم وإمكانات وانتفاعه بها انتفاعاً محسوباً مضبوطاً ومقدراً يؤدي إلى الحفاظ على المال، وسلامته من الضياع، والإسراف ـ وإن احتقره صاحبه ناظراً إلى حالة جزئية ـ إنما يكون خلقاً وسلوكاً تترتب عليه مئات الممارسات المسرفة مما يؤدي إلى هدر المال وضياعه، وكم من أسرة ذات رزق محدود تدبر أمور حياتها بتجنب الإسراف وأخرى مثلها تشكو الحاجة والعوز من حيث عدم التجنب عنه وتضييع المال.

٨ ـ وأما بركة الصدق دون الكذب فمن الوجه فيه أن الصادق في قوله مظنة للوثوق والاعتماد، فتنفتح له بذلك مداخل لم تكن لتتأتّى له من دونها، وأما الكاذب فهو مظنة للغدر والخيانة والتلبيس، فينغلق عليه من أبواب الغير ما لم يكن لينغلق عنه لولا كذبه.

هذه وجوه من الآثار الإيجابية والسلبية لهذه الأعمال مما تظهر بالتبصر في هذه الحياة، ولهذه الأعمال كذلك آثار أخرى لا يهتدي إليها المرء إلا بما يرد عن الله سبحانه من حيث علمه بقواعد هذه الحياة وعلائقها ورعاية المرء للأعمال الفاضلة وتنميته لها، وسخطه على الأعمال الرذيلة وإحباطه إياها وإيجاب الحطّ لها.

أقسام الآثار الوضعية

واعلم أن الآثار الوضعية المترتبة على الأعمال على تصنيفات وتقسيمات شتى ..

فمن وجوه تصنيفها أن منها ما تكون آثاراً تربوية تؤثر في نفسية الفاعل فتهذبها إن كان الفعل ممدوحاً أو تزلقها إن كان مذموماً.

ومنها ما تكون آثاراً خارجية من حيث ما يكمن في الفعل الممدوح من المصالح الفردية والاجتماعية، وفي الفعل المذموم من المفاسد والمضار كذلك.

ومن وجوه تصنيف الآثار الوضعية أيضاً أن بعضاً منها يتقوّم بالعلم بالشيء، كما في آثار الكذب فإن الكذب أمر محرم ذو آثار نفسية سلبية بعضها تربوية، وبعضها خارجية لما يؤدي إليه من سلب الثقة من الشخص الكاذب، ولكن إنما تترتب تلك الآثار في مورد صدق الكذب، ولا يصدق الكذب إلا فيما إذا أطلق المرء قولاً يعلم أنه على خلاف الواقع دون ما لو أخطأ. نعم إذا علم المرء لاحقاً بخطأه ينبغي أن يشعر بالحزازة مما صدر منه، لا سيما إذا بنيت عليه أعمال أخرى.

وأما البعض الآخر فهو ما لا يتقوّم بالعلم وهو الغالب، وما يترتب من الآثار على هذا القسم ..

منه: آثار قهرية ـ إما نفسية تربوية أو خارجية ـ ثابتة على كل حال تصحح جعل الحكم الشرعي. وهي آثار إيجابية تترتب على العمل الفاضل وترك ضده، وأخرى سلبية تترتب على ترك العمل الفاضل وفعل ضده.

ومنه: آثار إضافية خاصة تترتب بعد الاطلاع على الفضيلة والشرع، فإن الآثار الإيجابية للعمل تتأكد بالاندفاع الفاضل، كما إن الآثار السلبية له تتأكد أيضاً بالاندفاع الخاطئ.

وهنا سؤال معروف، وهو أنه هل تترتب الآثار الوضعية في حال وقوع المخالفة عن جهل أو شك؟

والجواب عنه: أن في ذلك تفصيلاً ..

فقد يكون المرء شاكاً والمفروض به أن لا يُقْدِم على العمل في حال الشك حتى يفحص ويطّلع ولكنه لم يعبأ ولم يحذر، فهنا تترتب على العمل جميع الآثار الوضعية النفسية والخارجية، وإن كان ما يترتب منها على ارتكاب العالِم أقوى مما يترتب على الجاهل المبتلى بالشبهة.

وقد يكون المرء غير محتمل لثبوت الحكم أصلاً، ولكن يكون ذلك ناشئاً عن عدم الاهتمام بالاطّلاع اللازم على القيم والأحكام، فهنا يكون الجهل جهلاً ذميماً، ويترتب على مخالفة الحكم الأثر الخارجي السلبي الذي جُعل الحكم

لرعايته، وكذلك الأثر النفسي السلبي العام، وهو تهوين روح الفضيلة ومراعاة الشرع في نفس الإنسان.

وقد يكون المرء شاكاً في الحكم ولكن الوظيفة الفطرية والشرعية تجعله في سعة من مراعاة الحكم المحتمل في حال الشك، مثل من شك في طهارة شيء وحليّته، فعوّل على أصالة الحل وأصالة الطهارة ـ وهما أصلان شرعيان منصوص عليهما ـ فإن كان الاهتمام بالمحتمل غير مطلوب في حال الشك كما قيل به في الشك في الطهارة والنجاسة لم يترتب على الفعل أثر سلبي ينبغي الاعتداد به، بل الأولى صرف الاهتمام إلى الأمور المعلومة.

وأولى منه في مثل ذلك ما لو اعتقد بحليّة شيء أو طهارته من غير أن يكون جهله ناشئاً عن مبادئ ذميمة كعدم تعلم الفضائل.

وإن كان الاهتمام به مطلوباً في ميزان العقل والشرع بدرجة أو أخرى كان الأثر السلبي المترتب بحسب درجة ذلك الاهتمام، وهو قد يكون أدنى من بعض المكروهات فضلاً عن المحرمات.

وليُعلم أن من الناس من يهتم بتجنب بعض المحرمات وربما المكروهات توقياً من آثارها الوضعية مثل أكل الحرام. وهذا الاهتمام في نفسه جيد، ولكن تخصيص الاهتمام بذلك غير حكيم، لأن مخالفة عامة الأحكام ذات آثار وضعية على نفس المخالفين لها، وكثير منها خطيرة مثل آثار التهمة والفاحشة، ومن جملة آثار بعضها وقوع المرء في أكل الحرام ونحوه مما يرغب في التحرز عنه، كما إن الآثار الأخروية أولى بالاهتمام بها، فإن هذه الحياة منقضية، وليست أموال المرء وأولاده إلا فتنة والآخرة خالدة لا انقطاع لها.

(السنّة ٥): تولي الله سبحانه للمرء في حياته أو إيكاله إلى نفسه.

اعلم أن الله سبحانه وتعالى ـ على ما تضمنته رسائله إلى خلقه واقتضته قواعد العقل والفطرة وأيدتها شواهد الحياة هو ولي خلقه جميعاً، من وجوه بعضها عامة وبعضها خاصة بمن لم يتنكر لولايته ولم يعرض عنه، فهو سبحانه مربّي خلقه وكافلهم وراعي مصالحهم في هذه الحياة، لإيصالهم إلى مبتغاهم من

السعادة في الدنيا وما بعدها وتجنيبهم عوارض الشقاء، كولاية الوالدين على أولادهما، ولله المثل الأعلى.

وتفصيل ذلك: أن لله تبارك وتعالى عنايات خاصة ببعض من استحقها من عباده وعامة بعموم البشر، اقتضاها موقع ألوهيته بالنسبة إليهم، وخلقه إياهم من دون إرادتهم ولا طلب منهم، إذ كانوا عدماً لا يتأتّى منهم سؤال بقول أو حال، فبدأ جلّ جلاله إياهم بالإحسان من قبل أن يكون لهم معرفة به أو عبادة له.

العنايات العامة لله تعالى ومواردها

أما العنايات العامة فهي ..

الأولى: سنن الإنعام عليهم منذ نشأتهم، حيث خلقهم في أحسن تقويم، وفضلهم على كثير من خلقه، وهيأ لهم بيئة تعنى بهم من خلال الأبوين والأولاد والأزواج، وسائر ما سخره لهم من خلقه في الأرض والسماء. وربما اتفق لبعضهم بعض وجوه الحرمان حسب سنن الابتلاء في هذه الحياة، وهو منظور له لا يخلو شيء منه عن تدارك وتعويض على نحو يختاره سبحانه.

وينبغي التفات الإنسان إلى أن خلقه سبحانه للخلق بإرادته هو لا يمنع من عظيم حقه عليهم في إنعامه وإحسانه، إذ لا يخرج بذلك ـ على وَفقِ قواعد الفطرة وشهادة الضمير ـ عن كونه منعماً ومحسناً. ألا ترى أن الوالدين وإن سببا إلى وجود الولد بإرادتهما وطلباه ليكون أنساً لهما وعوناً فإنهما يستحقان عليه الشكر والامتنان بالأدب والإحسان، والله تبارك وتعالى أولى بالاستحقاق. على أنه وإن كان قد خلق الخلق لإظهار عظمته لهم إلا أن ذلك بذاته إحسان إليهم، إذ أعطاهم فرصة الوجود والسعادة، ما لم يدفعوها عن أنفسهم باختيارهم.

الثانية: أنه سبحانه أباح لهم تشريعاً الانتفاع بنعمه والتمتع بآلائه كما يسرها لهم تكويناً، ولو شاء لحظرها عليهم في حال كفرانهم وعنادهم ومعصيتهم له، إلا أنه تعالى لم يفعل ذلك إحساناً إليهم وحفظاً لسُنّة الابتلاء في

هذه الحياة.

الثالثة: أنه تبارك وتعالى اعتنى بتعليمهم لحقيقة هذه الحياة وقواعدها، وسنن السعادة والشقاء فيها، من خلال إرسال الأنبياء وإتباعهم بالأوصياء، وبث العباد الصالحين فيهم، وربما ضلّ بعضهم عن السبيل من غير تقصير منه بحسب مقاييس الفطرة، وهو سبحانه يقدّر له ذلك بمقتضيات عدله ولطفه.

العنايات الخاصة لله تعالى ومواردها

وأما العنايات الخاصة له سبحانه فهي تتحقق في حالتين ..

الأولى: حالة الاندفاع من النوازع الفطرية الفضيلة، فإن هذه الحالة قد يكافأ صاحبها من قبل الله عزّ وجل على عمله الفاضل بما يناسبها.

الثانية: حالة المعرفة بالله جلّ جلاله والإذعان به، فإن ذلك يوجب ولاية الله تعالى لصاحبه في الحياة بعد إذعانه بهذه الولاية وعدم تنكره لها، ويكون مقدار ولايته سبحانه على كل امرئ بحسب حظه من معرفته، وإذعانه وتصديقه برسالته ويقينه بها ومطاوعته لها، فمن آمن به وعرف حق إحسانه وخضع لولايته كان عونه في دروب الحياة من حيث يحتسب أو لا يحتسب، فما كان من الخير صلاحاً له في عاجله عجّل له به، وما كان منه أنفع لآجله ذخره له، ومن جهله أو نسيه أو كره ولايته أو ترك مسألته أوكله إلى نفسه، ولم يتول من أمره ما يكرهه أو لا يعتقد به، ومن آمن به ولكنّه عصى بعض أوامره وأطاع بعضاً تولاه حسب درجة تقبله واستساغته، وذلك قول الله سبحانه وتعالى[1] في محكم كتابه: ﴿**نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾، و[2]: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**﴾، و[3]: ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾.

---

(١) الحشر:١٩.

(٢) محمد:١١.

(٣) الأعراف:١٩٦.

فعليكم بمعرفة الله سبحانه والإذعان له والتصديق بما أنبأ به والاستماع لمواعظه، وليكن مثل أحدكم تجاهه سبحانه مثل الابن العاقل المستمع لنصائح أبيه العارف بسنن الحياة والبصير بها، ولا يكونن كالابن الجاهل أو المشاكس الذي لا ينتفع بدلالة، ولا يرعوي عن ضلالة، ولا يصغي إلى نصح، ولا ينفذ فيه وعظ. فانتفعوا رحمكم الله بولاية الله لتسيروا على بركته فإنه خير هادٍ ودليل.

هذا، وينبغي هاهنا بيان أمور على سبيل التذكرة ..

التذكير بمعانٍ في شأن ولاية الله سبحانه لعباده وسننها

(التذكرة ١): في ما يوجب ولاية الله سبحانه لأمر الإنسان.

إن من أراد أن يتولى الله أمره فليتصف بخصال ..

(الأولى): أن ينظر إليه تعالى نظر المرء إلى وليه المشفق الناصح، الذي لا سبيل له إلى غيره، فيسعى إلى طاعته ويتجنب معصيته، ويحافظ على الرجاء به، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام[1]: ((وألجئ نفسك في الأمور كلها إلى إلهك فإنك تلجئها إلى كهف حريز، ومانع عزيز. وأخلص في المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان، وأكثر الاستخارة ..))، ولا ينبغي للمرء أن ييأس من معروفه ولطفه وإن اتفق له بعض الابتلاء، فإن الله سبحانه لم يخلق هذه الحياة للدعة والراحة والعيش الهنيء، بل خلقها للامتحان والابتلاء، لكنه لا يحرم من تولاّه، على أنه تبارك وتعالى ربما أوكل المرء إلى نفسه أحياناً تأديباً له وعقوبة على بعض عمله.

(الثانية): أن يكثر ذكره وتمجيده والإقرار بنعمه شكراً له، فإن الشكر سبب لمزيد من رعايته، استجابة لتقديره وإذعانه وتواضعه، كما إن الذّكر يورث الرضا والصبر ويزيد من طاقة الإنسان وتحمّله للشدائد، كما قال سبحانه[2]: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

---

(١) نهج البلاغة ج:٣ ص:٣٩-٤٠.

(٢) طه:١٣٠.

وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾، وقال[1]: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾**.

(الثالثة): أن يكثر من استخارة الله عزّ وجل في أموره بمعنى طلب الخير منه تعالى حتى يتولاه برعايته وتدبيره. وأن يكثر السؤال منه في كل خير من خيرات الدنيا والآخرة، حتى وإن لم يجد جواباً عاجلاً فإن الله تبارك وتعالى قد وعد بإجابته، لكنه قد يختبر إيمان عبده بالتأخير، أو يقدّر له خيراً مما دعا له في الدنيا والآخرة، وهو لا يخلف الميعاد، وإن بركات الدعاء للمرء لا تحصى[2].

---

(١) المزمل:١-٦.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف أهل الذكر: ((لكلّ باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة يسألون من لا تضيق لديه المنادح ولا يخيب عليه الراغبون)). (نهج البلاغة ج:٢ ص:٢١٣).

وقال عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: ((واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيرك بالإنابة ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة. بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشرا، وفتح لك باب المتاب. فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطاء غيره من زيادة الاعمار وصحة الأبدان وسعة الأرزاق. ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته. فلا يقنطنك إبطاء إجابته فإن العطية على قدر النية. وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل. وربما سألت الشئ فلا تؤتاه وأوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا، أو صرف عنك لما هو خير لك. فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته. فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله. فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له)). (نهج البلاغة ج:٣ ص:٤٧ -٤٨).

(الرابعة): أن يحسن الظن بالله سبحانه، فإن حسن الظن به عزّ وجل ينم عن التفاته إلى مواضع نعمه عليه وتقديره لها وعن تنبهه لحاجته وفقره إليه سبحانه وعدم جدوى أحد من خلقه له من دونه، فإن المرء إذا وجد من غيره إحساناً سابقاً له أو كان مضطراً إليه لا يجد سبيلاً سواه وهو يعرفه بالمعاني الحميدة أحسن ظنه به. وفي الحديث الصحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال[١]: ((وجدنا في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ـ وهو على منبره ـ: والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له، وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه، وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم، بيده الخيرات، يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه)).

وفي حديث معتبر آخر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال[٢]: ((أحسن الظن بالله، فإن الله عزّ وجل يقول: أنا عند ظن عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً)).

(الخامسة): أن يتوكل عليه في أمور دنياه وآخرته، بأن يثق أنه إذا راعى الله سبحانه والقيم الفاضلة التي فطره عليها وجعلها دستور حياته في أيّ موقف له لم ينتج له إلا خيراً في الدنيا والآخرة، ولئن منع بعض النعم في عاجله كان ذلك لما هو خير منه في الآجل قال سبحانه[٣]: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾،

ويُستحب للمرء أن يصلي ركعتين قبل الاستخارة، ففي الصحيح عن عمرو بن حريث قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((صلّ ركعتَين واستخر الله، فوالله ما استخار الله مسلم إلاّ خار له البتة)). (الكافي ج:٣ ص:٤٧٠).

(١) الكافي ج:٢ ص:٧١-٧٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٧٢.

(٣) آل عمران:١٢٢، وآيات أخرى.

وقال عز من قائل[١]: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وقال[٢]: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾، وقال[٣]: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال[٤]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

وقد ورد في الحديث المعتضد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال[٥]: ((من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً، من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية))، ثم قال: ((أتلوتَ كتاب الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟)).

(السادسة): أن يستيقن بقدر الله سبحانه ويرضى بقضائه، وقدر الله تعالى هو ما خط من الابتلاء والنعمة للمرء مما لا يخطأه حسب اقتضاء سننه سبحانه في هذه الحياة التي لا تغيير ولا تبديل فيها. وأما القضاء فهو ما لم يقدر قدراً محتوماً ولكنه مما أذن فيه سبحانه تفريعاً على متغيرات الحياة ومقتضيات أفعال الإنسان وأعماله الاختيارية.

وقد ورد في الثناء على اليقين بالقدر والرضا بالقضاء شيء كثير..

فمما ورد قوله سبحانه[٦]: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقوله[٧]: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

---

(١) آل عمران:١٥٩.

(٢) النساء:٨١.

(٣) الزمر:٣٨.

(٤) الطلاق:٣.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٦٥.

(٦) التوبة:٥١.

(٧) الحديد:٢٢-٢٣.

وقد جاء في دعاء مروي عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام[1]: ((اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وخِر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت)).

وفي دعاء الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجادية في الاستخارة[2]: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاقْضِ لِي بِالْخِيَرَةِ وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ الاخْتِيَارِ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى الرِّضَا بِمَا قَضَيْتَ لَنَا وَالتَّسْلِيمِ لِمَا حَكَمْتَ فَأَزِحْ عَنَّا رَيْبَ الارْتِيَابِ، وَأَيِّدْنَا بِيَقِينِ الْمُخْلِصِينَ. وَلا تَسُمْنَا عَجْزَ الْمَعْرِفَةِ عَمَّا تَخَيَّرْتَ فَنَغْمِطَ قَدْرَكَ، وَنَكْرَهَ مَوْضِعَ رِضَاكَ، وَنَجْنَحَ إِلَى الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ، وَأَقْرَبُ إِلَى ضِدِّ الْعَافِيَةِ، حَبِّبْ إِلَيْنَا مَا نَكْرَهُ مِنْ قَضَائِكَ، وَسَهِّلْ عَلَيْنَا مَا نَسْتَصْعِبُ مِنْ حُكْمِكَ وَأَلْهِمْنَا الانْقِيَادَ لِمَا أَوْرَدْتَ عَلَيْنَا مِنْ مَشِيَّتِكَ حَتَّى لا نُحِبَّ تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، وَلا تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ، وَلا نَكْرَهَ مَا أَحْبَبْتَ، وَلا نَتَخَيَّرَ مَا كَرِهْتَ. وَاخْتِمْ لَنَا بِالَّتِي هِيَ أَحْمَدُ عَاقِبَةً، وَأَكْرَمُ مَصِيراً، إِنَّكَ تُفِيدُ الْكَرِيمَةَ، وَتُعْطِي الْجَسِيمَةَ، وَتَفْعَلُ مَا تُرِيدُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)).

وعن أبي جعفر عليه السلام[3] أنه قال: ((مضى أبي علي بن الحسين عليهما السلام إلى مشهد أمير المؤمنين علي (صلوات الله عليه)، فوقف عليه ثم بكى وقال: السلام عليك يا أمين الله في أرضه .. اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك ..)).

وعن علي بن الحسين عليهما السلام[4] قال: ((الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله في ما قضى عليه في ما أحب أو كره لم يقض الله

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ج:٢ ص:٧٨.

(٢) الصحيفة السجادية ص:١٥٤ـ١٥٦ (من دعائه عليه السلام في الاستخارة).

(٣) مصباح المتهجد ص:٧٣٨.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٦٠.

عزّ وجل له في ما أحب أو كره إلا ما هو خير له)).

وفي حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام[١] قال: ((أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عزّ وجل من عرف الله عزّ وجل، ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره، ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله أجره)).

وفي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[٢] قال: ((كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الضار النافع هو الله عزّ وجل)).

وجاء عنه عليه السلام أيضاً في حديث صحيح آخر[٣] قال: ((عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عزّ وجل له قضاء إلا كان خيراً له وإن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له)).

فهذه معانٍ توجب ولاية الله سبحانه للإنسان، وكلما كانت هذه المعاني في المرء أكثر كانت ولاية الله جلّ جلاله لأموره أشد وأعلى.

(التذكرة ٢): في استجابة الله سبحانه للإنسان في ما توجه به إليه.

اعلم ـ سددك الله تعالى ـ أن الله سبحانه وتعالى فضلاً عن كونه واضع سنن الحياة ومبدعها فإنه يملك التصرف بالأشياء من خلال بواطنها غير المشهودة للإنسان إلى حيث شاء، فبيده ناصيتها وأزمتها، يعلم أسرارها ويملك خزائنها، لا يصدر شيء إلا بعلمه، ولن يتحقق أمر إلا بإذنه.

وقد دلت على هذا المعنى شواهد الفطرة ودلائل الحياة، فقد تضمنت في فطرة الإنسان ـ كما يؤكده تاريخ حياته ـ التوجه إلى ما وراء الغيب في مواطن الضعف وعوارض الحاجة، ووجد استجابة من السماء في حالات الاستغاثة

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٥٨.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٢.

والالتجاء إليه سبحانه، أو الاستغفار والشكر، كما وجد عذابه وعقوبته في حالات من الكفران الشديد والعناد المتعمد، وأكد ذلك تبليغ الرسالات الإلهية كما قال عزّ من قائل[١]: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال[٢]: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، وقال[٣]: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال[٤]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فليرغب امرؤ في عطاء الله سبحانه وعنايته في هذه الحياة، في ما يرجوه من السعادة فيها وفي ما بعدها، فما أقبل أحد على غني مثله ولا توجه إلى مقتدر سواه، إليه يرجع غنى كل غني، ومنه تستمد قدرة كل قادر، له الأمر كله، وله خزائن السماوات والأرض وجنودها.

(التذكرة ٣): في كون استجابته سبحانه في هذه الحياة على وَفقِ مقاديره فيها.

على أنه ينبغي الالتفات إلى أن الله سبحانه وتعالى حيث خلق هذه الحياة لتكون دار ابتلاء واختبار، فقد اقتضت حكمته أن يحافظ على هيمنة السنن المشهودة للحياة، فهو يستجيب لعباده عموماً من حيث لا يحتسبون بما لا ينقض نظم الحياة، إلا في حالات أعلن فيها عن تصرفه من خلال المعجزات الواضحة والخوارق البينة، نظير ما صدر منه في مقام إثبات حقانية رسله، أو ما يتفق من إكرام بعض أوليائه كمريم ابنة عمران عليها السلام.

---

(١) إبراهيم:٧.

(٢) نوح:١٠-١٢.

(٣) النمل:٦٢.

(٤) الأعراف:٩٦.

(التذكرة ٤): في عموم استجابة الله سبحانه لعباده.

هذا ولا تظنن أن استجابة الله سبحانه وتعالى لطلب عباده تنحصر بأهل الهداية الثابتين عليها، وإن كان ذلك أكثر في حقهم، بل قد يستجيب لأي عبد توجه إليه، دلالة على ذاته، وكرماً من فضله، أو فتنة لعباده وامتحاناً، كما قال عزَّ وجل[1]: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾، فلا يضلنَّ أحد بمثله عن سبيل الهداية، ولا يزعمنَّ أنه أمن الفتنة وسلِم من الضلَّة. وإنما يعرف سبيل الهداية بموافقته مع أصول العقل والفطرة، وتشهد عليه الخوارق المعلنة والمعجزات البيّنة.

(التذكرة ٥): في توقف استجابته تعالى للنعم الاجتماعية على سؤال المجتمع إياه.

وليعلم الناس أن استجابته تعالى لطلب النعم الاجتماعية تتوقف على السؤال الجمعي والطاعة الجمعية له سبحانه، ومن ثم كان من آداب صلاة الاستسقاء عند الجدب هو توجه عامة الناس إلى الصحراء وسؤالهم نزول المطر، كما إن الانتهاكات الاجتماعية توجب نزول البلاء على المجتمع كله، كما قال عزَّ وجل[3]: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾، وقال[4]: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾، وقال[5]: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

---

(١) العنكبوت:٦٥.

(٢) التوبة:٧٥-٧٦.

(٣) الأنفال:٢٥.

(٤) فاطر:١٠.

(٥) الأعراف:٩٦.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[1]: ((وايم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلّام للعبيد. ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد)).

(التذكرة ٦): في لزوم تمسك المرء بالأسباب التي جعلها الله سبحانه للأشياء.

ولا يغيبن عنك أن ما سبق من ولاية الله سبحانه لعبده ولزوم توكله عليه وحسن ظنه به لا يقتضي أن يترك المرء التمسك بالأسباب التي جعلها تعالى للأشياء، فإن ذلك جهل بمواضع الأمور، فإنه تبارك وتعالى هو الذي خلق هذه الأسباب وجعلها وصلة إلى آثارها، وبنى عليها هذه النشأة الدنيا، فلا بد للمرء أن يتوصل في مقاصده الصحيحة الدنيوية والأخروية إلى ما جعله الله تعالى من أسبابها بمقدار جهده، من غير نقض للقيم الفاضلة، ثم يتكل في ما يتفق له عليه سبحانه.

وقد حكي[2] أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أرسل ناقتي وأتوكل أو أعقلها وأتوكل؟ قال: ((أعقِلها وتوكّل)).

وعلى ذلك جرت سُنّة الله سبحانه مع عباده الصالحين ـ حيث أمرهم بتبليغ الرسالة والاجتهاد فيها ووعدهم بالنصر والغلبة، ولم يلغ في حقهم التمسك بالأسباب ـ من القتال والاحتجاج والاختفاء وسائر وجوه التدبير، حتى إذا أعوزهم ذلك كله أدركتهم العناية الإلهية متممةً لهم ما جهدوا فيه، حتى حقق نصره وأظهر رسوله، وفي ما أخبر به الله تعالى من سيرته مع نبيه الخاتم صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء من قبل في القرآن الكريم ما يكفي دلالة على ذلك.

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:٩٨-٩٩.

(٢) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار للطبرسي ص:٥٥١، وروى نحوه جمع من أصحاب السنن وغيرها كالترمذي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم وابن أبي الدنيا وابن حبان كما في كشف الخفاء للعجلوني ج:١ ص:١٤٤.

ومما يندرج في هذا الباب استيفاء المرء في تشخيصه لما هو الصواب في أفعاله وأقواله لما يدركه العقل، من خلال ما مكنه الله سبحانه من أدواته من التأمل والتفكير والتتبع والاستقراء والمشورة والانتصاف من النفس وغيرها، ويسأل الله تعالى أن يوقع في قلبه ما يشاء ويختار له ما هو خير له، ولو اعتمد على الاستخارة بدلاً عن التعقل والمشورة فقد تمسك بالتوكل قبل بذل الجهد في السبب، فإن لم يجد استجابة لطلبه فلا يلومن إلا نفسه.

وعليه فإن على المرء أن يتوسل في جميع غاياته المشروعة والصحيحة إلى ما جعله الله سبحانه وتعالى من الأسباب، بلا فرق بين أموره الدنيوية من قبيل الرزق والعافية والزواج والمكانة، أو أموره الأخروية من البصيرة الثاقبة والأعمال الصالحة والدرجات العالية والتوبة النصوح وغيرها، ثم يتوكل على الله سبحانه في أن يكتب له ما هو خيره ورضاه، ويحسن الظن به في تقدير المصلحة له فيها في حاضرها وعواقبها كما عهد إنعامه عليه قبل معرفته له، وإحسانه إليه قبل إقراره به، وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ وقال[2]: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾.

(التذكرة ٧): في التحذير من المبالغة في الاعتماد على الأسباب وترك التوكل.

لكن عليك أن لا تبالغ في الاعتماد على الأسباب فتترك التوكل، حيث تتمسك بها بتوهم أنك قد ضمنت الغاية واستغنيت عن الاستعانة بمعونتها، بل واظب على التوكل عليه والاستخارة منه سبحانه في الأمور كلها، إذ لا يقين نوعاً بأداء الأسباب، وإنما هو ظن أو رجاء، ولله سبحانه في الأمور مخارج ومداخل لا تهتدي إليها عقول عباده، كما هو ظاهر لمن لجأ إليه واستعان به في شدائده.

---

(١) الزمر:٣٦.

(٢) الطلاق:٣.

وتتأكد الحاجة إلى التوكل في جوامع أمور الحياة وأصولها، ومهمات الحوادث وشدائدها، وحالات العمل بالوظيفة حيث تطرأ الوسوسة المثبطة للمرء عنها، فإن الشيطان يخوّف المرء من تبعاتها، ويجنّبه عن أدائها كما قال تعالى[١]: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾. نسأل الله أن يتولانا جميعاً بفضله ورحمته، إنه أرحم الراحمين.

□

---

(١) البقرة:٢٦٨.

خاتمة فيها ذكرى

هذه هي أصول سنن الحياة في ظاهرها وباطنها وحاضرها ومستقبلها، يجب على كل امرئ الاطلاع عليها، فلا تزكية إلا بمراعاتها، ولا سعادة إلا باستثمار خيراتها وبركاتها، فلينظر امرؤ ماذا هو فاعل لنفسه وممهد لغده، ولا يغتر بظاهر هذه الحياة ولينفذ ببصيرته إلى باطنها وأسرارها.

ومهما شككت في شيء فلا تشك في ما تضمنته الرسالة الإلهية من حقائق ثلاث أكدتها تأكيداً ..

أولاها: أن الحقائق التي هي وراء هذه الحياة من وجود الله سبحانه وتعالى والملائكة والشياطين هي بُعد من أبعاد هذه الحياة للإنسان، وليست معزولة عنه، بل هي مؤثرة فيها، فهذه الحياة وما وراءها مشهد واحد، ولكن مثل هذه الحياة بالنسبة إلى ما وراءها مثل رأس الجبل الخارج من البحر بالنسبة إلى أصله وقواعده، فمن لم يعط التأمل حقه لم يلتفت من الجبل إلا إلى رأسه، ومن تأمل ملياً عرف أن معظم الجبل وقواعده كامن تحت الماء.

فالمغيبات أحد جهات وجود الإنسان وتكوينه النفسي في هذه الحياة من خلال الشعور بالحاجة إلى السماء ـ المشير إلى الله سبحانه وتعالى ـ ومن خلال الإيحاءات النفسية ـ لا سيما الغامضة منها كالمنامات الصادقة ـ ومن ثم لن تكتمل جهات وجود الإنسان إلا بالالتفات إلى هذا الشعور والاستجابة لمقتضاه، وتشخيص مصدر الإيحاءات التي يشعر بها، ومن جهة غموض هذا الجانب في وجوده احتاج الإنسان في استبانة هذا الجانب ومزيد وضوحه من إعانة مما وراء الغيب، وكان التوجيه الإلهي من خلال الأنبياء نحو استجابة لهذه الحاجة، فكان ذلك من مصاديق تناسق هذا الكون في جهاته، من حيث وجود استجابة مناسبة نوعية لكل حاجة.

والحقيقة الأخرى: أن لأعمال الإنسان وتصرفاته في هذه الحياة بعداً وراء

هذه الحياة من ناحيتين: فمن ناحية يكون للعمل ـ من جهة وصفه المعنوي الأخلاقي من حسن وقبح ـ عمقٌ وأثرٌ مسانخٌ معه في الإيجاب والسلب، فالحسنة تثمر الحسنة والسيئة لا تثمر إلا السيئة.

ومن ناحية أخرى يكتسب عمل الإنسان بالنظر إلى الاستحقاقات الأخلاقية لما وراء هذه الحياة ـ نعني وجود الله سبحانه وتعالى الخالق للإنسان والمنعم له ـ صفة أخلاقية من حيث مراعاة حقوقه سبحانه، وأولها معرفته والإذعان له ثم الأدب معه والخضوع له، أو عدم مراعاتها إهمالاً أو جهلاً. على أن الواقع أن الإنسان لن يبلغ الأدب اللائق مع الله سبحانه وتعالى في حال، وإنما حال الإنسان معه تبارك وتعالى ـ وله المثل الأعلى ـ كطفل في مشهد رجل عظيم، فهو مهما كان نبهاً لن يستطيع إيفاء لياقات المشهد، إلا أنه سبحانه يعذر المرء في ما لا يقدر عليه.

والحقيقة الثالثة: أن الدنيا ليست دار استقرار وإنعام، وإنما هي وعاء للتعلم والتربية، حتى يتعرف كل على حقيقة نفسه والمشهد الذي حوله وعاقبته، ويبني نفسه من خلال التربية على القيم الفاضلة، فيستقر كيانه على وَفقِ ما بناه، ويستنتج ثمار ذلك في ما بعد هذه الحياة، وذلك أمر لا ترديد فيه، فليجمع المرء أمره وليجدّ جدّه، وليكن ناصحاً لنفسه، آخذاً بأسباب العقل والبصيرة، والله المستعان.

هذا ما تيسر ذكره في أصل معرفة سنن السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة.

ثناء ومسألة

إلهي ما أدق هذه الحياة وسننها، وما أروع صنعك في نظمها وترتيبها، وما أوضحها في الدلالة عليك والتعريف بك. اللهم وكما عرفتنا بهذه السنن فيسّر لنا استثمارها لبلوغ السعادة، وجنبنا الانزلاق بها إلى مهاوي الشقاء. وارزقنا اللهم الكفاف في هذه الحياة بكدنا، وصُنّا به عن المهانة والاحتياج إلى غيرنا، وأقنعنا

اللهم بما ترزقنا حتى لا تكون الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، واسلك بنا سبل الفضائل والقيم النبيلة حتى ترتاح بذلك ضمائرنا، وتطمئن به قلوبنا، ونسعد به في دنيانا وآخرتنا، وهب لنا من العلم والمعرفة بالأسباب التي جعلتها، والقواعد التي وضعتها ما يعيننا على الأخذ بها في المسير إليك واللقاء بك، وتولّنا يا رب من وراء ذلك في أمورنا كلها حتى تكون أنت الكافي لنا والقائم على مصلحتنا، فإنه لا غنى لنا عن رعايتك وولايتك في أمر صغيراً كان أم كبيراً، ويسيراً كان أم خطيراً، فكم من أمر يسير أوكلتنا فيه إلى أنفسنا فأخفقنا في إنجازه، وكم من أمر خطير أسعفتنا فيه فتيسّر لنا إبرامه، فحطنا يا رب بحياطتك وانظرنا بعين رعايتك، وكن لنا كما كنت للصالحين من عبادك، فإن لم نقدّم يا رب مثل ما قدّموا فقد قدّمنا الإيمان بك، والإذعان برسلك والإقرار بالتقصير في جنبك، والأمل في ما أمّلتنا فيه من عفوك وإعانتك، وأنت يا رب كما عرفناك وعرّفتنا بنفسك ولي المؤمنين وأرحم الراحمين وغوث المضطرين وغنى المفتقرين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

الأصل الرابع
معرفة النفس والسنن النفسية

ويتضمن هذا الأصل بعد بيان أهميته في التزكية مجموعة من الحقائق، وهي كما يأتي ..

(١) حقائق عامة، وهي ..

١ ـ الإنسان كائن عاقل مخلد.

٢ ـ تألف وجود الإنسان من روح وجسد.

٣ ـ غاية كل إنسان هي السعادة وتجنب الشقاء.

٤ ـ ذكر ما أودعه سبحانه في الإنسان من إمكانات وصفات.

(٢) حقائق أربع عن صفة الاختيار، وهي ..

١ ـ في بيان تزويد الإنسان (الاختيار).

٢ ـ اعتبار الرشد في الاختيار المستوجب لتحميل المسؤولية.

٣ ـ في مراتب الاختيار.

٤ ـ اختيار الإنسان إنما هو على نظام الابتلاء والامتحان.

(٣) حقائق ست في شأن صفة العلم، وهي ..

١ ـ تيسير العلم للإنسان وأهميته له.

٢ ـ قيمة العلم.

٣ ـ الآفات الإدراكية التي تصيب العلم والتحذير منها.

٤ ـ الآفات الأخلاقية التي تصيب العلم وبيان علاقة العلم بالأخلاق.

٥ ـ المناشئ العلمية للاختلال في الإدراكات الإنسانية.

٦ ـ اقتران الاختلال الإدراكي بالشبهة، ونظام المحكم والمتشابه وقانون الموازنة.

٧ ـ الاختلالات الإدراكية الحسية والتحذير من الوقوع فيها.

٨ ـ الخطأ في الإدراكات الحسية في مقام استذكارها.

(٤) حول صفة الحكمة، وفيها وصف هذه الصفة وبيان الحاجة إلى تنميتها.

(٥) حقيقتان عن الضمير الأخلاقي، وهما ..

١ ـ أهمية الضمير الأخلاقي وامتيازه ودوره في وجود الإنسان.

٢ ـ تشخيص قضاء الضمير والتحذير من اشتباهه بمزاجيات أخرى.

(٦) حقائق عن المشاعر الإنسانية، وهي ..

١ ـ ما منح الإنسان من المشاعر وأقسامها وتطورها وتربيتها.

٢ ـ أنواع المشاعر النفسية ودورها في حياة الإنسان.

٣ ـ المشاعر الاعتيادية نعمة للإنسان وابتلاء في هذه الحياة.

٤ ـ صراع الشهوات وجنود العقل والضمير.

٥ ـ الاختلال في إدراك الدوافع النفسية.

٦ ـ من المشاعر الفطرية ما يهدي إلى الله سبحانه والدار الآخرة.

٧ ـ وجوه الاختلال في المشاعر الإنسانية وأنواع المشاعر المختلة.

٨ ـ وصف جامع لعمق النفس الإنسانية وطبقاتها.

٩ ـ التأثير المتبادل بين الإدراكات والدوافع النفسية.

(٦) حقائق عن التخيلات الإنسانية، وهي ..

١ ـ وصف قوة التخيل وأنواع التخيلات وأدوارها الحميدة والذميمة.

٢ ـ آفات التخيلات الإنسانية ووجوه اختلالها.

٣ ـ أنواع التخيلات المختلّة والذميمة.

(٧) حقائق عن القابليات الغامضة في النفس الإنسانية، وهي ..

١ ـ استقبال الإنسان للإيحاءات الخارجية.

٢ ـ أخطاء تقع في الإيحاءات الروحية.

٣ ـ وصف التمثلات الروحية ومدى اعتبارها.

٤ ـ التأثيرات الغامضة (خوارق العادات).

(٨) حقائق أخرى عامة، وهي ..

١ ـ وصف جامع لما يؤثّر في النفس الإنسانية.

٢ ـ وصف التأثيرات الجسمية في الإدراكات والمشاعر النفسية.

٣ ـ اختلاف مكونات الشخصية الفردية.

أهمية هذا الأصل

لا شك في أن معرفة الإنسان بنفسه هي إحدى أصول تزكية النفس المهمة، لأن تزكية النفس عملية تربوية لها، ومن المعلوم أن التربية تتوقف على معرفة المربّي بطباع من يريد تربيته وتكوينه النفسي.

ومن ثم تجد في الرسائل الإلهية إلى خلقه حديثاً كثيراً عما يتصل بذلك، حيث يذكر سبحانه العقل والقلب والنفس والشهوات والأوهام وغيرها، كما تحفل النصوص التربوية والآثار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بكثير من الموضوعات التي تندرج في ذلك.

وربّما لا يخلو امرؤ عن انطباعات إجمالية وخبرات ارتكازية متعلقة بذلك، وقد تضمنت الدراسات الحديثة في علم النفس الكثير من الأبحاث في هذا الشأن.

والمهم أنه لا بد من اطلاع كل إنسان على جملة من الأصول الكلية في هذا الموضوع، ليكون على بصيرة في مقام تربيته لنفسه وتزكيته إياها، فربٌ أمر إذا أجمل على الإنسان تذرع بإجماله لإيقاع نفسه في الشبهة، فإذا تلقاه كتأصيل واضح ارتفعت عنه الشبهة وزال العذر، وتمت عليه الحجة بذلك.

ولنذكر ذلك في ضمن حقائق ..

الحقائق التي يجب معرفتها
(حقائق عامة)

١ ـ الإنسان كائن عاقل مخلد

(الحقيقة ١): أن الإنسان بحسب الرسالات الإلهية كائن عاقل مخلد، خلقه الله سبحانه وتعالى لمعرفته والوقوف على عظمته، بدأ خلقه جنيناً نفخ فيه الروح، بعد استعداده لاستقباله، فجعله بذلك مكوناً من روح وجسد، ولا يفنى بفساد جسده بالممات بل تبقى روحه موجودة تنتظر إعادته في نشأة أخرى.

وله بذلك نشأتان ..

نشأة في هذه الحياة الدنيا تنتهي بمماته، وهي دار اختبار وابتلاء له، أعطي فيه الاختيار وخيّر بين دربين، درب الإذعان لله سبحانه والقيم الفاضلة، ودرب التنكر له والانغماس في الرغبات.

وسوف ينشأ نشأة أخرى لمحاسبته وجزائه على وَفقِ اختياره، ولو ضاع عليه الطريق بغير تقصير حسب له ذلك.

وهذا المعنى من أصول العقائد الدينية ومرتكزاتها كما مرّ ذكر ذلك.

وعليه فإنه يتعيّن على الإنسان العاقل أن ينظّم حياته الدنيا هذه على وَفقِ هذه الحقيقة ومقتضياتها، ولا ينظّمها على ما يناسب فناءه بالممات، فهو ..

أولاً: كائن مُخلّد.

وثانياً: مخلوق لمعرفة الله سبحانه وتعالى.

وثالثاً: أن هذه النشأة نشأة امتحانية له، يكتسب بها درجته في التوفيق مع غاية خلقه وقيم وجوده، وسوف يحاسب وتحدّد درجته، فيكون حظّه من السعادة والشقاء أبداً بحسب تلك الدرجة.

٢ ـ تألف وجود الإنسان من روح وجسد

(الحقيقة ٢): أن الإنسان في هذه النشأة الدنيا يتكوّن من جزئين: نفس وجسد، فالنفس هي الجزء الذي يكون محلاً للأفعال والانفعالات الإدراكية والشعورية، مثل التفكير والتذكر والهم والفرح ونحو ذلك، كما إن الجسد هو الجزء الذي يكون محلاً للفعل والانفعالات الفيزيائية والكيميائية.

وتنطبق النفس على وَفقِ ما تقدم في الحقيقة الأولى على الروح، الذي مرَّ أن وجوده ليس مرهوناً بالجسد، إلا أنهما في هذه النشأة ممتزجان متفاعلان كشيء واحد، كما يتمثل في أمور وظواهر عديدة معروفة[1]..

ويتفرع على فهم العلاقة الوثيقة بينهما إدراك العلاقة بين الأخلاق وأسلوب التربية الأخلاقية وبين الصحة الجسدية، ولهذه العلاقة مناح عديدة ..

أولاً: إن الأساليب التفصيلية التربوية تختلف في حالات الصحة الجسدية كمّاً وكيفاً عنها في حال المرض، رعاية في كل حالة لمقتضاها وقابلية المرء عندها.

وثانياً: إن من أصول التربية الأخلاقية الدينية رعاية الصحة الجسدية، فلا ينبغي ممارسة الأساليب التي تضر بالصحة الجسدية، بل حفظ هذه الصحة من مبادئ الأسلوب السليم للتربية، كما يتمثل ذلك في عدة وصايا شرعية ..

---

(١) من جملتها أن أي نشاط نفسي لا ينفك عن نشاط جسمي حتى مثل التفكير والتذكر والقراءة، فضلاً عن اللذة والألم والهم ونحوها، كما رصد ذلك بنحو واضح ومحسوس في العصر الحاضر، وأغلب النشاطات الجسمية لا تنفك عن نشاطات نفسية تكون مبادئ لها أو من نتائجها.

والصحة الجسمية مؤثرة في الصحة النفسية، كما تؤثر الصحة النفسية بدورها في الصحة الجسمية، وذلك بديهة معروفة في علم الطب قديماً وحديثاً.

ومن أجلى مظاهر هذا الارتباط إفرازات عدد من الغدد في الجسم، فإنها تفرز مواد ذات فاعلية شديدة، ونقصانها أو زيادتها تؤدي إلى تغيرات نفسية وجسمية عديدة، مثل القلق وسرعة الاهتياج وبطء التفكير والتذكر وسرعة التعب وفقدان الشهية.

كما إن هناك علاقة بين الصفات النفسية والجينات البشرية حيث لوحظ أن جينات معينة تتضمن الاستعداد لأمراض نفسية، وسيأتي مزيد توضيح لذلك في (الحقيقة ٣٧) حول تأثير الأمور الجسمية في الأمور النفسية.

أ ـ إنه لا يجوز للمرء أن يضر بنفسه ضرراً بليغاً كنقص عضو مثلاً، حتى لو كان ذلك لتخفيف شهواته والتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى.

كما لا يصح من المرء إهمال المرض إهمالاً تترتب عليه آثار خطيرة ابتعاداً عن الاهتمام المذموم بالنفس، بل عليه أن يهتم برفعه كي يكون قادراً على العبادة وسائر الأعمال الفاضلة، فإن ذلك أوفق بالفطرة السليمة والدين الحنيف.

ب ـ إن العبادات والوظائف الشرعية مرفوعة عن الإنسان في حال المرض أو خوف حدوثه، فلا تصح مبالغة المرء في العمل عليها في حال أثرها السلبي على الصحة، وإن اعتقد أنه يضحي في ذلك، وإنما يختبر تضحية كل امرئ في ما يُكلّف به، فلا محل للتكلف من غير تكليف، ورب إفراط في جهة أدى إلى تفريط في جهة أولى منها.

وقد رخّص الله سبحانه وتعالى للمريض في ترك ما يضر به إحساناً إليه، فلا ينبغي ردّ هذا الإحسان، وقد ورد عن النبي ﷺ[1]: ((إن الله تبارك وتعالى تصدق على مرضى أمتي ومسافريها بالإفطار في شهر رمضان، أيحب أحدكم إذا تصدق بصدقة أن ترد عليه؟)).

وثالثاً: إنه لا يصح للمرء أن يكابر نفسه على الحاجات الجسدية العضوية التي فطر الإنسان عليها بما يخرج عن حدّ الاعتدال في حق أمثاله على وَفقِ طاقاته، مثل الأكل والشرب والزواج والتحرك والراحة بعد التعب وغيرها.

فإن أصل هذه الحاجات مما لا غنى للمرء عنها بالنظر إلى نشأته في هذه الحياة، فمن سعى إلى الاستغناء عنها أو المشاحة فيها مع نفسه فوق طاقتها كان ذلك مظنة للخروج من الاعتدال والإفراط في نفس الجهة التي كابر نفسه فيها مستقبلاً أو التفريط في جهات أخرى، فإن الانتفاع بالطيّبات مما لا محذور فيه شرعاً مع مراعاة مقتضيات تربية النفس وتزكيتها، وليس ترك الطيّبات في حدّ ذاته غاية فاضلة، وإنما هو وسيلة لتربية النفس وإصلاحها حتى لا ينهمك فيها،

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج:٢ ص:١٤٠. ولاحظ الكافي ج:٤ ص:١٢٧.

ويتأتّى له استثمار طاقاته وإمكاناته في الأعمال الفاضلة.

وقد قال الله تعالى[1]: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

ورابعاً: إن العوارض السلبية الأخلاقية متى احتمل المرء نشأتها عن اختلال جسمي بالأصالة كان عليه أن لا يقتصر على اتخاذ الأساليب التربوية في معالجتها، بل يتوسل إلى ما يسّره الله تعالى من المعالجات الدوائية المناسبة، فإن الله سبحانه جعل لكل شيء سبباً، ولن تتعالج المسببات إلا من جهة أسبابها.

إلا أن على المرء أن لا يُبتلى بالإفراط أو الوسوسة في شأن صحته ويزيد في التحوط لها أكثر مما تقتضيه، فيولّد ذلك تشبثاً في النفس بهذه الحياة وتقوى مشاعر الأنانية فيها، وقد يصير ذلك وسيلة للإفراط في متابعة الشهوات بذريعة مراعاة الصحة.

هذا، وقد مرَّ أن الله تبارك وتعالى جعل في المرض فوائد تربوية للنفس الإنسانية، كما أوجب بها محو الذنوب والسيئات، ومن ثم قد يكون مرض الإنسان لطفاً به وصلاحاً له.

ولكنه بحسب تعاليم الدين الموافقة مع فطرة الإنسان ليس مما ينبغي أن يسعى إليه الإنسان، بل مما ينبغي أن يصبر عليه إذا قدّره الله سبحانه له، فإن لكل شيء حكمه في دستور الحياة وسننها[2].

٣ ـ غاية كل إنسان هي السعادة وتجنب الشقاء

(الحقيقة ٣): أن الغاية العامة لكل إنسان في هذه الحياة هي تجنب الشقاء

---

(١) الأعراف:٣١ـ٣٢.

(٢) سيأتي مزيد تفصيل في علاقة الجسد والنفس في (الحقيقة ٣٧).

وتحصيل السعادة على ما سبق ذكره[1]، وهذه الغاية ضاربة في كيان الإنسان وذاته لا يمكن له التخلص منها ولا الغض عنها، بل هي عمق كل أفعاله والمنظور بكل تصرفاته، وجزء لا يتجزأ من ذاته وكيانه، لأن الله جلّ جلاله أودع في الإنسان طباعاً متعددة لا ينفك عنها تدفع به إلى تحصيل مقتضياتها، فهو يشعر بالراحة إذا استجاب لها، وبالألم والشقاء إن مُنِعَها، فالإنسان يلتذ بالطيّبات، ويأنس بالأصدقاء والأقران، ويسعد بالمشاهد الرائعة، ويتألم بالشوكة تصيبه، ويتأذى بالنار تحرقه، ويضيق ذرعاً بالمكاره.

ولو تأملت جميع أفعال الإنسان وتصرفاته تجد أنه يتحرك فيها إلى تحصيل مقتضيات طبعه، إلا أن الناس يختلفون في تشخيص ما يحقق السعادة لهم، وقد يختلفون في ما يقدمونه من جهاتها عند التزاحم بينها.

هذا، ومهما تساهل الإنسان في أمر السعادة فلا يجوز له أن يتساهل في خصلتين ..

الأولى: تحصيل السعادة الكبرى ـ الناظرة إلى ما وراء هذه الحياة ـ لنفسه، ومن ثم كان عليه أن يتأمل هذا العالم بنحو عام ومجموع مسيرته هو بنحو خاص تأملاً جامعاً، يشخص ويختار الوجه الأجمع لسعادته، استمداداً مما جعله الله في باطنه من قوة التفكير والتعقل، ومن نداء الوجدان والضمير، واستعانة بما جاء في رسائل الله تعالى إليه مما خاطب به خلقه في بيان ما أبهم منه، وتوضيح ما خفي عنه.

ولا يصح له أن يستغرق في لحظته التي يعيشها ومحسوساته التي يشهدها، ولا يعتبر بما وراءها، فإن ذلك نقطة في بحر وقطرة من غمر أو دون ذلك، ومن فعله فقد ضيّع على نفسه فرصة لا مجال لاسترجاعها، وخُلّف منها حسرة لا يتأتّى له رفعها، فليتحرَّ كل امرئ سبيله ويتزوّد بما يحتاج إليه، وأفضل الزاد البصيرة والتقوى.

ولزوم تحصيل هذه السعادة مما تحكم به الفطرة السليمة لكل إنسان لعظم

---

(١) وقد جرى التذكير بها لكونها حلقة متوسطة بين ما قبلها وما بعدها.

أمرها وجليل خطرها، مضافاً إلى ما فيه من أداء حق الله سبحانه الخالق للإنسان والمنعم عليه، وهو أعظم حق في الحياة.

ومن ثم جاء إيجاب الاعتقاد بأصول الدين ـ التي تتضمن الحقائق الكبرى في الحياة ـ موافقاً مع الفطرة الإنسانية.

الثانية: ضمان الإنسان للسعادة الصغرى (الدنيوية) لبني نوعه من جهة نفسه، بمعنى مراعاة القوانين الاجتماعية التي هي ضامنة لسعادة المجتمع، فإنها تمثل استحقاقات الآخرين عليه، ولا يحق له التفريط بها حتى لو أراد التفريط بسعادته هو، بل على المرء أن يساعد غيره على السعادة الكبرى بما تيسّر، على ما تقضي به الفطرة والشرع، وإليه ترجع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ـ ذكر ما أودعه سبحانه في الإنسان من إمكانات وصفات

(الحقيقة ٤): أن الله سبحانه وتعالى أودع في النفس البشرية طاقات وإمكانات عظيمة متعددة إن انتفع بها المرء في موضعها بلغ مبلغاً عالياً، كما يدلك عليه ملاحظة المبرزين في الأخلاق والسلوك والعلم والأدب وغيرها، وإن استعملها في غير موضعها هبط هبوطاً كبيراً، كما يدلك عليه ملاحظة حال المجرمين والعتاة، فإن هؤلاء لم يكونوا في صغرهم إلا أطفالاً وديعين يتمتعون من الفطرة بمثل ما يتمتع به سائر الأطفال ولكنهم توجهوا بطاقاتهم إلى مناحي الشر والشقاء.

ولا يبعد عن ذلك حال سائر الناس فيما لو وجدوا ما يحفز لديهم تلك الطاقات في خير أو شر، فإن الناس أمثال أو أشباه، وإنما بعضهم مرآة لبعض آخر.

وأصول الإمكانات التي متع بها الإنسان سبعة: الإرادة والعلم والحكمة والضمير والمشاعر والتخيلات وما وراءها من القابليات والطاقات الغامضة ..

١ ـ أما الإرادة فهي مقود الحياة، بها يسوق الإنسان حياته إلى الجهة التي يريدها من خير أو شر وسعادة أو شقاء، وبموجبها كان الإنسان مختاراً في

أعماله، يحمل مسؤوليتها ويستوجب الثناء أو العتاب عليها.

٢ ـ وأما العلم فهو ضياء الإنسان في الحياة، به يبصر الإنسان ما حوله ويستدل في تصرفاته وأفعاله، ولولاه لكان مثله مثل الأعمى لا يدري أين يسير ولا يبصر أين يذهب، فإن انتفع به في سلوك سبيل الخير أفاده، وإن سلك به مسالك الشر أضرّ به.

٣ ـ وأما الحكمة والعقل فهي قائد الخير في نفس الإنسان، فهي تقوده إلى جهة سعادته، وذلك أن حقيقة الحكمة هي نزوع المرء لما هو صلاحه وسعادته، بالنظر إلى مجموع عوامل السعادة والشقاء عاجلها وآجلها، وهي أمر زائد على العلم بمعنى الإدراك، فقد يعرف المرء أن شيئاً ما كالتدخين يضره ولكنه لا يعبأ بذلك فهو عالم غير حكيم، فإن الحكمة علم يتحكم بالإنسان ويؤثر في عمله، كما إن العقل ما منع المرء من السلوك الذي يضرّ به، فهما يقترنان بالعلم تارة ويفارقانه أخرى.

٤ ـ وأما الضمير فهو الحاوي لقوانين حياة الإنسان في تعامله مع الآخرين، فهو صوت الفضائل في داخله ونزوع إلى ما هو مقتضى النظم الاجتماعي الحكيم في مقام التعامل مع غيره، بل هو بحسب الأبعاد المعنوية للحياة ضمان لسعادة كل امرئ في نفسه، لتطابق مصلحة النوع والشخص بحسبها.

٥ ـ وأما المشاعر ـ من دوافع وانفعالات ـ فهي وسائل وآلات للمرء من أجل الوصول إلى غاياته ـ خيراً كانت أو شراً ـ حيث تحفز النفس بثورانها وتدفعها بهيجانها.

٦ ـ وأما التخيلات ـ كالصور التي يبدعها والقصص التي يُنشؤها والأحلام التي يحلم بها ـ فهي وسيلة لإثارة المشاعر فتكون خادمة لها سائرة في جهتها ـ من خير أو شرّ ـ.

٧ ـ وأما ما عدا هذه الأمور من الطاقات والقابليات الغامضة فهي على قسمين ..

الأول: ما هو من قبيل قابليته للتأثر بالأشياء، وهو استعداده لاستقبال

الإيحاءات الخارجية.

الثاني: ما هو من قبيل قابليته للتأثير في سائر الأشياء، وهو تأثيره فيها من خلال النشاطات الذهنية والنفسية البحتة إما بالإيحاء إليها أو بوجه من التصرف فيها.

ويوجد في كلا القسمين ما هو خير وتسديد وما هو فتنة وابتلاء وما هو شر وتنغيص على تفصيل يأتي.

فهذه أصول الإمكانات التي زوّد الله الإنسان بها، وأودعها في نفسه حسب الغاية التي خلقه من أجلها.

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى جعل إمكانيّات الإنسان وطاقاته على ضربين ..

(أ) ـ ضرب يدعو إلى الخير والصلاح للإنسان مما يؤدي إلى سعادته، وذلك هو روح الحكمة والضمير الإنساني.

(ب) ـ وضرب هو ذو استعمال مزدوج في الخير والشر، كما في قوة الإرادة والعلم والمشاعر والخيالات، فإن استعملها في جهة الاستكمال بها سعد بها، وإن استعملها في جهة الشر والرذيلة شقي بها، وإن تركها من غير انتفاع فهو كمن ترك رأس ماله حتى يفسد، فهو يخسره بزواله من دون الانتفاع المقدر له، فلينظر المرء ماذا هو فاعل بها.

وسنذكر بعض الإيضاح لكل واحد منها بما ينفع في زيادة التبصر ورفع الشبهة وبالله التوفيق.

حقائق عن صفة الاختيار

٥/ أ ـ في بيان تزويد الإنسان (الاختيار)

(الحقيقة ٥): أن إحدى الصفات التي منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان ـ كما مرّ ـ هي الإرادة والاختيار، حتى لا ينزلق في أثر النوازع النفسية الفطرية المكتسبة بالتربية والبيئة وسائر العوامل المؤثرة إلى موقف محدد قهراً، بل يكون قادراً على ضبط نفسه من الانسياق وراء بعضها، فكان بذلك مختاراً في أفعاله إن شاء فعلها وإن شاء تركها.

وحقيقة الإرادة التي هي مظهر اختيارية العمل للإنسان قرار نفسي يتخذه الإنسان بالإقدام أو الإحجام بعد ملاحظة النوازع النفسية والعقلية، فيتعقبه الفعل والترك.

وربما ذهب وهم بعض الباحثين حول الإنسان إلى أن الإنسان مجبر على أفعاله، بدعوى أنه ينزلق إليها من خلال أقوى نوازعه المغروسة فيه سلفاً، فلا خيار له.

ولكن هذا الوهم مخالف مع قضاء الوجدان، لأن كل امرئ يجد نفسه مخيراً في أفعاله، لا سيما عندما يتحير ويخيّر نفسه بين خيارات متعددة يتردد في اختيار أحدها ثم يقدم على اختياره، كما إنه يخالف الضمير، نظراً إلى أن المرء يحمّل مسؤولية أعماله بالمدح والثناء أو اللوم والعتاب، ولو كان الإنسان مسيّراً في أعماله لم يتحمل مسؤوليتها.

ومن ذلك يظهر أن هذه الحقيقة من جملة المسائل المهمة المؤثرة في تربية النفس، لما يترتب عليها من تحميل الإنسان مسؤولية أعماله في هذه الحياة، فإنه لا مسؤولية للمرء إلا إذا كان مختاراً.

وهي من جملة الأمور الثابتة في الرسالات الإلهية إلى الخلق، وعلى أساسها حمّلت الإنسان مسؤولية أعماله وتوابعها، ونزّهت الباري تبارك وتعالى

عن الظلم، قال سبحانه[١]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تعملون بَصِيرٌ﴾، وقال[٢]: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۞ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِه قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وقال[٣]: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾، وقال[٤]: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾، وقال[٥]: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وقال[٦]: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

ولا ينافي ذلك ما تضمنته النصوص الشريفة من أن مشيئة الإنسان لن تكون إلا في حال مشيئة الله، وأنه سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، فإن ذلك إنما هو بلحاظ أن كل ما يتحقق من الإنسان فهو بإذنه سبحانه ومدده، ولو شاء أن يرفع إمداده عن الإنسان في لحظة لكان عدماً، ولو رفع إمداده إياه بالقدرة على ما عزم عليه لكان عاجزاً، ولكنه تعالى يأذن له استكمالاً لما سنّه في هذه الحياة، فلا حول ولا قوة إلا به.

ولا ينافي ذلك أيضاً ما دلّ على نفي الفعل عن العبد وانتسابه إلى الله سبحانه في مثل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾، فإنه تنبيه على أن الله تبارك وتعالى هو الذي مهّد لهذا الخير الذي وقع وهدى إليه وهيّأ أسبابه والعوامل المساعدة عليه، وهي مئات العوامل المختلفة وما كانت خطوة الإنسان بالقياس إليها إلا شيئاً قليلاً ونزراً لا يكاد يذكر في جنب فعله وإنعامه.

كما لا ينافي إذنه سبحانه وتعالى في عمل المرء تكويناً أن يكره عمله هذا

---

(١) فصلت:٤٠.

(٢) الزمر:١٤-١٥.

(٣) المزمل:١٩.

(٤) الكهف:٢٩.

(٥) آل عمران:١٨٢.

(٦) الأحقاف:١٩.

كراهة تشريعية، فإن الأب قد يأذن في ما يكرهه لابنه لكراهته التدخل في أمره وتحميلاً له مسؤولية تصرفاته، لحكمة تربوية يراها في ذلك، وكذلك الله سبحانه وتعالى ـ وله المثل الأعلى ـ فلا مانع من أن يكره فعل العبد ولكن إكراهه على الفعل أشد كراهة عنده، حفظاً لسننه وإتماماً لما عزم عليه.

وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أجاب سائلاً سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ فقال[1]ـ بعد كلام طويل ـ: ((ويحك لعلك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يُرسل الأنبياء لعباً، ولم يُنزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾)).

وهذا المعنى هو مفاد ما جاء عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[2]من أنه ((لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين)).

وقد أخطأ في هذا الموضع أقوام لم يتفطنوا فيه لقضاء الفطرة ولا لمفاد النصوص، فاشتبه عليهم الأمر بين مُفْرط ومُفَرِّط، وسَلِم أهل بيت النبوة (صلوات الله عليهم أجمعين) عن مثل هذه الزلة بتسديده سبحانه، على ما عرف عنهم في عامة المواضيع العقائدية المتشابهة.

وعلى ضوء هذه الحقيقة على المرء أن يتحمّل مسؤوليته عن أفعاله، وليحذر من أن يوهم نفسه بالاعتذار عنها أو الاستدلال على صوابها بأنها قضاء من الله سبحانه وقدر، فإن ذلك من شبهات النفس وتسويلات الشيطان، لأن ذلك لا يسلب اختيار الإنسان، ولا يرفع عنه استحقاق المدح والثناء أو اللّوم والعقاب.

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٧.

(٢) لاحظ الكافي ج:١ ص:١٦٠.

وقد حكى الله سبحانه وتعالى مثل هذا القول عن المشركين قال عزّ من قائل[1]: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ۞ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقد سبق أن بواعث الخير عنده على ضربين ..

أ ـ بواعث عقلية من خلال ما جعله تعالى في تكوينه من النزوع إلى الحكمة والتعقل، فيدعوه ذلك إلى تأمل عواقب الأمور وتبعاتها، والموازنة بين منافعها ومضارها، ليختار آكدها وأدومها.

ب ـ وبواعث أخلاقية تدعوه إلى الفضائل كمراعاة الحقوق وكفّ الأذى عن الآخرين وقولة الصدق والدفاع عن المظلومين، وتزجره عن الظلم وانتهاك الحقوق وقول الكذب، والتقاعس عن إعانة الآخرين في المواضع الحرجة.

كما إن نوازع الشرّ في قبالها هي شهوات الإنسان وانفعالاته ولكن لا بلحاظ أصلها لأنها جزء من كيانه وذاته، بل بالنظر إلى إلحاحها على المبالغة في الاستجابة لها والانسياق وراءها، في مقابل البواعث الأخلاقية من القيم الفاضلة والحقوق اللازمة، أو في مقابل البواعث العقلية كإصرارها على النفس في تقديم منفعة قصيرة عاجلة على مضرة طويلة آجلة، كمن يستجيب لرغبته في خطيئة تستتبع العقاب، بحيث لو نظر المرء إلى الأمر من بدايته بعين البصيرة أو استقبل من أمره ما استدبره لعدّها مغامرة مذمومة ومخاطرة غير حكيمة، لا يَجبرُ عاجلُ لذتها نكدَ تبعتها ومرارة عقابها.

وينبغي أن يحذر المرء من أن ينسب ما يترتب على اختياره إلى الله سبحانه بما ينفي مسؤوليته عنه ضمناً ويجعله قدراً محتوماً كما يتفق من بعض الناس لغرض تبرئة أنفسهم عن نتائج أفعالهم، فإن ذلك يكاد يكون من قبيل الافتراء على الله سبحانه وتعالى، فإنه لا فرق في حرمة الافتراء وعظيم خطره بين الافتراء

---

(١) الأنعام:١٤٨ـ١٤٩.

في التشريع أو التكوين، وما يصدق في موارد اختيار الإنسان هو أنه سبحانه قد علمه وأذن فيه وكان ذلك من قضائه تفريعاً على اختيار الإنسان، وليس قدراً محتوماً عليه سلفاً.

ومن هذا القبيل أن ينسب إليه سبحانه ما يترتب على اختيار المجتمع من العواقب الاجتماعية السلبية بما يقتضي سلب مسؤولية المجتمع عنها، فإن ذلك خطأ فاحش موجب لتخدير المجتمع والإبقاء على الظواهر الخاطئة فيه، بل تفاقمها تدريجاً بما يمنع من إصلاحها، على أن ذلك خلاف البداهة والنص، يقول الله سبحانه[1]: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾.

ويشبه مثل هذا الخطأ أن ينسب تقدير الأشياء المقننة إلى الله سبحانه حتى كأنها خوارق للعادة، وهذا خطأ فاحش يؤدي إلى إعاقة تطور العلم وتقدمه، وهو غفلة عن أن الله سبحانه وتعالى بنى هذا الكون على نظام الأسباب والمسببات، وعلى الإنسان أن يكتشف الأنظمة الرابطة بينها حتى يتمكن من الانتفاع الأكمل بما يختزنه الكون من طاقات وإمكانات وقابليات، وليس الاستناد إلى الله سبحانه بديلاً عن الحاجة إلى الأسباب. نعم العنايات الإلهية الخاصة بعباده كثيرة إلا أن كثيراً منها يتحقق من خلال التحكم بالأسباب من مداخل لا يحتسبها الإنسان.

كما ينبغي أن يحذر المرء من المبالغة في أمر اختياره ويغفل عن أن جوامع الأمور بيده سبحانه، فينظر إلى ما حققه على أنه إنجازه هو بما ينطوي على الغفلة عما هيأه سبحانه من الأسباب كما حكاه تعالى[2] عن قارون: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ فإن ذلك جهل وقلة أدب ونكران جميل.

ولو التفت المرء إلى تلك الأسباب جيداً لوجد لنفسه دوراً ضئيلاً، إذ كل مقومات المشهد وعناصره في الإنسان وما حوله من صنعه تعالى حتى اختياره والعوامل المساعدة على خياره، وقد صدق تعالى إذ قال: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ**

---

(١) الرعد:١١.

(٢) القصص:٧٨.

وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

ومن الجهل أيضاً أن ينظر إلى ما يعزم عليه من مقاصده وأهدافه على أنها حاصلة لا محالة من غير أن يستثني فيها بمشيئة الله سبحانه، فإن في ذلك غفلة من المرء عن نقاط ضعفه وجوانب قدرته تعالى وهو مع ذلك قلة أدب تجاهه، وليعتبر بما حكاه سبحانه عن أصحاب جنة (بستان) إذ قال[1]: ﴿**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾.

٦/ ب ـ اعتبار الرشد في الاختيار المستوجب لتحميل المسؤولية

(الحقيقة ٦): أن اختيارية العمل للإنسان ـ التي تستوجب تحميله لمسؤولية العمل ويستتبع استحقاقه جزاءً عقابياً ـ لا تكفي فيها ممارسته للعمل عن إرادة طوعية، بل تتوقف على اقترانها بدرجة مقبولة من الرشد والوعي الكافي لتحميل المرء مسؤولية عمله.

وهذا المعنى مما تقضي به الفطرة الإنسانية ووردت به الرسائل الإلهية في رفع التكليف الإلزامي ـ المستتبع للعقوبة على المخالفة ـ عن الصبي حتى البلوغ، ووجِّه التكليف غير الإلزامي إلى الصبي المميز حيث يكون على درجة من الرشد تؤهله لذلك، كما وُجِّه التكليف الإلزامي إلى ولي الصبي بتأهيله من خلال الوسائل التربوية لرعاية القيم الفطرية والشرعية الإلزامية وخاصة المهمة والحساسة منها.

٧/ ج ـ في مراتب الاختيار

(الحقيقة ٧): أن لاختيار الإنسان مراتب بحسب درجة المغريات والمحفزات للفعل والترك، فكلما كانت هذه المغريات أقوى في جهة من غير معارضة بمثلها في الجانب الآخر كانت مقاومة الإنسان لها أصعب واختياره في

---

(١) القلم:١٧-٢٠.

عدم الاستجابة لها أضعف، ودرجة العزيمة التي يحتاج إلى إعمالها في التخلص منها أشد.

وربما يكون اختيار الإنسان تجاه ممارسة ما في حينها ضعيفاً بمعنى أنه يصعب عليه التخلص من مغرياتها، ولكن يكون اختياره تجاهها من قبل ليس بهذه المثابة حيث كان يقدر على إعداد نفسه إعداداً يهون عليه مغرياتها وبواعثها.

بل قد يتفق أن تكون اختيارية تصرف ما من قبيل الاختيار البعيد دون القريب، بمعنى أن المرء لو توجه توجهاً منهجياً صحيحاً ونظّم نفسه على أساس حكيم لم يصدر منه هذا التصرف الخاطئ في حينه، ولكنه لو ترك ذلك لم يتأتّ له أن يملك نفسه حينما يواجه حدثاً معيناً، فيحصل منه ردّ فعل خاطئ بغير اختيار منه، وقد علم بالوجدان أن أكثر تصرفات الإنسان إنما تصدر منه من مرتكزاته النفسية (في مرحلة اللاوعي) بنحو سريع دون مكث وتأمل. وهذا من العوامل الموجبة لحاجة الإنسان إلى التربية الأخلاقية بتهذيب دوافعه وانفعالاته حتى يسيطر عليها في حينها.

هذا، ويلاحظ أن من الممكن للإنسان تقوية صفة الإرادة والاختيار في نفسه بمعنى قدرته على مقاومة ضغوط نفسية أكبر بسهولة، أو التخفيف من ضغطها الداخلي على الإنسان بالتربية والممارسة، وذلك بأن يعوِّد نفسه على أن لا يستجيب لكل ضغوطها ومشاعرها مهما قويت لكي يسيطر على ممارساته تجاهها.

٨/ د ـ اختيار الإنسان إنما هو على نظام الابتلاء والامتحان

(الحقيقة ٨): أن الله سبحانه خلق الإنسان مختاراً ولكن على وَفقِ نظام الابتلاء، بمعنى أنه أودع فيه بواعث الخير ونوازع الشر، وعرّضه في هذه الحياة لحوادث محفزة لكل منهما، ليختار الطريق الذي يرغب فيه، قال تعالى[1]: ﴿إِنَّا

---

(١) الكهف:٧.

جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾، وقال[١]: **﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾**، وقال[٢]: **﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾**، وقال[٣]: **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ۞ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾**، وقال[٤]: **﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**.

وذكر سبحانه وتعالى ما جعله في هذه الحياة مما يفتن الإنسان فقال[٥]: **﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾**، وقال[٦]: **﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾**، وقال[٧]: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾**.

هذا، وكأن الإنسان ـ وكذلك الجن ـ امتاز بهذه الخصيصة بين الكائنات، فإن الملائكة الذين يشتركون مع الإنس والجن في الإدراك لا توجد لديهم مبادئ لارتكاب الشر، فهم لا يتعرضون لامتحان الإنسان في هذه الحياة.

ولا يخفى أن هذا الامتحان الذي امتحن الإنسان به امتحان خطير حتى ورد أن الناجي من الناس قليل كما قال تعالى[٨]: **﴿وقليل من عبادي**

---

(١) البقرة:١٥٥.

(٢) الأحزاب:١١.

(٣) الفجر:١٥-١٦.

(٤) آل عمران:١٨٦.

(٥) الأنبياء:٣٥.

(٦) الأنفال:٢٨.

(٧) الحج:١١.

(٨) سبأ:١٣.

الشَّكُورُ﴾، وقال[١]: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**﴾، بل كأن الضلال هو القاعدة في الإنسان والنجاة بمثابة الاستثناء من القاعدة، كما قال سبحانه[٢]: ﴿**وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، وهذا ما يقتضي مزيد حذر الإنسان واهتمامه بالتوقّي عن الخطيئة.

وقد كان امتحان الإنسان في هذه الحياة في مستويين ..

أ ـ الامتحان الفكري باختبار مدى تقبله وإذعانه بمضامين الدين وأحكامه وتصديقه بها.

ب ـ الامتحان العملي باختبار مدى طاعته لأحكام الله سبحانه من أوامر ونواهي.

والامتحان الفكري أكثر خطورة من العملي، لأن المخفق فيه مضيّع لأصل بوصلة الحياة ووجهة سيرها.

وجماع وصف الامتحان الإلهي للإنسان في المستوى الفكري كلمات ثلاث، وهي: (أن من أراد الحق لم يعجز عن الوصول إليه)، و(من أراد الباطل لم يعجز عن أن يجد شبهة في مقابل الحق)، و(من تكاسل عن تحقيق الحق وجد ما يرضي نفسه به).

وهذا هو نظام (المحكم والمتشابه) الذي أشير إليه في القرآن الكريم والنصوص الشريفة، قال تعالى[٣]: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾، وقال أمير

---

(١) ص:٢٤.

(٢) العصر:١ـ٣.

(٣) آل عمران:٧.

المؤمنين عليه السلام[١]: ((وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق. فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى. وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى)).

والمقصود بذلك ـ والله أعلم ـ أن بعض الآيات الإلهية محكمة لا ريب في حقانّيتها وبعضها متشابهة يخفى الوجه فيها، فمن سلم من الهوى وتعامل مع الأمور بموضوعية آمن بالمحكم لوضوح حقانيته، وبالمتشابه لأنه ليس محكماً في نفي حقانيّة الرسالة، ومن كان متمسكاً بهوى يمنعه من الإيمان تشبّث بالمتشابه ليصنع منه شبهة في قبال المحكم ويثير الترديد فيه والريبة في صدقه وحقانيّته.

وربما أشير إلى ذلك بالأمانة التي ذكر الله[٢]تعالى أن الإنسان حملها وتحملها من بين سائر الكائنات في السماوات والأرضين، فإن شقي بها كان ظلوماً جهولاً، وإن سعد بها كان عبداً شكوراً.

ولعل هذا مما يعطي قيمة بالغة لصلاح الإنسان، لأن صلاحه يتوقف على مقاومة إغراءات الشر في داخله ونوازع الجهالة في نفسه، فيجازى فيما لو أتى بالحسنة بعشر أمثالها، ويتولاه إذا أقبل عليه حتى يرتقي باستقامته وثباته إلى أعلى عليين، وليس في ذلك ما يكون حُجّة له فيما لو تعمد الخطيئة واختار الخيار الخاطئ بعد أن بُلّغ بالأمور وخُيّر في القرار.

على أن الله سبحانه وتعالى بحكمته ولطفه خفّف عنه، بالنظر إلى ما جعله فيه من مبادئ الشر بأن فتح له باب الرجوع والتوبة وسهّل له سبيل الإنابة، وضاعف له الحسنات وجعلها ماحية للسيئات، إذ قال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾، وقال[٤]: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾،

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٨٩ـ٩٠.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ سورة الأحزاب:٧٢.

(٣) سورة الزمر:٥٣.

(٤) سورة هود:١١٤.

وقال[١]: ﴿مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.

ومن لطيف صنع الله بالإنسان تخفيفاً عليه أمور استفاضت بها الآثار الشريفة ..

ففي الأثر الصحيح عن زرارة بن أعين[٢] عن أحدهما عليهما السلام ـ يعني أبا جعفر الباقر وأبا عبد الله الصادق عليهما السلام ـ قال: ((إن الله تبارك وتعالى جعل لآدم في ذريته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له بها عشراً، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه [سيئة]، ومن همّ بها وعملها كتبت عليه سيئة)).

وفي أثر صحيح آخر أيضاً عن معاوية بن وهب[٣] قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة))، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ((ينسي ملَكَيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)).

وفي أثر ثالث صحيح الإسناد أيضاً عن أبي عبيدة[٤] قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ((إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها)).

وفي أثر رابع صحيح أيضاً عن محمد بن مسلم[٥] عن أبي جعفر عليه السلام في حديث في من أذنب ثم تاب. قال: قلت: فإنه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب

---

(١) سورة الفرقان:٧٠.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٤٢٨.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٤٣٠ـ٤٣١.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٤٣٥.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٤٣٤.

ويستغفر [الله]. فقال: ((كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله)).

وفي أثر خامس صحيح أيضاً عن عبد الصمد بن بشير[1] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينساه من ساعته))، حتى ورد في الأثر أن العبد إذا تقدم إلى الله سبحانه بخطوة تقدم إليه تعالى بعشر خطوات، فعن أبي ذر الغفاري[2] قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: ((من تقرّب إلى الله عزّ وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرّب إلى الله ذراعاً تقرّب إليه باعاً، ومن أقبل على الله عزّ وجل ماشياً أقبل الله عليه مهرولاً، والله أعلى وأجلُّ، والله أعلى وأجلُّ، والله أعلى وأجلُّ)).

فانظر ـ سددك الله ـ إلى عظيم فضل الله تعالى على عباده وإعانته لهم على ما امتحنهم فيه وابتلاهم به، والله ذو فضل عظيم.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٤٢٧.

(٢) مسند أحمد ج:٥ ص:١٥٥.

حقائق في شأن صفة العلم

٩/ أ ـ تيسير العلم للإنسان وأهميته له

(الحقيقة ٩): في تيسير العلم ودوره في حياة الإنسان.

إن الله سبحانه وتعالى يسّر للإنسان تحصيل العلم، وهو على نوعين ..

١ ـ العلم الحسي الذي يشترك فيه مع كائنات أخرى.

٢ ـ ما وراءه من العمليات الذهنية، من الاستطلاع والتأمل والتفكير والاستنباط.

وجعل تيسّر العلم للإنسان من خلال أمرين ..

١ ـ ما جُهّز به من أدوات تحصيل العلم من القوى الحسية والذهنية والنفسية.

٢ ـ ما فُطِر عليه من حب الاطّلاع والاستطلاع، حيث يلاحظ بالوجدان أن من جملة الدوافع الفطرية للإنسان هو الاستطلاع عن الأشياء والبحث عنها، ومحاولة استكشافها وتحليلها وتفسيرها وتفكيك رموزها. وهذه الرغبة خادمة لسائر الرغبات، لأنها تتحرك في اتجاه جميع الحاجات الجسدية والنفسية والمعنوية.

هذا، وإيداع هذه الصفة في الإنسان مما يساعده على ما أريد بخلقه ..

أولاً: من معرفته لله سبحانه وتعالى، ووقوفه على مظاهر قدرته وعظمته وتأمله في آياته، واستكشافه لما حجب عنه من أبعاد هذا الكون ولو بمعونة دلالته سبحانه وتعالى.

وثانياً: من كونه خليفة له سبحانه في أرضه، يدبّر أمورها وينتفع بخيراتها، ويستكشف كوامنها ويتعرّف على سُنَنِها وقوانينها، ويتعامل فيها مع بني نوعه ومع سائر الكائنات فيها.

١٠/ ب ـ قيمة العلم

(الحقيقة ١٠): واعلم أن قيمة العلم إنما هي بقيمة ما يكون عوناً عليه، ومن ثم يكون أكثر علوم الإنسان قيمة أحد علمين ..

(الأول): العلم بالحقائق الكبرى في الحياة ـ التي تتمثل في أصول الدين ـ لأنها تمثل الحق الأكبر فيها، وهو حق الله سبحانه وتعالى، ويضمن للإنسان السعادة الكبرى.

ولكن القيمة العالية لهذا العلم مشروطة بأن ينتفع بهذا العلم ويتبصر به حتى يبرمج حياته وتصرفاته على أساس مقتضيات تلك الحقائق، ولا يكون ذلك تفلسفاً محضاً وتأملاً بحتاً لمجرد الاستطلاع والاستئناس والبحث لذاته، أو لغايات أخرى، فإن من كانت غايته بالبحث عن تلك الحقائق مثل هذه الأمور لم يترتب عليه إلا ما قصده منها، ولا ينتفع بعظيم آثار المعرفة بها ونتائجها.

(والآخر): العلم بالفضائل وسبل تحقيقها والعمل بها.

والوجه في أهميته ..

أولاً: أنه جزء من البرنامج الذي يلزمه تحقيقه بموجب تبصّره بالحقائق الكبرى وعملاً بمقتضياتها.

وثانياً: أنه سبيل لأداء الحقوق الاجتماعية للآخرين في هذه الحياة، وهي حقوق لا خيار للمرء في أدائها والوفاء بها.

وهذا المعنى هو الوجه في لزوم تعلّم الأحكام الشرعية الممثلة لهذه الحقوق. كما إنه هو الوجه في فضيلة العلوم التي تخدم الناس وتدفع عنهم المعاناة وتسهّل للإنسان أداء وظائفه تجاه الآخرين مثل علم الطب.

ومن العلم ما يكون مذموماً، وهو ما استُخدم لصدّ رسالة العلم التي هي إدراك الواقع مثل ما جعل آلة لتحريف الحقائق، خاصة الكبرى منها، أو لإنكار القيم أو انتهاكها، نظير التجسس على خصوصيات الآخرين، أو الاطلاع على أمور تُفْسِد الأخلاق وتزاحم الانشغال بالوظائف والواجبات.

كما إن من العلم ما يكون لغواً لا فائدة فيه كالمبالغة في الاطلاع على أمور

لا تضرّ ولا تنفع، ولكنّها متلفة للعمر ومضيعة للوقت.

فعلى الإنسان العاقل أن ينظر في ما يتعلمه حتى ينتفع بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليه انتفاعاً لائقاً بهذه الحياة وما وراءها، فإنه إذا جهل ما ينبغي أن يعلمه من الحقائق الكبرى ولم يفقه مؤشراتها ومسيرة الحياة على وفقها كان أضل من الأنعام بالنظر إلى ما متّع به من أدوات المعرفة، كما قال سبحانه(١) عن جمع: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، وقال(٢): ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ﴾.

١١/ ج ـ الآفات الإدراكية التي تصيب العلم والتحذير منها

(الحقيقة ١١): في التذكير بالآفات التي تصيب العلم والإدراكات الإنسانية والتحذير منها.

اعلم أن شأن العلم هو أن يكشف عن الواقع، ويعكس الحقيقة بصفائها، ولكن كثيراً ما يزلّ الإنسان في ما يجعله من قبيل العلم فيكون في حقيقته جهلاً وخطأً، وهذا مما يُعدّ نقيصة له وصفة ذمٍّ فيه، فلا بدّ من تحرّزه منه والتفاته إليه في حال وقوعه لعدم أخذه به وبنائه عليه، ولا يعدّ من الاختلال ما فطرت النفس الإنسانية على الاعتقاد به، نظير ما قيل في اعتقاد الإنسان ببقاء الأشياء ما لم يبلغه ما يوجب الريبة فيه، مثل بقاء البلدان البعيدة على الرّغم من احتمال طروء الزلزلة أو الفيضان عليها، فإن الإنسان يجد من نفسه الإذعان به، وكأنه فطر على ذلك تيسيراً لحياته، إذ لا يسعه التأكد من بقاء الأشياء التي يتعامل معها آناً فآناً، فجُبل على استصحاب(٣) بقائها ما لم يعرض عليه ما يوجب ترديده فيه.

وليعلم أنه لا محيص للإنسان عن الوقوع في الخطأ ولا سيما في إدراكاته

---

(١) الفرقان:٤٤.

(٢) البقرة:١٧١.

(٣) وهذا المقدار يغاير الاستصحاب المطروح في علم الأصول على المشهور، إذ المفروض فيه وجود ما يثير الشك في بقاء الشيء دون ما يحصل فيه الاطمئنان ببقائه.

العاجلة ـ وهي التي لم يُمضِ على التأمل والتحري فيها وقتاً كافياً ـ ككثير من تقديراته اليومية في ما يتعلق بنفسه ومن يتعلق به، من وجود أو عدم، وصلاح أو فساد، وقدرة أو عجز، ورغبة أو كراهة وما إلى ذلك، من جهة قصور أدواته الإدراكية عن الاستحضار الجامع لكل ما يكون دخيلاً في تحصيل إدراك معين بالتأمل المتاح له، إلا أن المهم في ذلك أن يراعي ما يأتي ..

أولاً: أن يكون دائماً بصدد ترشيد إدراكاته والاعتبار من أخطائه كي يزداد تبصراً وعلماً وتجربة واختباراً.

ففي كل خطأ للإنسان عبرتان ..

١ ـ عبرة عامة في أن الإنسان خطّاء، وهذا ما يوجب التفاته إلى أن أغلب مدركاته المتعارفة ليست هي علوماً يقينية بنسبة (١٠٠٪)، وإنما هي اطمئنانات نفسية على أساس احتمالات قوية، ومن ثم يصح القول إن رأي الإنسان عموماً صواب يحتمل الخطأ ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب، وأن اعتماد الإنسان على كثير من مدركاته إنما هو من منطلق توقف حياته على ذلك، وإلا اختلّ نظام حياته وابتلي بالوسواس.

٢ ـ وعبرة خاصة بالالتفات إلى طبيعة خطئه ومنشئه من قصور أو تقصير، فإن في الالتفات إلى ذلك ما يساعد على الصيانة من أمثاله ولو تدريجاً.

وثانياً: أن يخص الأمور المهمة في حياته بمزيد من التحرّي، لأن الخطأ فيها يؤثّر على مسار حياته كلها، وفي مقدمة هذه الأمور الحقائق الكبرى في هذه الحياة ـ من وجود الله سبحانه والدار الآخرة ـ ثم أصول الحقائق المتعلقة بالنفس الإنسانية التي تجعل الإنسان على بصيرة من نفسه.

وليعلم أن الاختلال في إدراكات الإنسان إنما يحصل في أثر الإخلال بشروط المنهج العلمي في البحث والاستدلال لا محالة.

وشروط المنهج العلمي ـ كما هو معروف ـ ثلاثة ..

الأول: تحديد عناصر المشكلة التي يراد حلّها، وذلك على نحو دقيق حتى لا يقع خلط بين الموضوعات المتشابهة والمتلاصقة.

الثاني: إطلاع الباحث على الفروض الواردة في حلّ الإشكال، مما يقتضي التمتع بأفق ذهني مناسب، فإن غياب بعض الاحتمالات عن ذهن الإنسان قد يؤدي إلى إهماله لها في مقام المحاسبة فيوجب الخلل فيها.

الثالث: تحصيل معلومات كافية للبت بالحكم والبناء عليه، فلا يقع المرء في التعميمات الخاطئة وإيجاد ارتباطات مغلوطة.

وكل عمل إدراكي لا يخلو من هذه الخطوات ولو بنحو سريع جداً، ولكنها تتضح في التأملات التفصيلية، كما إن كل خطأ إدراكي ينشأ عن الخلل في إحدى هذه الخطوات، فالسبب فيه إما عدم تحديد موضوع البحث أو عدم تحري الاحتمالات الواردة، أو عدم تحصيل مدارك كافية.

١٢/ د ـ الآفات الأخلاقية التي تصيب العلم وبيان علاقة العلم بالأخلاق

(الحقيقة ١٢): في التذكير بالآفات الأخلاقية التي تصيب العلم ولزوم الحذر منها، وفيه بيان علاقة العلم بالأخلاق، ودور الأخلاق في صيانة العلم.

إن أسباب الخطأ الذي يحصل في إدراكات الإنسان على نوعين ..

الأول: الأسباب العلمية، حيث قد يُخطئ المرء في مقام التفكير العلمي من حيث لا يحتسب، من جهة قصور أدواته الذهنية، إذ ليست أدوات الإنسان لتحصيل العلم أدواتاً مصونة عن الوقوع في الخطأ، بل هي عرضة لذلك.

وهذا النوع من الأخطاء تكون الصيانة عنه بالمقدار الممكن موكولاً إلى العلوم أنفسها ومناهجها، ولا عتب على الخطأ الحاصل حيث يتفق وقوعه ما دام أن السبب علمي بحت، وإن كان ذلك نقصاناً في المخطئ على كلّ حال.

الثاني: الأسباب النفسية الأخلاقية من قبيل الميول والأهواء والملهيات وسائر الطباع الذميمة، فإنها تؤدي إلى وقوع المرء في الخطأ.

وهذا النوع من الأخطاء تكون الصيانة عنه منوطة بالتربية الأخلاقية للنفس حتى تسلم من العيوب التي توجب الوقوع فيها، والخطأ الناتج عن هذه الأسباب خطأ مذموم لا يعفي المرء من استيجاب العتاب والعقاب عليه.

وبهذا الاعتبار يصح القول بأن الضوابط الأخلاقية ـ من خلال تطبيقاتها في حقل العلم ـ هي جزء من المنطق الفكري الذي يعصم المرء عن الخطأ.

وهذا المنطق مما فطر عليه الإنسان بحسب خلقته، بالنظر إلى غرس تلك القيم الأخلاقية في نفسه.

ولا يبعد القول بأن كثيراً من الأخطاء الواقعة في شأن الحقائق الكبرى في الحياة وفي شأن الوظائف الفطرية وتطبيقاتها ناشئة بنحو ما عن عدم تحصيل الأخلاق العالية الدخيلة في صيانة المرء عن الخطأ، كما ربما يُستفاد من الآيات القرآنية الكريمة.

بل الاعتقاد الناشئ عن مثل ذلك ليس من حقيقة العلم في شيء، فإن العلم على وَفقِ معناه لغة وعرفاً هو الهدى والبصيرة، فيقال: (إن فلاناً يمشي بعلم أو بغير علم) فيراد به أن يكون سلوك الإنسان على أساس التبصر والاهتداء، فمن ابتلي في اعتقاده بهوى حرّفه عن جهة الواقع لم يكن اعتقاده علماً، ولا كان سلوكه في سبيل هدى.

وبهذا المعنى استعمل العلم في الآيات القرآنية الشريفة، حيث حثّت على الاعتماد عليه وحذّرت من التعويل على غيره كقوله تعالى[1]: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾، وقوله[2]: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾.

ومن المهم جداً للمرء في هذه الحياة أن يعمل على تخليص علمه ومتبنياته عن الآفات التي تلحقها، لا في الحقائق الكبرى فحسب بل في عامة أقواله وتصرفاته، فإن كلها تتوقف على العلم، فإذا قال المرء قولاً ـ أياً كان مضمونه ـ فقد أخبر عن شيء إخبار من يزعم العلم به، فإن لم يكن قد تحرى الصواب كان ما قاله قولاً بغير علم أو كذباً أو اتهاماً، وإن تصرف تصرفاً فهو مبني على

(١) الزمر:٩.

(٢) الإسراء:٣٦.

علمه بما يسوغ هذا التصرف، فإذا لم يكن قد تحرى في علمه الصواب فأخطأ كان تصرفه واقعاً في غير محله فيكون مذموماً، فكل خطوة للمرء قولاً أو فعلاً تتوقف على العلم، لما فيه من ادعاء العلم مباشرة أو للاستناد فيه إلى العلم والبناء عليه.

فلا بد للمرء أن ينظر في أمر سلامة علومه في كل كبيرة أو صغيرة من الآفات التي يستوجب بها اللّوم والمؤاخذة، خاصة بعد أن علم أن لكل قول وفعل صادر منه ثبتاً وحساباً.

ذكر جملة من الآفات الأخلاقية

والآفات الأخلاقية التي تصيب الإنسان في علومه عديدة ـ يجمعها ضرب من الأنانية المفرطة التي تغطي على تدخل الميول والمشاعر في الأسباب الموضوعية لإنتاج العلم، فترتفع بها من درجة الاحتمال والتوقع إلى درجة العلم واليقين ـ منها ..

١ ـ الأنانية العامة أو قل انحياز الإنسان لنفسه بما يمنعه من الاعتبار بأخطائه وإخفاقاته، وذلك أن المفروض على وَفقِ المنطق العقلي السليم أن يعتبر الإنسان بكل خطأ أو خطيئة صدرت منه، فكل خطأ حتى وإن كان ذا سبب علمي يُنبّه الإنسان على خلل ما في تفكيره، من حيث مستوى اعتماد المرء على نفسه في إدراكها، أو غفلته عن سلوك الطريق الصحيح في استنباطه، أو فقدانه للأدوات اللازمة في تحصيله، فمن أخطأ في أمر خطأً ثم لم يعتبر به كان ذلك ناشئاً من أنانية فيه، وكلما كان الأمر الذي ارتكبه أهم كان عدم الاعتبار به أفحش، ومن ثم ورد في الأثر[1] أن: ((المؤمن .. لا يلسع من جحر مرتين))، فإن ذلك لمكان استنارته بالإيمان حتى يوجب اعتباره بما يتفق له، وقد يعذر المرء في الخطأ في شيء لأول مرة، ولكنه لا يعذر في تكرره بل يكون ملوماً.

٢ ـ الأنانية الخاصة، كما يقع في حال استنكاف المرء عن الاعتراف بخطئه

---

(١) لاحظ الكافي ج:٢ ص:٢٤١.

وذلك حيث يكون المرء قد اتخذ موقفاً أخطأ فيه ثم التفت، فأنف أن يعترف به ويتراجع عن خطئه مستشعراً العزة بالخطأ والإثم فتمسّك به حتى جعله خطيئة، مع أن الاعتراف بالخطأ فضيلة.

ومن هذا القبيل تكبّر المرء عن قبول الحق من غيره فيأنف أن يُعدّ تبعاً له، لا سيما إذا كان المبين للحق واتباعه دونه في المال والجاه، ومن ثم جاء في الأثر[1]:((لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال))، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾، وقال[3]: ﴿**فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ**﴾، وقال[4]: ﴿**فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾، وقال[5]: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾.

٣ ـ الأنانية الجمعية، والمراد بها انحياز المرء لجماعته من قومه وعشيرته وآبائه وحزبه، فيتمسك بما كانوا عليه حقاً كان أو باطلاً، قال سبحانه[6]: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾، وقال[7]: ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ أن اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ**

---

(١) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي (ت ق٦) ص:٥١٧. وفي شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام لابن ميثم البحراني ص:٦٨. وفي كنز العمال ج:١٦ ص:١٩٧.

(٢) الزخرف:٣١.

(٣) القمر:٢٤.

(٤) المؤمنون:٤٧.

(٥) هود:٢٧.

(٦) الزخرف:٢٣-٢٤.

(٧) الأعراف:٢٨-٢٩.

مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

٤ ـ أن تؤثر ميول المرء ومشاعره في انطباعه، فإذا كان (وقوع شيء) موافقاً لميوله واندفاعه زعمه واقعاً وإن لم تكف الشواهد الموضوعية بإثباته، حتى يبرر لنفسه التوصل إلى ما يميل إليه ويندفع نحوه، وقد قال عزّ من قائل[١]: **﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾**.

ويُطلق على هذا النحو من الإدراك ـ الذي يُدرِك فيه المرء الواقع على وَفقِ ما يرغب في أن يكون عليه ـ اسم (التفكير الارتغابي)، ويقابله (التفكير الواقعي) الذي يبذل فيه المرء جهداً في التعرف على الوقائع ثم يقصر نشاطَه العقلي عليه.

وانبعاث التفكير عن الميل والهوى صفة ذميمة سواء كان أصل هذا الميل مشروعاً أو لا، فإن مشروعية الميل أمر وتدخله في مقام التفكير أمر آخر، والثاني مذموم على كل حال، فإنه من القول بغير علم وبصيرة، وقد ورد[٢]أن المتقي لا يحيف على من يبغض ولا يأثم في من يحب، وقد عُدّ[٣]بعض الظن من الإثم.

ويلاحظ أن الميل الموجب لاختلال الإدراك قد يكون من قبيل الرغبات العامة الظاهرة كحب المال والجاه ونحو ذلك، وقد يكون رغبة جسمية خاصة كجوع مستولٍ على الإنسان، أو انفعال خاص كموجة غضب تطرأ عليه فتوجب اختلال إدراكه، وقد يكون رغبات مكبوتة في المرء. ولكل ذلك أمثلة مشهورة.

لذلك يهتم أهل الصلاح بتجريد أنفسهم من رغباتهم ورعاية سلامتهم من الانفعال لا سيما في مقام الفقه والولاية والقضاء، وقد اشتهر في الألسنة عن المحقق الأردبيلي ﷺ أنه عندما أراد أن يبحث مسألة انفعال ماء البئر بملاقاة

---

(١) النساء:٩٤.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٨٩.

(٣) كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾** الحجرات:١٢.

النجاسة ـ وكان المشهور إلى زمانه القول بالانفعال ـ طمر البئر التي كان يعتمد عليها ـ حيث كان أهل النجف في وقته يعتمدون على الآبار في حاجتهم إلى الماء ـ حتى لا تؤثر حاجته الملحة إلى كون ماء البئر معتصماً على رأيه.

كما كان في أهل الورع والقضاة والولاة من يمتنع عن قبول الهدايا من الخصوم وأهل العلاقة بهم وربما غيرهم ممن يكون عرضة للتأثير فيهم، خشية أن يؤثر ذلك في نفوسهم على حدّ الرشوة، وينزلقوا بذلك إلى الحكم بما يخالف العدل والشريعة، وقد جاء في كتاب أمير المؤمنين لعامله على البصرة عثمان بن حنيف ـ عندما بلغه استجابته لمأدبة قوم ـ أنه عاتبه عتاباً شديداً عليه مشيراً إلى الريبة في المآدب التي يدعى إليها الولاة والمسؤولون عن الأموال العامة قال عليه السلام[1]: ((أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه)).

٥ ـ التعجل في إثبات الشيء قبل التأكد اللازم منه، لعدم الصبر على البحث والتأني في الاستنتاج، وقد طبع الإنسان على الاستعجال قال سبحانه وتعالى[2]: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾، وقال[3]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾.

ومن هذا الباب حصول الإدراك من جهة عناية الإنسان بالنفي والإثبات في موضوع لم يستوفِ الاطلاع عليه ولا تحضره معلومات كافية عنه، أو نقل خبر لا يحيط بخصوصياته، فيضطر إلى البتّ بشيء فيه والبناء عليه، فيكون الإدراك مستعجلاً غير مبني على مقوّمات موضوعية.

وهذا من عوامل ترجيح أهل الصلاح والتقوى للسكوت على الكلام،

---

(١) نهج البلاغة ج:٣ ص:٧٠.

(٢) الإسراء:١١.

(٣) الحجرات:٦.

على الرّغم من أن أحدهم ربما لا يكون أقل قدرة من سائر الحضور في الموضوع الذي يطرح في مجلس البحث، ولكنهم يرون أن الكلام التزام بمضمونه وبناء عليه، وليس تلهياً ولعباً، فلا بد من الاستيثاق منه، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام[1]: ((لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه)).

وربما تكلم أحدهم بصيغة غير جازمة مثل: (كأنّ) و(لعلّ) وهذا الأمر أيضاً يمكن أن يكون أحد العوامل الباعثة للتحوط في الفتوى عند بعض الفقهاء، إذ يحتمل أحياناً وجود سبيل لمتابعة البحث بما قد يغيّر نتيجته.

١٣/ هـ ـ المناشئ العلمية للاختلال في الإدراكات الإنسانية

(الحقيقة ١٣): قد عرفت أن الاختلال الواقع في الإدراكات الإنسانية والاختلال في ذلك كله قد يكون على وجه الخطأ، وقد يكون على وجه الخطيئة..

فالخطيئة منه ما كانت ناشئة عن تدخل صفة نفسية ذميمة كالأنانية والأنفة والتكاسل ونحوها، وقد مرّ الحديث عن ذلك.

والخطأ منه ما كان ناشئاً عن قصور من المرء فيه من غير أن تتدخل صفة نفسية ذميمة في إهمال خطوة من الخطوات اللازمة في المنهج العلمي، وهو على ضربين ..

أولهما: ما يكون قدراً للإنسان لا محيص له عنه، فإن الإنسان مهما تعلّم وجاهد فإنه لن يرتقي إلى درجة العصمة من الخطأ في علومه وإدراكاته، عدا من كان مُسدداً من لدن الله سبحانه.

وثانيهما: ما يمكن سلامة المرء منه إذا اتصف بمزيد من الرشد والتأمل والتفكير، كما في الحالات الآتية ..

١، ٢ ـ عدم اعتبار المرء بأخطائه، أو وقوعه في الوسوسة في أثر ملاحظتها نظير نفي قيمة إدراكات الإنسان كلها لملاحظة خطئه أحياناً.

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:١١.

٣ ـ عدم صبر الإنسان على البحث والتأكد، فإن روح الصبر والمثابرة على البحث تساعد رشد الإدراك ونحوه، فمن لم تكن لديه مهجة الصبر على البحث والمتابعة وقع في الخطأ.

٤ ـ عدم انتفاع الإنسان بمشورة غيره، خلوداً منه إلى ما يخطر في ذهنه ويفضي إليه فكره، وهذا يقلل مستوى الرشد في الإنسان.

٥ ـ خلود الإنسان إلى الانطباعات الجاهزة المتولدة من الظروف والبيئات والعادات ونحوها، فيتلقى كثير من الأمور واضحاً من غير مأخذ موضوعي لوضوحها، أو يغفل عن دلالات مؤكدة لظواهر وأحداث من جهة انطفاء شحنتها الدلالية من أثر الاعتياد عليها وممارستها، مثل الغفلة عن دلالات بدائع الحياة على صانعها من جهة الاعتياد عليها.

بيان تماثل منطق العلم والأخلاق

ومما ذكرنا ـ في هذه الحقيقة وسابقتها ـ يُعلم أن منطق العلم والأخلاق واحد، لأن الصفات التي تؤدي إلى الرشد الأخلاقي من الاعتبار بالخطايا والإقلاع عن تكرارها، والصبر والمشورة والتثبّت ونحوها بنفسها هي التي تؤدي إلى الرشد العلمي، بل الواقع أن الخطأ العلمي في موارد تدخل صفات ذميمة فيه هو في الحال نفسه خطأ أخلاقي.

١٤/ و ـ اقتران الاختلال الإدراكي بالشبهة، ونظام المحكم والمتشابه وقانون الموازنة

(الحقيقة ١٤): في أن الاختلال الإدراكي الناشئ عن الخلل الأخلاقي يقترن بالشبهة. وفيه ذكر نظام المحكم والمتشابه في مؤشرات الواقع وأدلته، وقانون الموازنة في إدراك الإنسان.

اعلم ـ سددك الله ـ أن اختلال الإدراكات العقلية من جهة وقوع خلل أخلاقي ـ سواء كان من جهة التكاسل أو نحوه من العناد والمكابرة ـ يقترن عادة

بتشبث النفس بأمر يعتبره مؤشراً على جهة اختياره ومبرراً لموقفه أو لتوقفه.

وهذا يجري على طبيعة النفس في تبريرها لموقفها وعدم إقرارها بمآربها، وكأن ذلك من جهة ما أودع في فطرة الإنسان بنحو مؤكد من مبدأ ضرورة الالتزام بالحق والحقيقة، فتعمد النفس إلى تلبيس الباطل والشبهة بلباس الحق والحقيقة، أو مزج الباطل ببعض الحق حتى يتأتّى لها الاقتناع بهما، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام(١) في كلام له: ((لو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخفَ على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى)). وقال عليه السلام(٢): ((وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى. وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى)).

علماً أن نظام الحياة ـ على وَفقِ سننه ـ يسمح بمثل هذا التلبيس، لأن هناك في جنب الأدلة المحكمة على الحق والحقيقة ما يحتمل خلافها، فمن رغب في الحق تمسك بالمحكم وآمن بالمتشابه ـ على واقعه ـ ومن كان له مأرب يمنعه من التمسك بالمحكم استغل المتشابه وترك محكمات الأدلة، وأعرض عن تحقيق ما عسى أن يعارضه منها.

وهذا المعنى جارٍ في مطلق شؤون الحياة، فما من حق عليه دليل محكم في غير ما يكون من سنخ المعلومات الرياضية والهندسية إلا وفي مقابله ما يمكن أن يجعل شبهة لتبرير الباطل وجذب من لا تثبّت له من الناس ممن يسمى بالهمج الرعاع(٣).

وهذا ما نعبّر عنه بنظام المحكم والمتشابه في الحياة، اقتباساً من النصوص الشريفة، والمراد بالمحكم الأمر المتقن المتين الجازم الذي لا يقبل تفسيراً آخر، وأما

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٩٩ـ١٠٠.

(٢) نهج البلاغة ج:١ ص:٨٩ـ٩٠.

(٣) لاحظ نهج البلاغة ج:٤ ص:٣٥.

المتشابه فهو ما احتمل وجهين وإن أشبه أن يكون أحدهما هو الأقرب.

ومقتضى المنطق والعقل السليم التمسك بالمحكم وترك المتشابه كما يجري عليه الإنسان في سائر شؤون حياته، فقد يعرف الإنسان صديقاً له بخصلة الوفاء من خلال طول المعاشرة معه، ثم يصدر منه في غضون ذلك عمل لا يطلع على عمقه ولكن قد يوحي له ظاهره بعدم الوفاء، ففي مثل هذه الحالة يبقى الإنسان على يقينه بوفاء صديقه، أخذاً بالشواهد المحكمة، ويحمل ذلك الموقف المتشابه على الصحة، ويقول: إنه ربما كان له عذر في هذا التصرف، إذ لا اطّلاع له على عمق أسباب صدور هذا التصرف منه ودواعيه كي يكون محكماً. إلا أنه إذا كان للمرء مأرب في مفارقة هذا الصديق لربما اتخذ من التصرف المشكوك حجة على عدم وفائه وجعله ذريعة إلى مقاطعته، وهذه الحالة سارية في جميع شؤون الفكر الإنساني.

وتقديم المحكم على المتشابه ينتمي إلى عنصر الموازنة في إدراكات الإنسان، وهو من أهم عناصر المنطق الفكري، وذلك أن المؤشرات على الواقع على درجات مختلفة في العمق والسطحية، فمؤشر يكون عمق تعبيره عن الواقع بدرجة يجعله دليلاً متقناً مقاوماً لأي مؤشر معاكس، ومؤشر يكون تعبيره عن الواقع سطحياً حتى إذا تأمل فيه الإنسان ثانياً لم يجد فيه أية دلالة، وبينهما مراتب ودرجات، فإذا تعارضت المؤشرات المتعاكسة تمركز الضعف على الضعيف منها وسلَبه حقيقة الدلالة فكانت شبهة، وكان مقابله الذي لا يتطرق إليه الريب هو الدليل المحكم، وهذه هي حقيقة الموازنة.

وقد أشير إلى هذا المعنى في عدة آيات قرآنية منها آية آل عمران[1] في تقسيم الآيات إلى محكمات هنَّ أم الكتاب ومتشابهات، فالراسخون في العلوم يتمسكون بالمحكمات ويؤمنون بالمتشابه على وجهه، وأما الذين يجدون في أنفسهم مآرب تمنعهم من الإذعان بالحق فيثيرون المتشابه على وجهه الذي يمكن أن يؤوَّل به ليجعل في مقابل المحكم، ويجعلون ذلك ذريعة لعدم الإيمان بالدين.

---

(١) آل عمران:٧.

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام[١]: ((إنما الأمور ثلاثة: أمر بيِّنٌ رشده فيتبع، وأمر بيِّنٌ غيّه فيجتنب، وأمر مشكل يُردُّ علمه إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلال بيِّن وحرام بيِّن وشبهات بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات، وهلك من حيث لا يعلم)).

وقد أسهب أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه وكلماته المثبتة في نهج البلاغة وغيره من كتب الحديث والتاريخ في بيان نظام المحكم والمتشابه في الدين وذكر تطبيقاته في مجتمع المسلمين عند ذاك، حيث انتشرت الشبهات في عصره عليه السلام، فحاربه جمع ـ وهم الناكثون والقاسطون ـ بشبهة قتل عثمان والتحريض عليه، وحاربه جمع آخر ـ وهم المارقون ـ بشبهة أنه كفر حيث رضي بالتحكيم إذ لا حكم إلا لله.

وقد خصَّ خطبة بليغة له تعرف بالقاصعة[٢] بذكر ما أودعه الله سبحانه من المتشابهات في الحياة في مختلف أبعادها اختباراً لعباده.

وقد أكثر من التحذير من الشبهات ولبسها وتأكيد موقف المتقين والمنافقين منها، واعتبر عروض الشبهات من خواص الإنسان، فقال[٣] عن الله سبحانه: ((.. ولا ولَجَت عليه شبهة في ما قضى وقدَّر))، وقال عن الملائكة[٤]: ((.. وعصمهم من ريب الشبهات))، وجعل التقوى وقاية منها فقال[٥]: ((.. حجزته التقوى عن تقحم الشبهات))، وأكد اعتبار الوقاية منها في القضاة في عهده للأشتر فقال[٦]: ((اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك .. وأوقفهم

---

(١) الكافي ج:١ ص:٦٨.

(٢) لاحظ نهج البلاغة ج:٢ ص:١٣٧ وما بعدها.

(٣) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:١١٣.

(٤) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:١٦٢.

(٥) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:٤٧.

(٦) لاحظ نهج البلاغة ج:٣ ص:٩٤.

في الشبهات))، وحذر من تورط الشبهة في مقام التعلم فقال[١]: ((.. فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم، لا بتورط الشبهات))، واعتبر إزاحة الشبهات من حكم إرسال النبي ﷺ حيث قال[٢]: ((أرسله بالدين المشهور .. إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبينات))، وذم فريقاً من الناس بأنه انقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، وحكى عن رسول الله ﷺ أنه قال في الفتنة النازلة على المسلمين[٣]: ((..ويستحلّون حرامَه بالشبهات الكاذبة))، وذم قوماً بتمكين الظلمة من أنفسهم الذين[٤]: ((يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات))، وقوماً آخرين بتصديهم لحلّ الشبهات دون أهلية[٥]: ((فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب. جاهل خباط جهالات، عاشٍ ركاب عشوات. لم يعضّ على العلم بضرس قاطع))، ووصف فريقاً بأنه[٦]: ((يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع، واعتزل البدع وبينها اضطجع))، وأشار إلى أن مشكلة المسلمين بعد النبي ﷺ الوقوع في الشبهات فقال: ((ولكنّا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل))، كما أشار إلى وقوع الفرق الثلاثة الذين حاربوه في الشبهة فقال[٧]: ((قد قامت الفئة الباغية فأين المحتسبون، فقد سُنّت لهم السُنَن وقُدّم لهم الخبر. ولكلّ ضَلّة علِة، ولكلّ ناكثٍ شُبهة))، ومن كتاب له[٨] إلى معاوية: ((.. فماذا

---

(١) لاحظ نهج البلاغة ج:٣ ص:٤٢.

(٢) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:٢٨.

(٣) لاحظ نهج البلاغة ج:٢ ص:٥٠.

(٤) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:١٥٦.

(٥) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:٥٣.

(٦) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:١٥٣.

(٧) لاحظ نهج البلاغة ج:٢ ص:٣٣.

(٨) لاحظ نهج البلاغة ج:٣ ص:١٢٥.

بعد الحق إلا الضلال المبين، وبعد البيان إلا اللَّبسُ، فاحذر الشبهة واشتمالها على لُبستها، فإن الفتنة طالما أغدَفَت[1] جلابيبَها، وأعْشَت الأبصارَ ظلمتُها))، وقال[2] عن كلمة الخوارج (لا حكم إلا لله): ((كلمة حق يراد بها باطل))، وما ذكره عليه السلام أكثره مما تشير إليه نصوص قرآنية.

١٥/ ز ـ الاختلالات الإدراكية الحسية والتحذير من الوقوع فيها

(الحقيقة ١٥): في وجوه الاختلال في إدراكات الإنسان الحسيّة، ولزوم الحذر من الاعتماد عليها حينئذٍ.

والإدراكات الحسية: هي ما يُدرك بالحس الظاهر من الحواس الخمس المعروفة أو بالحس الباطن المُعبر عنه بالوجدان أيضاً من قبيل ما يشعر به المرء في نفسه من إدراكات وهموم وصفات ذهنية ونفسية أخرى.

ويقابلها **الإدراكات العقلية**، والمراد بها: ما يستنبطه الإنسان بالأدلة من غير إدراك مباشر له.

والخطأ في الإدراكات العقلية كثير جداً، وفيه تندرج جلّ أخطاء كل واحد من الناس في بعض ما جزم به واطمأنّ بصدقه وهو محط الأبحاث السابقة، وقد تقدم القول في ما يقع في الإدراكات العقلية.

والمراد في هذه الحقيقة التركيز على وصف الاختلال في الإدراكات الحسية.

فقد يعتقد المرء سلامة الإدراكات الحسيّة من الاختلال، لأن الإحساس بشيء يساوق وجود ذلك الشيء لا محالة على الوصف الذي أحسّ به.

وهذا خطأ، لأن الإحساس إنما هو حالة ذهنية في نفسها، ووجود الشيء المحسوس ليس هو السبب الوحيد في حدوثه، بقرينة الموارد والإحساسات الكاذبة المعروفة قديماً وحديثاً، ولم يزل العلم الحديث يكتشف موارد إضافية

---

(١) أي أرسلَت.

(٢) لاحظ نهج البلاغة ج:٤ ص:٤٥.

من خطأ الحس، ومن ثم قيل: (إن العلم الناشئ من الإحساس إنما هو من قبيل الاطمئنان دون العلم الجزمي)، وعليه ينبغي للإنسان أن يتريث عند الاعتماد على إحساسه في مظان الخطأ والاشتباه ما لم يتأكد منه بما يرفع عنه الريبة.

ومن موارد الخطأ في الحس ما لا يعدّ اختلالاً، وذلك ما بنيت عليه النفس الإنسانية بناءً مطرداً، إذ يكون ذلك صفة فطرية للإنسان من قبيل ترائي الألوان والأصوات والطعوم له على ما يجدها، فإنها ليست موجودة على الصفة التي يراها ولكن الذهن يترجم ما ينتقل إليه من الأمواج الضوئية والذبذبات الصوتية ونحوها إلى ألوان وأصوات وطعوم حسب ما بُني عليه التكوين الإدراكي للإنسان.

وكذلك اعتماد الإنسان على الاحتمالات القوية جداً مثل (٩٩٪) كاعتماده على العلم، فإن ذلك مما فطر عليه الإنسان أيضاً، إذ قلما يوجد علم قطعي لا يقترن باحتمال مخالف ولو كان ضئيلاً جداً.

فمثل هذه الحالات تعدّ جزءاً من فطرة الإنسان وخلقته، فيكون وجودها أمراً حميداً بل لازماً، ولا يُعدّ نقصاً واختلالاً.

ولكن هناك موارد أخرى تُعدّ من قبيل الاختلال، وهو يكون على أحد نحوين ..

أولها: تخيل واقع لا وجود له أصلاً.

والآخر: سوء تلقي الواقع الموجود وتأويله على غير وجهه، لخلل حاصل في الإدراك والشعور أو في مناشئه.

وما يتفق من الاختلال في الحس بنحويه يكون على وجوه عدة ..

الأول: ما ينشأ عن أسباب خارجية فيزيائية تؤدي إلى سوء تلقي الواقع مثل رؤية القلم منكسراً في الماء، ورؤية الشيء صغيراً عند إبصاره من بعد، وذلك معروف.

الثاني: أسباب نفسية توجب سوء تلقي الواقع، بمعنى أن الذهن البشري يلقي على الواقع ثوباً من الوهم يناسب مرتكزاته، وقد عُدَّ من جملتها ..

١ ـ الخبرة السابقة على الإدراك، فإنه يوجه الشيء المدرك إلى ما كان معهوداً للذهن إذا لم يركز الإنسان على الشيء بدقة، مما يسهل معه إضفاء الشيء المعهود عليه.

٢ ـ الدوافع النفسية بأنواعها، فإنها توجه الواقع المحسوس إلى ما يوافق مقتضاها، وهي على أنحاء ..

منها: الرغبات الجسمية للفرد، فقد لوحظ أن بعض الأجسام المبهمة تتراءى للجائع طعاماً بخلاف الشبعان. وليس سرّ ذلك إلا أن الجائع يشتد أمله إذا تراءى له شيء في أن يكون نافعاً له فيتراءى له الشيء تلقائياً على نحو ما يرغب.

ومنها: الحالة المزاجية مثل الانفعالات الشديدة، فإنها قد تشوش الإدراك وتلقي على الشيء المحسوس صورة مناسبة للانفعال.

ومنها: العواطف والانحيازات والميول، فإنها إذا قويت ربما ألقت على الشيء المحسوس غطاءً يوافقها ومن ثم قيل: (إن حب الشيء يعمي ويصم).

ومنها: ما ينشأ عن الكبت النفسي، فإنه يؤدي إلى سوء إدراك الإنسان بما يوافق النوازع المكبوتة.

٣ ـ المعتقدات والأفكار المرتكزة في النفس، فإنها قد تؤدي إلى سوء إدراك الواقع حيث يخالفها، فتوجهها إلى ما يناسبها.

ومن ثم على المرء مزيد تدقيق في إدراكاته الحسية إذا لاحظ وجود بعض هذه الأسباب، تجنباً عن التدخل المذموم لمرتكزات المرء ودواعيه في أحاسيسه الوجدانية، حتى يتجنب القول بغير علم والسير على غير بصيرة.

الثالث: أسباب نفسية توجب توهم واقع لا وجود له كما في الهلاوس السمعية والبصرية، حيث تتراءى للإنسان أشياء لا وجود لها أو يسمع أصواتاً لم تحدث خارجاً.

وحدوث هذه الهلاوس أحياناً للحظة أمرٌ اعتيادي، ولكن في حال طولها أو تكرّرها تكون حالة مرضية لا بدّ من علاجها بالوسائل التربوية أو الطبية.

وتنشأ هذه الهلاوس عن أسباب عدة ..

١ ـ كثرة تركيز المرء على شيء بصري أو سمعي، فإنه يؤول إلى أن يتراءى له أو يتخيل سماعه، ومن ثم لا بد من اتهام الإنسان بعض الشيء لإحساسه في ما هو مظنة للخطأ من هذا الباب، لا سيما مع وجود أمارات على خلافه أو ثبوت خطأه في مرات سابقة.

٢ ـ الخوف الشديد من شيء ما، فإن تفاقم الخوف قد يؤدي بالإنسان ـ لا سيما إذا كان في مكان يراه مظنة لوجود ذلك الشيء ـ إلى أن يتراءى له أو يسمع صوتاً. وهذا هو أساس انتشار الإيمان بكائنات موهومة مثل الغول.

٣ ـ الرجاء الشديد لشيء، فإنه قد يؤدي إلى أن يراه ويسمعه أيضاً، لا سيما إذا كان في مكان يكون مظنة له في نظره.

٤ ـ التأهب الشديد للإحساس بشيء إن كان موجوداً، فإن جو التأهب قد يؤدي في مضاعفاته الطبيعية إلى أن يحس الإنسان فعلاً بما يتأهب له.

٥ ـ التعب الشديد والإعياء، فإنه قد يؤدي إلى خفّة الوعي، فتتراءى مرتكزات الإنسان أمام عينيه كصور مرئية.

ووقوع الهلاوس المرضية وغير المرضية لمثل هذه الأسباب أمر ثابت وبديهي في علم الطب، بل هو ظاهر لدى أهل الخبرة والتجربة.

وعلى الإنسان العاقل أن يلتفت إلى ما يمكن أن يتفق منه على هذا النحو حتى يقوّم إدراكاته تقويماً صحيحاً وسليماً، ولا يعتمد في ما يقوله ويبني عليه على مجرد ما يتراءى له من غير تثبت مناسب، فيقع بذلك في القول بغير علم والعمل على غير بصيرة، وهو باب واسع من أبوابهما، وكثيراً ما يوقع الآخرين أيضاً في الغلط مما يحول دون عملهم بوظائفهم الأخلاقية والشرعية، وقد يزرع مثل هذه الهواجس الخاطئة في نفوس الآخرين ـ لا سيما الأطفال والنساء ـ مما يوجب عوارض مرضية لهم، فتكون عليه تبعتها كلها.

مواطن ابتلاء أهل الدين بالأخطاء الحسية

وقد يتفق ابتلاء أهل الدين في مثل ذلك في مواطن ..

الموطن الأول: في رؤية الهلال، حيث كثرت الدعاوى الخاطئة المتسرعة لرؤية الهلال في الأزمنة الأخيرة حتى يكاد يسلب ثقة المرء بأغلب الشهادات التي تقوم على ذلك، إذ لوحظ كثرة الخطأ فيها خطأً ظاهراً من جهة امتناع رؤية الهلال بعدُ، لعدم خروجه من المحاق أو عدم مضي مدة يحتمل معها قابليته للرؤية، أو دعوى الرؤية من نادر بين جماعة كثيرة يماثلونه أو يفضلون عليه في الرؤية والمعرفة بالاستهلال، أو دعوى الرؤية في غير موضع وجود الهلال ـ لو كان ـ فعلاً، لوضوح موضعه بحسب المعلومات الفلكية ـ التي لا تحتمل الخطأ ـ أو رؤيته على وضع غير وضعه الحقيقي الثابت بحسب تلك المعلومات كادعاء كون قوسه في جهة المشرق وهو في جهة المغرب، أو ادعاء رؤيته في زمان لا يمكن رؤيته فيه لانقضاء وقته، أو غير ذلك.

والظاهر أن هذا الخطأ بدأ تدريجاً من جهة عدم الممارسة والمعرفة، وذلك أن العرب قبل الإسلام وفي أوله كانوا مأنوسين بالنظر إلى السماء ورصد أحوال الشمس والقمر والكواكب حتى كأنهم يعايشونها، إذ كانت ظاهرة لديهم في طول حياتهم، من جهة عدم وجود مساكن حاجبة لها عنهم، كما كانت مدار الأوقات عندهم، ودليل الأمكنة في أسفارهم، وأداة الاستضاءة في ليلهم ونهارهم، كما يتمثل ذلك كله في نعتهم وتعابيرهم عن تفاصيل صغيرة من أحوالها لا يحسن شيئاً منها عامة الناس في هذا الزمان.

فكانوا بذلك أهل خبرة ومعرفة بهذه الأمور لا يتوهمون فيها، لطول ممارستهم ووجودهم في بيئة تكون معرفة ذلك فيه من قبيل الثقافة العامة التي يتضح فيها خطأ المتوهم ويعاب به.

ولكن اختلف الأمر في هذا الزمان حيث قلَّ نظر الناس إلى السماء وأنسهم بكائناتها، إذ يعيشون عموماً في الأبنية وهم محجوبون عن كثير منها بسائر العمارات والضياء والدخان الناتج من المصانع وغيرها، ويعوّلون في

الأوقات على الساعات وفي الأسفار على الطرق المحددة وعلاماتها، فانقطع تأملهم في تلك الكائنات إلا لحاجات طارئة مثل تحديد أوائل بعض الشهور القمرية، فلم تكن لهم المعرفة الكافية فيه، فكثر لهم التوهم والخطأ في ما يحتاج إلى بعض الدقة في تحديده كأول الفجر وأول الشهر وغير ذلك.

وهذا هو الذي مهّد للخطأ الكثير في ذلك في هذه الأزمنة. وقد ساعد عليه عدم التثبت اللائق بهذه الحالة نتيجة للغفلة عن الحاجة إلى التدقيق في المحسوسات في أمثال هذه الموارد التي يكون المرء فيها مظنة للخطأ من جهة شدة التركيز والتأهب القوي لرؤية الهلال، وربما شارك في نشوء الخطأ شدة رجاء المرء لأن يراه، ليكون هو الذي ثبّت الشهر بقوله فيبرز به بين المستهلين من أقرانه.

والعبرة المستنبطة من تأمل مثل هذا الموطن أنه ينبغي أن يكون للمرء ثقافة كافية في المواضيع الدقيقة التي يقول بها، حسية كانت أو استنباطية، وإلا وقع في الظنون والأوهام.

الموطن الثاني: الصلاة وشؤونها، فمن الناس من يبتلى بالوسوسة في الصلاة فلا يستيقن بإتيان جزء قد أتى به مع محفوظية صورة العمل في ذهنه إلا أنه لا يحصل له الوثوق بإتيانه به ويبدي الترديد فيه من غير وجه له، وبذلك يقع في الوسوسة في الإتيان به وأكثر ما يقع هو الوسوسة في صحة القراءة.

ومن الناس من يتفق له ذلك في الطهارة والنجاسة حيث يحسّ بإصابة النجاسة إياه على خلاف ما يعتاده الآخرون، فكأنه خصّ بين الناس بمزيد إحساس بالنجاسة، على أنه كثيراً ما يتراءى له إصابتها في ما لا يعقل وقوعها من جهة بعد المسافة وقرائن أخرى.

وهذه الحالة إذا استقرت لدى المرء فهي من الهلاوس المرضية لتكررها، فلا بد من السعي إلى علاجها بتربية أو دواء، فإن ذلك قلة في العقل وخروج عن الاعتدال وتضييع للوقت والطاقة، بلا أثر دنيوي أو أخروي إلا الشقاء والعناء والإخلال بسائر الوظائف الشرعية والعقلانية.

وسبب الابتلاء بها هو شدة التحسس تجاه إصابة النجاسة والتأهب لرصدها، فيشعر المرء بالإصابة شعوراً كاذباً، فإذا تكرر ذلك استقرت لدى الإنسان ولم يحتج إلى تلك الدرجة من التأهب الذي نشهده في بدايتها.

وقد ورد[١] في الأثر أن هذه الحالة إنما هي من الشيطان تنبيهاً على أنها حالة مذمومة وليست ورعاً وتقوى في مراعاة الشريعة كما يتراءى لصاحبها.

وقد يتفق مثل ذلك في شأن الطهارة الحدثية بأن يشعر المرء بخروج بعض البول أو الريح من جهة التحسس الزائد من خروجه، فيوجب الإحساس به من غير أن يكون قد حدث فعلاً، فيراوده مثل هذا الشعور دائماً. وقد ورد[٢] في الأثر فيه أيضاً ما يدل على أن على المرء أن لا يعتني بمثل ذلك ما لم يكن شيئاً بيّناً، وإنما ذلك وسوسة من الشيطان.

والعبرة المستنبطة من تأمل مثل هذا الموطن أن على المرء أن يكون مسترسلاً في تصرفاته على وَفقِ ما عليه عامة الناس كما كان عليه النبي ﷺ وعترته، ولا يتكلف في رصد شيء لا يتعارف الوقوف عليه من غيره، ولا يعطي لنفسه مجالاً في نموّ مثل هذه الأحاسيس الكاذبة، فإنها في أولها قلة بصيرة وتثبت ولكنها في آخرها حالة مرضية تراود المرء من غير إرادته، ولا ترتفع إلا بعناء.

الموطن الثالث: الإحساس بأمور مما وراء هذه المادة الكثيفة مثل الأنوار والملائكة والجن والأموات وغير ذلك مما يتعلق بأمور الكائنات اللطيفة، فإن مثل هذه الأمور وإن كان واقعاً خارجاً، إلا أن أكثر من يتفق له ذلك لا يميّز بين

---

(١) عن عبد الله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبو عبد الله: ((وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟!)) فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: ((سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو؟ فإنه يقول لك من عمل الشيطان)) (الكافي ج:١ ص:١٢).

(٢) عن معاوية بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((إن الشيطان ينفخ في دبر الإنسان حتى يخيّل إليه أنه قد خرج منه ريح، فلا ينقض الوضوء إلا ريح تسمعها أو تجد ريحها)) (الكافي ج:٣ ص:٣٦). وإسناد ذلك إلى الشيطان يشير إلى أن هذا الإحساس قد ينشأ عن إيحاءات نفسية بحتة دون إحساس جسدي.

موارد صدق الإحساس وموارد كذبه أو الريبة فيه والتي هي الغالب فيه، وسيأتي إيضاح ذلك لاحقاً.

والعبرة المستخلصة من الالتفات إلى هذا الموطن أن يلتفت الإنسان إلى أن هذه الأمور تتفق على وجوه كالمنامات، فمنها ما يكون من جهة لطف الروح، ومنها ما يكون على سبيل التمثل النفسي ـ الذي هو ذو عوامل عديدة ـ ويتفق لأهل الصلاح وغيرهم من أهل الملل والأديان المختلفة، فيحذر في التعامل مع ما يتفق له من ذلك.

هذا، وليس من الترائي المذموم أن يتمثل للإنسان أحياناً مشاهد القيامة من جنة أو نار، لشدة اليقين بها والاشتياق إليها أو الحذر منها، مع التفاته إلى أنه تمثّل ليس إلا، وكذلك الحال في تمثل الأنبياء والصالحين من جهة شدة الشوق إليهم والمحبة لهم والرغبة في اللحوق بهم والحشر معهم.

بل قد ييسّر الله سبحانه وتعالى للعبد ذلك حتى يزيد في يقينه واطمئنانه ويزيد في إخلاصه وصبره على ما يجده من مكاره هذه الحياة.

فليحذر الإنسان من المبالغة في الاعتماد على الإدراكات الحسية ولا يفرطنّ فيها فيبتلى بالأوهام، ولا يفرّط بها فيبتلى ببعض السفسطة، بل يسلك فيها مسلكاً وسطاً حسب ما يقتضيه العقل وترشد إليه الخبرة والاطلاع والتجربة.

هذه نبذة عن الخطأ في الإدراكات الحسية للإنسان.

١٦/ ح ـ الخطأ في الإدراكات الحسية في مقام استذكارها

(الحقيقة ١٦): ومن الخطأ في الإدراكات الحسية ما يقع في مقام استذكارها، وهو يقع أضعاف ما يقع في أصل الإدراكات الحسية، كما هو الحال في حكاية الإنسان لما اتفق له في حياته أو لما سمعه من غيره، ومن ذلك ما يقع فيه الرواة والمؤرخون في حكاية النصوص التي سمعوها أو الحوادث التي شهدوها وحرروها لاحقاً.

وقد لوحظ وقوع الخطأ في مقام الاستذكار لأحد عوامل ثلاثة ..

١ ـ عوامل إدراكية محضة، وذلك ما يطرأ على الذهن من الخطأ في استحضار الشيء المحسوس من قبل، من جهة ارتباك ذهني في مقام استرجاعه لعارض جسمي ومزاجي أو تعب وانفعال، أو من جهة مرض مؤثر في اختلال قوة الذاكرة من جهة حادثة أو هرم، كما ذكر أن غير واحد من المحدثين اختلطوا في أواخر أعمارهم.

وقد يُخطئ في الاستحضار من جهة عدم فهم النص أو الحادثة على وجهها ابتداءً، فيذكر النص على الوجه المغلوط الذي سمعه أو فهمه في مقام النقل بالمعنى ويذكر الحادثة على ما تراءت له حينها.

٢ ـ عوامل نفسية، وذلك لأن الإنسان في مقام حكاية شيء يسعى إلى أن يعطي معلومة وافية لمن يخاطبه، ومن ثم قد يسعى إلى تهذيب ما يستحضره من الحادثة أو النص ولو بنحو لا شعوري على وَفقِ ما تقتضيه المناسبات، فيخلع معنى إضافياً على الحوادث الغامضة التي لا يفهمها ويقيم علاقة منطقية بين الأشياء، ويضيف مبررات ودوافع، ويسد الثغرات ويكمل النقص في ما يسترجعه وينظمه وينسّقه ويحذف التفاصيل غير المفهومة منه، ويحول الأشياء غير المألوفة إلى أشياء مألوفة، ويفرغ معنى على ما ليس له معنى، ويبالغ في بعض العناصر، إلى غير ذلك مما يعطي صورة بيّنة عن المحكي.

٣ ـ عوامل لا أخلاقية، من قبيل التأثر بميوله واتجاهاته وانحيازاته في مقام ذكر النص، واستسهاله القول بغير علم وغير ذلك.

وقد يجتمع أكثر من عامل من هذه العوامل الثلاثة في خطأ الاسترجاع.

ولذلك يتعين على الإنسان أن يراعي الشروط الموضوعية والأخلاقية في مقام الحكاية، ويتصف بالدقة والضبط والورع، فإن أشكل عليه شيء رام نقله ذكر أن ذلك قريب أو مناسب لأصل الحكاية، فلا يوجب رغبته في النقل أو في إمتاع المخاطب أن يزيد أو ينقص أو يغيّر شيئاً من الحكاية، كما يفعله بعض من يخطب في الناس حيث يعتمد على ذاكرته.

وقد ذكر في الرجال[1] عن حماد بن عيسى ـ أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ـ أنه قال: (سمعت من أبي عبد الله عليه السلام سبعين حديثاً، فلم أزل أدخل الشك على نفسي حتى اقتصرت على هذه العشرين).

وإذا وقف امرؤٌ ـ في من ينقل عنه ممن يوثق به عادة ـ على قلة ضبط أو كثرة اشتباه أو نحو اختلال لهرمٍ فليُشِر إلى ذلك بصيغة غير قادحة حتى لا يوحي إلى من ينقل له بالاعتماد عليه.

(١) فهرست أسماء مصنفي الشيعة ص:١٤٢.

حول صفة الحكمة

١٧ ـ وصف هذه الصفة وبيان الحاجة إلى تنميتها

(الحقيقة ١٧): في أهمية ما منح الإنسان من روح الحكمة والحاجة إلى تنميتها.

قد فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان ـ في جملة ما فطره عليه ـ على روح التعقل والحكمة، وهو نزوع المرء إلى العمل بما يكون أصلح له وأوجب لسعادته، وهذا أمر لا يستوجبه العلم بالشيء في نفسه، لأن الإنسان قد يعلم بصلاحه ويتجاهله في عمله، وهذا أمر يقع كثيراً في الحياة، فكم من امرئ يعتقد بالحقائق الكبرى في الحياة التي تملي على الإنسان منهجاً آخر في حياته ولكنه لا يلتزم بهذا المنهج بالرّغم من علمه بالأخطار التي يتعرض لها في حال عدم الالتزام به؟! وكم من امرئ يعلم بالإرشادات الطبية الوقائية والعلاجية ولكنه يتقاعس عنها وهو يعلم بالأمراض التي تنشأ من إهمالها؟! وكم من امرئ ينتهك القوانين النافذة وهو يعلم باحتمال تعرضه للعقوبة؟! كالمئات ممن رصد عليهم الانتهاك وقاسوا عقوبات مريرة لا ينبغي للعاقل أن يضحي بالتعرض لها من أجل الانتهاك الذي صدر منه، إلى عشرات الموارد الأخرى.

وليعلم أن الإنسان إنما زوّد مستوىً من روح الحكمة والتعقل لا يمنع من تعرضه لمخالفتها ولا يأخذ به أخذاً حاسماً إلى الرشد والصلاح، ولو كان كذلك لم يشقَ إنسان في هذه الحياة بعمله، ولم يعانِ من عواقب سلوكه، وإنما زوّد منه مستوىً يتأرجح معه بينه وبين دوافعه وانفعالاته الأخرى، ومن ثم يحتاج إلى رعايته وتنميته ليكون ملكة حاكمة على تصرفاته، آخذة بلجام شهواته، لا تأذن له بالاستغراق المهلك فيها والاندفاع الأعمى وراءها، ولكل امرئ بحسب درجة توفيقه في ذلك ما يناسبه من السعادة في هذه الحياة وما وراءها، وقد قال

سبحانه[(١)]: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾.

وهذا الأمر هو أحد مواطن ابتلاء الإنسان في هذه الحياة، فلو أن الإنسان اتصف بروح الحكمة والتعقل وتحرّى سعادتَه في سلوكه تحرياً مبنياً على التأمل الجامع في الفعل وعواقبه جميعاً لم يتعرض لكثير مما يبتلى به ويعاني منه، ولكن ذلك مما اقتضته المقادير الإلهية.

وقد سبق أن جماع الحكمة أن يستحضر الإنسان ما يغيب عنه حتى كأنه حاضر فعلاً، فلا يرجّح كفة رغبة جامحة على محذور غائب، ولا يهتم بقليل عاجل على حساب كثير آجل، فيزن عقله الأشياء وعواقبها بميزان عادل، لا يستغرق فيها ولا يهمل عواقبها ليرجّح كفة ما يحضره ـ وإن قلّ ـ على ما يتعقبه.

ولو تأملت موارد مخالفة الحكمة من الآفات السابقة التي مرت آنفاً لوجدت في جميعها انحيازاً إلى الحاضر على حساب الغائب، وإلى الحال على حساب المستقبل.

ومن المعلوم أن هذا الانحياز خطأ فاحش في ميزان العقل، لأن الإنسان سوف يعيش المستقبل كما عاش الحاضر، فكل حاضر ماضٍ وكل مستقبل آتٍ، فلا يصح عند العقل الانغماس في الحاضر حتى كأنه لا شيء وراءه، والتغافل عن المستقبل حتى كأنه لا يرجى قدومه.

وقد حذّر الله سبحانه وتعالى عباده من هذا المعنى كثيراً فقال عزّ من قائل[(٢)]: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾، وقال[(٣)]: ﴿إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾، وقال[(٤)]: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقال[(٥)]: ﴿أن مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم

---

(١) البقرة:٢٦٩.

(٢) القيامة:٢٠ـ٢١.

(٣) الإنسان:٢٧.

(٤) الأنبياء:٣٧.

(٥) الأنعام:١٣٤.

بِمُعْجِزِينَ﴾، وقال[١]: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ**﴾، وقال[٢]: ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

فعلى المرء أن يتبصر غده كما يشهد يومه، ولا يكوننّ عمق بصيرته على حدّ بصره، وقد قيل حقاً[٣] في المثل: (فإن غداً لناظره قريب) و(عند الصباح يحمد القوم السّرى)[٤].

سبل اعتبار الإنسان بما يغيب عنه كما هو حقه

وليعلم أن هناك عدة سبل لاعتبار الإنسان بما يغيب عنه ويستقبله كالحقائق الكبرى في هذه الحياة ..

(أحدها): أن يكثر التفكير فيه حتى يعيش حالة الترقب والتطلع بالنسبة إليه، فيكون بذلك عنده على حدّ الحاضر في وقعه في نفسه حتى كأنه يجده فعلاً، فإن المرء متى غيّب شيئاً عن باله غاب عن قلبه، ومتى أكثر استحضاره حضر عنده، ومن ثم دعى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الإنسان إلى التفكير في حياته فقال سبحانه[٥]: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، وقال[٦]: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، وقال[٧]: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

(ثانيها): أن يتأمل انقطاع ما هو فيه عن قريب حتى لا يخلد إليه خلود

---

(١) إبراهيم:٣.

(٢) الأنفال:٦٧.

(٣) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ج:٢ ص:٢٨٥. ٤٢.

(٤) السُرى: هو السّير عامة الليل، يُضرب في الحثّ على الصبر واحتمال المشقة، حتى تُحمد العاقبة.

(٥) النحل:٤٤.

(٦) الأعراف:١٧٦.

(٧) الرعد:٣.

الغافل عما سواه، بل يكون أشبه بالمودّع له، ومن ثم ذكّر الله سبحانه الإنسان بأن هذه الدنيا دار غرور ومتاعه قليل، قال عزّ من قائل[١]: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، وقال[٢]: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، وقال[٣]: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾.

(ثالثها): أن يتأمل النظائر والأمثال لما هو فيه فيعتبر بها وبعواقب الأمور فيها، فإن ذلك مما يثير الانتباه ويوجب الاتعاظ ويرفع حجاب الغفلة، ويكشف غطاء الحقيقة.

وليكن نظر المرء في ذلك إلى حال أهل العقل والحكمة، ليثير روح التأسّي في نفسه، وإلى حال أهل الجهل والغفلة ليثير فيها روح المباعدة عنه والحذر منه، قال تعالى[٤]: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقال[٥]: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(رابعها): أن يعيش في بيئة يغلب فيها العقل والحكمة حتى يعيش في أجوائها فتسري إليه بركاتها، ولا يحيط نفسه بأهل الغفلة فيوجب ذلك تخديره، قال عزّ وجل[٦]: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) آل عمران:١٨٥.

(٢) الحديد:٢٠.

(٣) الحديد:١٤.

(٤) إبراهيم:٢٥

(٥) الحشر:٢١

(٦) العصر:١-٣.

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، وقال(١): ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

تأثير مطاوعة الحكمة في نموها والإعراض عنها في فقدها

وليعلم أن المرء إذا اطّلع على الحكمة أو ما يقتضي الاعتبار بها فأقبل عليها قوي صوت الحكمة في داخله حتى يبلغ درجة ينظر إلى ما لا ينظر إليه عامة الناس ويرى ما لا يرونه، فيكون على يقين بأمره معايناً لعاقبته، وإن أعرض عن التبصر بها سلبت منه روح الحكمة وضياؤها، وعاش كأنه لم يسمعها، فقسى قلبه وعميت بصيرته، قال سبحانه(٢): ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال(٣): ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، وقال(٤): ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وربما بلغ بتكرر ذلك درجة يختم فيها على قلبه وغشي على بصيرته، فلم ينفعه تذكير ولا موعظة ولا أمثال كما قال تعالى(٥): ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقال(٦): ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، وقال(٧): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

---

(١) الكهف:٢٨.

(٢) الأنعام:١١٠.

(٣) المنافقون:٣.

(٤) آل عمران:٨٦.

(٥) البقرة:٧.

(٦) التوبة:٨٧.

(٧) محمد:٢٤.

جهات الحكمة ومراتبها وتواضع صاحبها

هذا، وإن للحكمة جهات حسب الحقائق التي يعلم المرء بها، ومراتب بحسب درجة الاعتبار بها، وربما تحلى المرء بالحكمة ببعض مراتبها أو اتصف بها في بعض جهاتها، لعائق يمنعه في غيرها، فلا يشبّهن امرؤ على نفسه فيما إذا وجد منها بعض الحكمة فيظن أنه قد حازها من كل نواحيها وبلغ الغاية فيها، فإذا بحكمته أدت إلى الجهل وأنتجت الغفلة فيشقى بها، وإنما يتفق ذلك للمرء من ضيق وعاء قلبه، فإن القلوب أوعية وخيرها أوعاها، فرب قلب حوى قليلاً من العلم ففاض حتى استغنى صاحبه به، وآخر كلما تعلم وتبصر لم يزل يرى ما تحقق له قليلاً وما يفتقده كثيراً، وإن للحكمة في هذه الحياة مدى بعيداً لا يدرك امرؤ فيها قعره ولا يبلغ نهايته.

واعلم أن المرء كلما كان أكثر جهلاً كان ادعاؤه في التحلي بالحكمة أكثر، حتى يبلغ أن يزعم أنه قد بلغ الكمال فيها وأخذ بأزمتها، وكلما كان أكثر بصيرة كان ادعاؤه لها أقل وعطشه أكثر، لا يروى ظمؤه، ولا يشفى غليله، ولا يزال ينتقد نفسه للاستزادة منها، ويضج إلى الله سبحانه في أن يؤهله لها ويزيده منها، فلينظر كل امرئ أين يقع من ذلك.

حقيقتان عن الضمير الأخلاقي

١٨/ أ ـ أهمية الضمير الأخلاقي وامتيازه ودوره في وجود الإنسان

(الحقيقة ١٨): في التذكير بأهمية الضمير الأخلاقي ودوره في وجود الإنسان.

إن من أروع ما أودعه الله سبحانه في وجود الإنسان هو الضمير الذي يدرك به الفضيلة والرذيلة، فينزع به إلى الأفعال النبيلة ويزجره عن الأعمال الدنيئة.

وقد ميّزه سبحانه بين قوى النفس ومشاعرها بميزتين ظاهرة وباطنة ..

فالميزة الظاهرة له أنه قد جعله نظاماً للحياة به تُضمن المصالح العامة، ومن ثم كان هو الدستور الأم فيها فهو منبع قوانينها ومصدر تشريعاتها، لم يخطأه تشريع إلا وأوجب ذلك اختلالاً وانعكس على الفرد أو المجتمع هزة وارتداداً ولو بعد حين، حيث تتراكم الآثار وتجتمع التبعات كما قضت به تجارب الحياة.

وقد وجه الله تبارك وتعالى في رسائله التي بلّغها إلى خلقه من خلال أنبيائه باعتبار الفطرة الإنسانية بما تشتمل عليه من الضمير الأخلاقي وصواب قضائها، ولم يرد التشريع الإلهي إلا لتثبيت نظامها وتحديد الوظيفة في الموارد المتشابهة بحسبها ـ على ما سيأتي[(١)] بيانه ـ بل إن الله عزّ وجل بنى حقه في عبادته وطاعته على أساس قضية أخلاقية، وهي حقه جلّ جلاله في شكره والامتنان له، كما بنى التحذير من الكفر به ومعصيته على قبح كفران الإنسان لنعمته ونسيانه لحقه سبحانه، كما في آيات كثيرة منها قوله تعالى[(٢)]: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾.

والميزة الباطنة له ما بلغه رسل الله سبحانه عليهم السلام وأيدتها شواهد الفطرة

---

(١) في الأصل الخامس الآتي.

(٢) الإنسان:٣.

من آثاره في باطن هذه الحياة وما بعدها من عوالم البرزخ والقيامة، حيث دلت على أن الفطرة بما تشتمل عليه من الضمير الأخلاقي تمثل سنن السعادة والشقاء، فمن سلمت فطرته وتمكنت من نفسه وتحكمت في أفعاله كان ذلك سلامة لروحه ونماءً في عمله، تؤدي به إلى السعادة وتنفي عنه عوارض الشقاء، ومن ضعفت فطرته واستولت عليه شهواته كان ذلك مرضاً فيه واعتلالاً يؤدي به إلى النكد والضيق، فالعمل الصالح كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، والعمل الخبيث كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

وبذلك يظهر أن الضمير الإنساني ـ مضافاً إلى دلالته على النظام التشريعي لهذه الحياة الضامن لمصلحة نوع الإنسان مؤشر ـ على النظام التكويني الحاكم عليها الضامن لمصلحة كل إنسان بشخصه، ولو في امتداده بعد هذه الحياة.

فرق الضمير عن سائر المشاعر الإنسانية

ويفترق الضمير عن سائر المشاعر الإنسانية في أنها مشاعر محترمة يمدح صاحبها ويذم ناقضها، وأما المشاعر الأخرى فهي طباع تشير إلى حوائج للإنسان كحاجة المرء إلى الطعام والزواج والألفة وغير ذلك.

كما يختلف الضمير عن روح الحكمة في أن الحكمة تقتضي التطبيق بين الهدف والوسيلة، فمن أراد السعادة فإن عليه أن يتمسك بأسبابها ومن كره الشقاء كان عليه أن يكره مسبباتها، فالحكيم في بحثه عن السعادة ناظر إلى صلاحه نظراً مستجمعاً لظواهر الأمور وبواطنها وبدايات الحوادث وعواقبها، ولكن صاحب الضمير لا ينظر إلى مصلحة يريد تحقيقها ولا إلى عاقبة يسعى إلى تأمينها، وإنما يحب الفضيلة لذاتها، ويشعر بالراحة والاستقرار بها وإن اقتضت تضحية من المرء بمصالحه وإعراضه عن تقدير ربحه وخسارته، فأخو الفضيلة يحب العدل والصدق والإحسان، ويكره الظلم والكذب والعدوان حتى وإن قدّر لنفسه مصلحة في خلاف ذلك، ولكنه يجد لذة بتلك ونكداً بهذه، فتلك

سجية طُبع عليها وغُرِز في عمقه أساسُها إلا أن الله سبحانه وتعالى أضمر لصاحبه السعادة وضمن له العاقبة حتى وإن لم ينظر إليها، وبذلك يرمز نداء الضمير من حيث لا يحتسبه المرء إلى السلامة والفلاح، ويجنب صاحبه من المساءة والعذاب، قال عزَّ من قائل[١]: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾.

ابتناء صفة التضحية على الضمير الإنساني

وبفضل (الضمير) يتحقق معنى التضحية في الإنسان، لأنه لا ينظر في الاستجابة له إلى مكافأة ثواب ولا يحذر فيه من مجازاة وعقاب.

ومن ثم كان العمل الحاصل بداعٍ من الضمير أفضل من العمل بسائر الدواعي الحكيمة منفردة، ولو جمع بينها وبين داعي الضمير لم ينقص فضل العمل بل كان ذلك أوفق بالعقل والسُّنّة، وقد ورد في الأثر الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال[٢]: ((إن العبادة ثلاث: قوم عبدوا الله عزَّ وجلَّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عزَّ وجلَّ حباً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة)).

ولا يلزم من ذلك تفضيل عمل من أنفق على أصحاب الحاجات ـ مثلاً ـ بداعي الضمير فقط على من عمله رجاءً لثواب الآخرة أو حذراً من عقابها، فيخالف ذلك ما تقتضيه الأدلة الشرعية، وذلك لأن الله سبحانه جعل الطلب مفتاحاً لنيل المطلوب، والسؤال مناطاً لاستحقاق المسؤول، وجعل شعور المرء بفقره إليه سبيلاً إلى غناه، وإذعانه بالحاجة إليه طريقاً إلى استيفائها، وليس حاله في ذلك كحال من لم يطرق هذا الباب جهلاً أو استغناءً أو إعراضاً، فالسائل يستوجب بحسب قانون الكرم ما لا يستوجبه التارك للسؤال، والراجي يستحق بحسب موازين الجود ما لا يستحقه الفاقد للرجاء، فمن طلب شيئاً وجده ومن

(١) الشمس:٧ـ١٠.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٨٤.

سأل شيئاً أعطيه، ومن ظمأ أروي، ومن افتقر أغني، وإن الله سبحانه مقدر لكل شيء قدره فـ﴿كُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(١).

تزويد الإنسان بمستوى متوسط من الضمير ولزوم تنميته

وليعلم أن الإنسان إنما زُوِّد من الضمير ـ كالحكمة ـ مستوىً متوسطاً حتى يختار بينه وبين سائر طباعه وغرائزه، فلا هو بدرجة من القوة حتى يمنع المرء من مخالفته ويقهره على متابعته، إذ لو كان كذلك لعمل الناس كلهم على وَفقِ ضمائرهم، ولم يحيدوا عنها إلى مقتضى سائر شهواتهم وغرائزهم، ولا هو بدرجة من الضعف بحيث لا يكون له أثر غير الأمل والتمني، وذلك تحقيقاً لنظام الابتلاء ورعاية لمقتضيات الاختبار.

وبذلك يجب على المرء أن يتعهد ضميره بالرعاية حتى يكون صوته في داخله أقوى من سائر الأصوات، وتحكّمه في عمله فوق حكم سائر الرغبات. ولو ترك المرء رعاية ضميره لخفت صوته، وانعدم تأثيره، وربما مات أو دُفن في أثر إهماله، فلم يعد يحرك في المرء ساكناً ولا يثير فيه شعوراً، فلا يجد سعادة في الأعمال الكريمة ولا وخزاً بالتصرفات اللئيمة، بل ربما حلّت محلّه العصبيات الذميمة والعادات الكريهة والأعراف السخيفة، وتزيّنت بلباس الضمير، فيصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً. نعوذ بالله من ذلك.

١٩/ ب ـ تشخيص قضاء الضمير والتحذير من اشتباهه بمزاجيات أخرى

(الحقيقة ١٩): سبل تشخيص قضاء الضمير والتحذير من اشتباهه بمزاجيات أخرى.

واعلم أن ما يقضي به الضمير مما يجده المرء من نفسه من خلال التأمل الباطن والرجوع إلى الوجدان مع التجرد عن الرغبات الشخصية والنزعات الفردية، فما يورث في نفس المرء شعوراً بالاستقرار والراحة كان حسناً وما

---

(١) الرعد:٨.

يورث فيه قلقاً وحزازة ونكداً كان قبيحاً.

ولحكم الضمير علائم أخرى ثلاث يمكن أن يستوضحه المرء بها، ويثير مرتكزات ضميره من خلالها إذا خشي المرء من إغفاله لحكمه، انحيازاً لرغباته وتستراً منه عليها، وهذه العلامات هي ..

الأولى: أن يلاحظ الإنسان شعوره عند صدور هذا التصرف من غيره لا سيما إذا كان تجاهه، فيحب من نفسه ما يحبه من الآخرين، ويكره من نفسه ما يكرهه من الآخرين، وإلى هذا المعنى أشير بما ورد[1] في الأثر عن النبي ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، وعن أمير المؤمنين عليه السلام[2]: ((اجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك)).

والثانية: أن يختبر المرء قضاء الضمير بأن يتأمل حكم كل تصرف فعلاً أو تركاً، بما لو جرى عامة الناس على ممارسته، وينظر في مدى استساغة ضميره لذلك، فمن يستسهل الكذب ويسوغه فلينظر إلى ما لو استساغه الناس جميعاً كيف تكون مضاعفاته وآثاره، فمن تأمل حكم الأفعال كذلك كان أقرب إلى الإصابة وأبعد عن الزلل.

والثالثة: أن ينظر إلى إدراك عامة الناس وقضائهم في شأن التصرف المشتبه، فإن في إدراكهم علامة على قضاء الضمير، نظراً إلى عدم تحقق مصلحة شخصية لجميعهم في اتخاذ موقف مماثل. وبهذا سمّي المعروف معروفاً والمنكر منكراً، فإنه بالنظر إلى ما يعرفه الناس وينكرونه.

هذا، وينبغي أن يحذر الإنسان من أن تشتبه عليه مقتضيات الفطرة

---

(١) سنن النسائي ج:٨ ص:١١٥. شعب الإيمان للبيهقي ج:٣ ص:٢٦١.

(٢) نهج البلاغة ج:٣ ص:٤٥.

بمزاجيات شخصية أو عواطف مبالغ فيها على حدّ الإفراط في سبل الاستجابة للشهوات أو اتباع بعض الانفعالات كالرقة على الحيوان الباعثة على الامتناع من أكل اللحوم، أو الموجبة للقبول ببعض التصرفات القبيحة، واستهجان بعض التأديبات الحكيمة وغير ذلك مما يؤدي إلى التضييق على النفس في ما لها فيه مندوحة، أو التوسعة عليها في ما لا يسعها، فليس كل عاطفة في الإنسان هي جزء من اقتضاءات الفطرة وقوانين الحياة، بل منها ما يكون ابتلاء للإنسان وفتنة له كما هو الحال في بعض الاستعدادات المرضية، وإنما الفطرة منها ما اتصف بالاعتدال وجانَب التفريط والإفراط، وصلح قانوناً عاماً يحسن حمل الجميع عليه دون لوازم مذمومة ومضاعفات غير مقبولة.

هذا، وإن لكل أمر بحسب حكم الضمير والفطرة حداً لا ينبغي بالمرء أن يتجاوزه ويتعدى عنه، فإن الزيادة فيه كالنقصان مما يوجب المفسدة ويؤدي إلى انتهاك حكم الفطرة في جهة أهم عند تزاحم الجهات.

مساحات مشتبهة لحكم الضمير ومرجعية الشريعة فيها

وليُعلم أن هناك مساحات مشتبهة لحكم الفطرة إما في أصلها أو في كون حكمها على سبيل الإلزام أو الترجيح المحض، فلا يخوضن امرؤ فيها بالرأي والاستحسان فربما فرّط أو أفرَط وبالغ، بل ينبغي الرجوع فيها إلى رسالة الله سبحانه إلى خلقه، فإنه تعالى أعلم بنفس الإنسان وكوامنها، قال عزّ من قائل[1]: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾.

وكذلك ينبغي الرجوع إلى النبي ﷺ والمصطفَين من عترته، فإن الله تبارك وتعالى اختار أنبياءه وأوصياءهم من قوم مميزين في صفاء قلوبهم وطيبة نفوسهم ورجحان عقولهم وقوة ضمائرهم وعظمة أخلاقهم واعتدال مشاعرهم. ووجههم إلى الاستعانة به في ما أشكل عليهم، فسددهم في آرائهم

---

(١) ق:١٦.

وأرشدهم في ما أشكل عليهم، حتى كانوا مثلاً للخلق في خلقهم وأسوة لهم في أعمالهم.

وكان ذلك مما تقتضيه الحكمة بعد أن كان مضمون رسالته سبحانه إثارة العقل وتحفيز الفطرة وإيقاظ الضمير، ليأمروهم بالمعروف، وينهوهم عن المنكر، ويحلّوا لهم الطيبات، ويحرّموا عليهم الخبائث، ويوجهوهم إلى مكارم الأخلاق، وقد قال تعالى[١]: ﴿**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾، وقال[٢]: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾، وقال[٣]: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾، وقال[٤]عن نبيه الأكرم ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[٥]يذكر النبي ﷺ: ((اختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسُرّة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة .. طبيب دوار بطبه قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه. يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عُميٍ، وآذان صُمٍّ، وألسِنة بكمٍ. متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحَيرة)).

وإن شئت أن تجد مثلاً لهم فانظر إلى أمير المؤمنين عليه السلام في سيرته وأقواله التي جمعت جملة منها في كتاب نهج البلاغة، فتأمل قوة فطرته ورجاحة عقله ومتانة برهانه ودقة ملاحظاته، حتى كانت صحيفة مبسوطة للعقل السليم والفطرة الصافية والضمير الحي. وفي ذلك ما يمثّل حال معلّمه الأعظم النبي ﷺ إذ كان عليه السلام قد تربى عليه منذ نعومة أظفاره، وتعلم لديه في مدة حياته، يخطو وراءه ويقتفي أثره على ما ذكره عليه السلام عن حال نفسه، قال[٦]في كلام له:

---

(١) الأنعام:١٢٤.

(٢) الحديد:٢٥.

(٣) الروم:٣٠.

(٤) القلم:٤.

(٥) نهج البلاغة ج:١ ص:٢٠٦-٢٠٧.

(٦) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٥٧.

((ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالَم، ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثَرَ أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به)).

حقائق عن المشاعر الإنسانية

٢٠/ أ ـ ما منح الإنسان من المشاعر وأقسامها وتطورها وتربيتها

(الحقيقة ٢٠): في المشاعر النفسية وتطورها ودور التربية فيها.

إن من جملة الأمور التي أودعها الله في نفس الإنسان هي مجموعة من المشاعر المختلفة التي هي ضاربة في عمق الإنسان وجزء لا ينفك من أجزاء تكوينه النفسي. وهناك مشاعر أخرى يكتسبها الإنسان من خلال العوامل الطارئة ومن أهمها التربية.

ومن ثم تنقسم المشاعر والدوافع الإنسانية إلى قسمين ..

أ ـ فطرية، وهي ما أودع في خلقة الإنسان.

ب ـ مكتسبة، وهي المشاعر الحاصلة في أثر المحفزات النفسية والتربوية التي قد تستقر في النفس حتى قد يظن الباحث أنها فطرية لشدة تمكنها في النفس ورسوخها فيه كالعادات الراسخة.

ولا شك في أن ما يكتسب من الدوافع ليس إرساءً لدافع جديد في النفس لم تعرفه النفس ولم تعهده، بل كل دافع مكتسب فهو في أساسه نموّ لدافع فطري جهز به الإنسان ولكن بإضافة خصوصية استقرت في النفس، فالعادات الغذائية مثلاً هي نموّ لدافع الأكل والشرب ولكن حيث يستقر طعام ما في النفس الإنسانية تجد أنه يتوجه الدافع إليه، وهكذا الدوافع المكتسبة في سائر المجالات مثل الحركة والاستطلاع وغيرها، فإنها نموّ للدوافع الفطرية في تلك المجالات.

وقد لوحظ بتتبع أحوال الحيوانات ـ لاسيما الذكية منها كالكلب ـ أنها أيضاً تعتاد على أشياء بالتكرر، إلا أن مقدار قابليتها للتطور قليل بالقياس إلى الإنسان، فالإنسان من جهة إمكانياته الذهنية والعقلية المتميزة قابل للتطور النفسي تطوراً كبيراً للغاية، كما تمثله المسافة الفارقة بين إنسان وآخر مع تماثل أغلب الناس في معظم القابليات النفسية والذهنية، حتى زعم بعض علماء

النفس أن جميع الاختلافات بين الناس تتعلق بالدوافع المكتسبة، ولا يخلو ذلك عن تعميم خاطئ.

هذا، وشأن التربية في الحقيقة هي تنمية الاستعدادات والدوافع الفكرية والنفسية للإنسان، فإن كان ذلك في الاتجاه الصحيح كانت التربية سليمة، وإن كان في الاتجاه الخاطئ كانت التربية خاطئة. وهكذا الحال في سائر الحوادث التي تتفق للإنسان، فإن لها دوراً في تنمية الجوانب الفكرية والنفسية للإنسان إما إيجاباً أو سلباً.

ويصحّ القول على الإجمال أن كل تصرف من الإنسان أو حادثة في محضره ذات وقع وتأثير على النفس الإنسانية، فهي تحفر معنى في ذهنه وصفة في نفسيته، فكأنها لبنة قهرية في وجوده، ومن ثم يراعي أهل الصلاح أن يغيّبوا عن مشاهدهم رؤية ما يكرهون أن يقعوا في حبالة حبه من الدنيا، وقد جاء في الحديث[1] تحريم التعرب بعد الهجرة، والمراد به الرجوع من الوسط المساعد على الحفاظ على الدين إلى بيئة تُهيّء أرضية لنقصانه، وذكر أمير المؤمنين عليه السلام[2] في وصف إعراض النبي صلى الله عليه وآله عن الدنيا أنه: ((يكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيّبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها. فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر. وكذا من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده)).

وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر أدوات تنمية الدوافع النفسية في الأصل الثامن.

---

(١) لاحظ الكافي ج:٢ ص:٢٧٧.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٥٩ـ٦٠.

٢١/ ب ـ أنواع المشاعر النفسية ودورها في حياة الإنسان

(الحقيقة ٢١): أنواع المشاعر النفسية ودورها في حياة الإنسان.

وتنقسم مشاعر الإنسان انقساماً رئيساً إلى أنواع أربعة ..

(١) المشاعر الراقية التي ترسم الغايات التي ينبغي أن ينظر إليها الإنسان، وهي تنحصر في شعورين تقدم وصفهما، أحدهما: نزوع المرء إلى الحكمة، والآخر: نزوعه إلى الفضيلة، فإن الإنسان لا يدرك ضرورة الحكمة والفضيلة له فحسب بل هناك نزوع نفسي إليهما يُعدُّ من جملة الدوافع الفطرية للإنسان، فهو يدفع به إلى جهتهما، وينفعل في حال عدم الاستجابة له من قِبله.

(٢) المشاعر الاعتيادية النوعية، والمراد بها سائر مشاعر الإنسان التي توجد في النوع الإنساني وتشير إلى حاجات معينة له، وهي على نوعين ..

فإن منها: ما يكون لحاجات عضوية له، إما فردية كالأكل والشرب أو اجتماعية كالنكاح.

ومنها: ما يكون لحاجات نفسية له، مثل حب الاستطلاع والتلهي والاجتماع.

فما يتصف به الإنسان تجاه هذه الأشياء ليس مجرد إدراكه بالاحتياج إليها فحسب، كما يدرك المريض بالمراجعة إلى الطبيب أن علاج مرضه يتوقف على استعمال الدواء، وإنما هو نزوع في نفسه للوفاء بهذه الحاجات، ولو شاء الله تعالى لخلق الإنسان على نحو يدرك بالخبرة والملاحظة حاجة الإنسان إلى الأكل ولكنه لا يشعر بالجوع الذي يحفزه عليه وإنما يأكل لغرض حفظ حياته فحسب.

وهذا النوع من المشاعر هو من جملة المشاعر الفطرية، وهي ليست راقية لعدم دعوتها إلى الحكمة والفضيلة في حدّ ذاتها، ولا قبيحة لأنها لا تدعو في أصولها إلى الرذيلة والفاحشة.

(٣) المشاعر المرضية، وهي ما ينشأ عن الابتلاء بمرض نفسي أو عقلي أو جسمي يستتبع شعوراً معيناً، وتأثير الأمراض العقلية والنفسية في إيجاد المشاعر

الخاصة في حالها معروف. وأما الأمراض الجسدية فجزء منها تؤثر على سلوك الإنسان وعمله مثل زيادة إفراز الغدد الصماء أو قلتها.

وهذه المشاعر ليست مودعة في نفس الإنسان نوعاً، ولكنها مما يبتلى بها في أثر عوارض توجب خروج الجسم أو النفس عن الاعتدال الموجود في نوع الإنسان، ومن ثم لا تعتبر من جملة المشاعر الفطرية، حتى لو كان هذا النقص ناشئاً من الخلل الجيني والوراثي.

(٤) المشاعر الوضيعة والقبيحة، وهي مشاعر تدعو إلى الأمور المحظورة بحسب الفطرة ولا تنطفئ بغيرها، مثل الميول المنحرفة.

وبعض هذه المشاعر قطعاً ليست مشاعر أولية كي تكون فطرية، بل مشاعر مكتسبة في أثر الاعتياد والتربية غير السليمة، وناشئة عن نحو من التحوير في المشاعر الطبيعية الفطرية إلى جهة منافية مع المشاعر العالية، وهي بالأحرى نحو مشاعر مرضية، ولكنه مرض أخلاقي وتربوي، وقد يكون عليها مؤشرات جسدية ونفسية أو جينية ولكن ذلك لا يجعلها فطريةً.

هل فُطر الإنسان على بعض المشاعر الذميمة؟

وهناك بعض المشاعر الذميمة كغريزة العدوان على الغير قد يظن أنها أيضاً مما فطر عليها الإنسان. وقد يؤيد ذلك بقول الحكماء والشعراء من قبل كقول القائل:

وَالظّلمُ من شِيَمِ النّفوسِ فإن تجدْ ذا عِفّةٍ فَلعلّةٍ لا يَظْلمُ

وقبل ذلك ما ورد في النصوص من ذم الإنسان لبعض صفاته مشيرة إلى أنها من طبيعته قال سبحانه[1]: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً**﴾، وقال[2]: ﴿**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً**﴾،

---

(١) الإسراء:٦٧.

(٢) الإسراء:١٠٠.

وقال(١)في آية الأمانة: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾، وقال(٢): ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾، وقال(٣): ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾، وقال(٤): ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾.

حتى جاء في بعض الآيات الشريفة(٥)ـ بالنظر إلى مجموع ذلك ـ: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ أن الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وفي الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام(٦): ((إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم))، وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام(٧)أن: ((الغضب مفتاح كل شرّ)).

ويمكن القول إن الإنسان لم يفطر على صفة سلبية في أصلها، وأما الأوصاف المذكورة فمن الواضح في بعضها أنها ليست صفة شرٍ في أصلها كما في الغضب، فإن الغضب قوة انفعالية قد يكون لحق ويستتبع تصرفاً حكيماً، فهو حينئذٍ قوة نافعة تزيد من طاقة الإنسان على الإقدام والصبر والتحمل، وقد يكون لغير حق أو يستتبع تصرفاً غير حكيم فيكون ضاراً حينئذٍ.

وعليه فحالها حال الرغبات والشهوات التي ينتفع بأصلها ولكن لا بد من تهذيبها، كما في جدل الإنسان والذي يمكن أن يكون مجادلة عن الحق وبالحكمة فيكون ممدوحاً كما قال تعالى(٨): ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، على أنه صفة مكتسبة عن صفة التفكير والدفاع عن النفس.

---

(١) الأحزاب:٧٢.

(٢) العلق:٦ـ٧.

(٣) الإسراء:١١.

(٤) الكهف:٥٤.

(٥) العصر:١ـ٣.

(٦) لاحظ الكافي ج:٢ ص:٣٠٤ـ٣٠٥.

(٧) لاحظ الكافي ج:٢ ص:٣٠٣.

(٨) النحل:١٢٥.

وأما بعضها الآخر فهي ميول مكتسبة بوضوح وليست فطرية، والميول المكتسبة هي توجيه الميل الفطري إلى اتجاه معين يصير ملكة للإنسان بكثرة الممارسة والاعتياد فيتجذر في النفس، مثلاً طغيان الإنسان بالترف والغنى يرجع إلى أن الغنى بيئة تنمّي نوازع التكبر والتجبّر في النفس، وما ينمو من خلال البيئة ليس صفة فطرية بطبيعة الحال.

نعم قد يشتبه الأمر في صفة العدوان والظلم وما يرجع إليه مثل الكفران، حيث رأى بعض علماء النفس أنها متجذرة في النفس، ولكن الواقع ـ كما عليه معظم علماء النفس ـ أنها ليست فطرية وإنما تتولد عن طلب المال والجاه ونحوهما مما هو غريزة في الإنسان، بضميمة الاعتقاد بأن ذلك إنما يحصل بالاعتداء على الغير.

وعليه يمكن القول بأنه ليس هناك صفة فُطِر عليها الإنسان تكون في أصلها صفة شر، بحيث ينبغي للإنسان أن يكبتها أصلاً ويجمدها تماماً، بل كل ما فطر عليه الإنسان إنما كان على وَفقِ حاجاته، ولكن يمكن أن يؤدي الغلو والمبالغة فيها إلى وقوعه في الشر، فلا بد أن يعقل بعقال الحكمة والأخلاق.

ومن ثم يصح القول إن اقتضاء الفطرة لشيء يستوجب المشروعية الأخلاقية والقانونية له على وَفقِ القانون الفطري، من جهة التناسق بين البعدين التكويني والتشريعي في الإنسان.

وأما النصوص المذكورة فهي ليست ناظرة إلى جعل تلك الصفات أولية وفطرية للإنسان، بل هي ناظرة إلى معنى أوسع، وهذا ما يقتضيه الالتفات إلى الآيات التي مدحت الفطرة الإنسانية وجعلت خلق الإنسان في أحسن تقويم ووصفت الشيطان بأنه يسعى إلى تغيير خلق الله، منسجماً في ذلك مع الأصل العام الذي دلّت عليه من أنه سبحانه: ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[(١)].

وعليه فالمشاعر الفطرية جميعها مشاعر سليمة جسدياً ونفسياً وأخلاقياً، ولمزيد من التأكد والمتابعة للموضوع مجال.

---

(١) الكهف:٥٠.

هذا، وتنحصر المشاعر الفطرية في نوعين: المشاعر العالية، والمشاعر الاعتيادية النوعية. وما عداهما ناشٍ من عدم السلامة حتى لو كان متأثراً بخصائص جينية، وليس جزءاً من مقتضيات خلقة الإنسان وفطرته، بل هي من جملة ابتلاءاته في هذه الحياة ومشاكله مثل نقصان العضو، ولا بد له من معالجته بالدواء والأساليب التربوية، وإلا أوجب خللاً في الحياة الفردية والاجتماعية.

سرّ تزويد الإنسان بالمشاعر الفطرية

وقد زُوّد الإنسان المشاعرَ الفطريةَ بنوعيها لحاجة له إليها ..

أما المشاعر العالية فقد جُعِلَت في الإنسان كدعم نفسي للإدراك الحكيم على وَفقِها، لمساعدة هذا الإدراك على قيادة حياة الإنسان في مناحيها كلها، والإشراف العام عليها.

وأما المشاعر الاعتيادية النوعية فقد جُعِلَت هي أيضاً بدورها دعماً وتحفيزاً للإدراك بالحاجات التي طُبع عليها الإنسان، فلو أدرك الإنسان أن بقاءه يتوقف على تناول الطعام والشراب من دون إحساس بالجوع لَضَعُفت إرادته عن حفظ نفسه أو غفل عنه، وكذلك الحال لو علم أن سلامته تتوقف على الوقاية أو العلاج من دون إحساس بالألم أو مخافة منه فإنه يغفل عن رعاية ذلك أو يتهاون فيه، ولكن الإحساس بالجوع والألم يساعده على تحفيز هذا الإدراك والعمل به، وهذا مثال لتناسق الصفات النفسية وتكاملها حسب بديع صنعه سبحانه وتعالى.

وهناك بُعد آخر لهذا الإدراك والمشاعر المساندة له، وهو دلالته على تأمين احتياجات الإنسان تلك في هذه الحياة، فحاجة الإنسان إلى الأكل والشرب تدل على أنه قد خلق معه ما يأكله ويشربه، وحاجة الإنسان إلى النكاح تدل على أن الله سبحانه خلق الإنسان زوجين ذكراً وأنثى، وشعور الطفل نفسياً بالحاجة إلى عاطفة الأم يدل على وجود الأم وغرز هذه العاطفة فيها نوعاً، وشعور الأم بالحاجة إلى الأمومة يدل على أنها ترزق طفلاً بحسب نواميس خلقتها، وتحتاج

إلى هذه العاطفة في ذلك .. وهكذا، وفي ذلك مثل آخر من تناسق خلقة الله سبحانه وتعالى.

وبالنظر إلى ملاحظة تناسق جهات الخلقة في الكائنات ذهبت بعض المدارس الحديثة في علم النفس[١] إلى أن لكل سلوك غرضاً وغاية ينتهي إليها، فللغايات والأغراض دور أساس في تحديد سلوك الكائن الحي وتوجيهه، فكل سلوك يصدر من الكائن الحي ـ إنساناً كان أو حيواناً ـ يهدف إلى غاية ويتجه إلى تحقيق غرض، حتى وإن لم يكن يشعر بصدوره منه لهذا الغرض، فالطائر الذي يجمع الأغصان لبناء عشّه ليس شاعراً بالغرض البعيد من سلوكه، وهو المحافظة على نوعه، كما إن الإنسان كثيراً ما يقوم بأفعال لا يكون الغرض منها واضحاً في ذهنه، كأن يرفع صوته في أثناء الحديث على حين فجأة، أو يفضل السير في طريق دون آخر.

٢٢/ ج ـ المشاعر الاعتيادية نعمة للإنسان وابتلاء في هذه الحياة

(الحقيقة ٢٢): أن المشاعر الفطرية الاعتيادية هي نعمة للإنسان وابتلاء له في هذه الحياة.

قد يُظن في بادئ النظر أن المشاعر الفطرية الاعتيادية المعروفة بـ(الشهوات) هي مشاعر دنيئة ومذمومة في نظر الشرع، حيث تذم تارة بعنوانها كما قال سبحانه[٢]: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾، وأخرى بعنوان (النفس) كما في قوله تعالى[٣]: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ**﴾.

وإلى ذلك ينظر ما ورد من الذم الشديد لـ(الدنيا)، فإن ذمها بلحاظ

---

(١) يعبّر عنها بالمدرسة الغرضية.

(٢) آل عمران:١٤.

(٣) يوسف:٥٣.

تعلقات الإنسان بها استجابة لتلك الشهوات وليس بلحاظ هذه النشأة نفسها، وإلا فهذه النشأة باعتبار آخر هي مزرعة للآخرة، فيها يزرع الإنسان بذور السعادة وتكون لأعمال الإنسان فيها قيمة عليا، وهي موطن التحلي بالفضائل والأعمال النبيلة، ومن ثم جاء مدحها في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام بما يشير إلى هذه الأوصاف على الرّغم من ذمه إياها ـ أي الدنيا ـ في عامة كلماته، ولكن جاءت ذمومه عليه السلام لها في مقام التحذير منها، ومدحها في مقام إلقاء العيب عليها بما يوجب تكاسل المرء فيها عن الأعمال الصالحة.

ومن ثم جاء أنه ذكر ذلك عندما سمع رجلاً يذم الدنيا، فقال[1]: ((أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها ثم تذمها، أتغتر بالدنيا ثم تذمها، أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك؟.. إن الدنيا دار صدق لمن صدَقها، ودار عافية لمن فهِمَ عنها، ودار غنى لمن تزود منها ودار موعظة لمن اتعظ بها. مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله. اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة. فمن ذا يذمها وقد آذنت ببيْنها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة. ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدّقوا، ووعظتهم فاتّعظوا)).

وتفريعاً على الظن المتقدم ربما يؤسس منهج تربوي للإنسان على أساس ترك المرء للدنيا ما استطاع وقمعه لتلك الرغبات، مثل ترك الزواج وعدم طلب الولد قمعاً لغريزة النكاح والبقاء، والتقتير في الإنفاق على النفس وعدم تحصيل المال بترك الكسب قمعاً لغريزة الأكل والشرب، وعدم التصدي لأي موقع قمعاً لحب الجاه والمكانة بين الناس، والاعتزال عن الناس قمعاً لحب الاجتماع، وترك الاطلاع على شؤون المجتمع والحكم قمعاً لحب الاستطلاع، إلى غير ذلك.

ولكن الصحيح ـ على ما وردت به الرسائل الإلهية التي بعثها إلى خلقه

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:٣١-٣٢.

وتقضي به الفطرة السليمة ـ خلاف ذلك، بل مقتضاهما أن أصل الاستمتاع بهذه المشاعر نعمة للإنسان يستحق أن يشكر الله سبحانه عليها، ولكن عليه رعاية الاعتدال في ممارستها، كما يدل على ذلك نهيه تعالى عن الإسراف في الإنفاق فقال عزّ من قائل[١]: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾، وقد ذكر سبحانه دعاء المؤمنين لأنفسهم بالذرية الصالحة فقال[٢]: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾، وقد حكى طلب الذرية عن جمع من أنبيائه عليهم السلام كإبراهيم وزكريا عليهما السلام فقال[٣]: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾، ونهى من تجنب الزينة والطيبات من الرزق فقال[٤]: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾، وأوصى بتوثيق الدّين حذراً من ضياع حق الدائن فقال[٥]: ﴿**وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ**﴾.

وقد جاء عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه سمع عن بعض الصحابة تركهم للنساء والطيبات فنهرهم عن ذلك، وقال[٦]: ((ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللحم ولا يشمون الطيب ولا يأتون النساء، أما إني آكل اللحم وأشم الطيب وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)). وفي حديث آخر[٧] أنه قال لعثمان بن مظعون: ((يا عثمان لم يرسلني الله تعالى بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة، أصوم وأصلي وألمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستنّ

---

(١) الإسراء:٢٩.

(٢) الفرقان:٧٤.

(٣) آل عمران:٣٨.

(٤) الأعراف:٣٢.

(٥) البقرة:٢٨٢.

(٦) الكافي ج:٥ ص:٤٩٦.

(٧) الكافي ج:٥ ص:٤٩٤.

بسنتي، ومن سنتي النكاح)).

وقد جزع عليه السلام عند وفاة أحبته كأبي طالب وخديجة وجعفر وحمزة وابنه إبراهيم، وقال عند ممات ابنه إبراهيم[١]: ((تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب)).

وكان صلى الله عليه وآله يشبع ويجوع، ويصوم ويفطر، ويتزوج ويعتكف، ويتعبد ويستريح من العبادة، وكان صلى الله عليه وآله يشكر الله سبحانه وتعالى على نعمه كلها من مأكل ومشرب ومنام وغيرها كما ذكر في سيرته.

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مثل هذه السيرة، وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام[٢] أنه زار العلاء بن زياد الحارثي يعوده في مرض له ـ وكان من أصحابه ـ وقد عاتبه على سعة داره، ثم شكى إليه العلاء أخاه عاصماً، قال: ((وما له؟))، قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: ((عليّ به)). فلما جاء قال: ((يا عديّ نفسه، لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك))، قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك. قال: ((ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضَعَفَة الناس كيلا يتبيغ[٣] بالفقير فقره)).

كما جاء في الأدعية الشريفة للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام طلب العافية والرزق والولد والزوجة والمكانة الطيبة عند الناس، والاستعاذة من كيد الشياطين والأعداء والأمراض وغيرها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الله تبارك وتعالى شوّق الإنسان إلى الطاعة بنعيم الجنة وحذّره من المعصية بأليم النار، ووصف ذلك أوصافاً بليغة تأخذ بمجامع القلوب كما في آيات شريفة لا تحصى، ولم يجعل نعيمه سبحانه في الجنة محض

---

(١) لاحظ تحف العقول عن آل الرسول ص:٣٧، والاستيعاب لابن عبد البر ج:١ ص:٥٥.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٨٧-١٨٨. وروي في الكافي ج:١ ص:٤١٠ قريباً منه.

(٣) أي يهيج به الألم فيهلكه.

الحضور عنده والكرامة لديه وإن وصف ذلك، ولم يستثن عن هذا المعنى الأنبياء والصالحين، بل صرّح بتعميمه لهم، وهذا يدل على تأصل هذه الحاجات في كيان الإنسان.

بل ورد في النصوص ـ كتاباً وسنةً ـ وصف ما يجده المرء من النعمة والنقمة في عالم البرزخ، وهو عالم ألطف من عالم المادة، لا يشهده عموم الناس في هذه الحياة، وذلك يدل على أن المرء بعد انفصال روحه لم يزل يستمتع بجملة من النعم ويشقى بما يجده من النقم، ولكن نِعَم البرزخ ونقمه هي ضرب لطيف منها على حدّ روح الإنسان فيه.

ومن جهة ثالثة فإن الله سبحانه وصف في رسائله إلى خلقه ما رزق به الإنسانَ من هذه الأشياء نعماً للإنسان يستوجب شكر المرء إياه عليها وامتنانه من أجلها، قال تعالى[1]: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾.

وذكر أنه أكرم أولياءه بنعم رزقهم إياها في هذه الحياة كما قال[2] عن مريم عليها السلام: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، وقال[3] عن إبراهيم: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.

ومن جهة رابعة فإن الله سبحانه رغب في توفير هذه النعم للآخرين بإعانتهم في حوائجهم المادية، ووعد عليه بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

---

(١) إبراهيم:٣٢-٣٤.

(٢) آل عمران:٣٧.

(٣) العنكبوت:٢٧.

وعليه فلا ينبغي الشك بحسب الرسائل الإلهية في أن مشاعر الاحتياج إلى هذه النعم والاستمتاع بها هي نعمة للإنسان ينبغي أن يشكر الله سبحانه وتعالى عليها، ويقبح من المرء أن يحتقرها ويزعم الاستغناء عنها.

وهذا المعنى مما يوافق حكم الفطرة على العموم لوجوه عدة ..

١ ـ إن هذه المشاعر والحاجات المادية هي مزروعة في كيان الإنسان وذاته، فلا يكون المرء ملوماً على ممارستها والاستجابة لها، لأن ما فُطِر عليه المرء هو جزء من النظام الحكيم الذي خُلقت عليه الأشياء، وليس أمراً عرضياً حتى يُجعَل من قبيل الابتلاء.

٢ ـ إن قمع الإنسان لهذه الشهوات وكبته إياها من غير حكمة يولّد في الإنسان غالباً اضطرابات أخلاقية لا يمكن له أن يسيطر عليها، ولا يُتاح له التخلص منها، وقد تكون بعض الإفرازات غير الأخلاقية رمزية لا تتضح صلة واضحة بينها وبين الجهة المقموعة في داخل الإنسان، مما يعقد سبيل علاجها، ومن ثم ورد استحباب التكسب للإنسان، وورد الترغيب في النكاح كما في الحديث عن النبي ﷺ[1]: ((من تزوّج أحرزَ نصفَ دينه فليتّقِ اللهَ في النّصفِ الآخر))، وقد لوحظ أن بعض المناهج التربوية التي بنيت على تجارب بشرية وقعت في محاذير من جهة ترك النكاح من هذه الجهة.

٣ ـ إن كثيراً من وجوه الحكمة التي يحتاجها الإنسان في التعامل مع نفسه ومع الآخرين يتوقف على ممارسته لهذه الحياة على نحو معتدل حتى يعرف موطئ قدمه فيها، وإلا فرّط أو أفرط، أو وقع وسيلة لآخرين من حيث لا يحتسب إلى كثير من المحاذير النوعية، ومن ثم أرسل الله سبحانه الأنبياء من الوسط الذي كانوا يعيشونه مع اعتدال في صفاتهم ورغباتهم.

٤ ـ إن كثيراً من وجوه القمع لا تستمر على حالها، إذ أنها ليست عمليةً لصاحبها، ومن ثم قد تؤدي إلى الإفراط على وجوه أخرى بعد ما كان المنهج المتبع يقتضي تركها أو التقليل منها، ويوجّه الإفراط حينئذٍ بتوجيهات متكلفة

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٣٢٨-٣٢٩.

ناشئة من الهوى، وقد لوحظ أن بعض هذه المناهج أدى في النهاية إلى تشريع الإباحية أو بعض وجوهها، واستعمال الحيل المختلفة لكسب المال والجاه، والاتصال لتحصيلهما بمصادر مشبوهة إلى غير ذلك مما يعرفه الناظر في التاريخ.

وبالنظر إلى اقتضاء الفطرة للاستجابة لهذه المشاعر يمكن استنباط حلية هذه الاستجابة على العموم وعدم مذموميتها بحسب قانون الفطرة واقتضاء الضمير لتناسق التكوين الفطري مع التشريع الفطري، على ما تقتضيه الحكمة وتشير إليه الرسائل الإلهية إلى الخلق في أن دين الله سبحانه هو دين الفطرة، قال عزّ من قائل[1]: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.

فالمشاعر والرغبات المذكورة هي نعمة للإنسان في أصلها، شريطة الاعتدال فيها ومراعاة الحكمة والفضيلة في الاستجابة لها، ولكنها باعتبار آخر هي ابتلاء للإنسان في هذه الحياة، لأنها عرضة للافتتان بها والمبالغة فيها، وذلك لأن هذه المشاعر ليست محدودة بحدود الحكمة والفضيلة في حدّ ذاتها، فالنزوع إلى الأكل والشرب وجمع المال وتحصيل الجاه ونحوها نزوع مطلق ليست غايته إلا إرضاء هذا الشعور، ولا تنطفئ تلقائياً في موارد كون الاستجابة لها مخالفة للحكمة أو الفضيلة حتى لو علم المرء بذلك، بل لا بد من إلجامها بلجامهما وتقييدها بقيودهما حتى لا تؤدي بالإنسان إلى الشقاء، وبذلك تتفق في النفس معركة بين جنود الحكمة والفضيلة وبين جنود هذه الشهوات والرغبات، فلا بد للمرء أن يسعى إلى تغليب جنود الحكمة والفضيلة في مقابل جنود الشهوة والرذيلة. وهذا هو صلب عملية تزكية النفس، وبها سميت بـ(الجهاد الأكبر).

وليس المقصود بتغليب تلك الجنود استئصال الرغبات النفسية من أصلها، لما عرفت من أنها جزء من كيان الإنسان، ولكن المراد ترشيدها وتقييدها والحذر من تغوّلها كي لا تسخّر النفس بتمام قواها وتكون لها القيادة من بينها، فإن قيادة النفس لا بد أن تكون للقوى الداعية إلى الحكمة والفضيلة حتى يسعد

---

(١) الروم:٣٠.

المرء في هذه الحياة وما بعدها.

والواقع أن حقيقة هذا النزاع ليس بين هذه الشهوات وما يضادها، بل بين المستوى الحاضر الجامح منها وبين المستوى الغائب والمستقبلي منها، وذلك لأن تقييد الحاضر منها إنما يكون لصالح ما يرجى منها لاحقاً، فمن يكفّ عن تحصيل المال والجاه بوسائل غير مشروعة يضمن بذلك سعادته المادية في هذه الحياة نوعاً، وكذلك سعادة مجتمعه العائدة بالنفع عليه، كما يضمن سعادته المادية في ما بعد هذه الحياة، وذلك مستوى من السعادة المادية أيضاً ولكنه أقوى وآكد من السعادة العاجلة التي يجدها في الاستمتاع بالمال والجاه غير المشروع، ومن ثم تكون أولى بمراعاتها، فالحكمة ليست قمعاً للشهوات أو تحديداً لها من أجل غيرها، وإنما هي تحديد الحاضر الجامح منها لمصلحة ما هو من سنخها ولكنه آكد منها.

نعم من يحدد هذه الشهوات بداعي الفضيلة لما يقتضيه انتهاكها أو فواتها فهو في الحقيقة إنما يحددها لصالح أمور ومعان هي أرقى منها، ولكن لا مانع من اجتماع داعي الحكمة والفضيلة جميعاً، إذ ليس من الفضيلة ـ بحسب قانون الفطرة والشرع ـ عدم طلب الإنسان لأية سعادة مادية ولو في الآجل، وإنما الفضيلة تقتضي الاستماع إلى ندائها والاستجابة لها، فمن كان صوت الفضيلة في نفسه أقوى كان أفضل، وإن ضم إليه مراعاة الحكمة وضمان السعادة المستقبلية كما سبق ذكر ذلك.

٢٣/ د ـ صراع الشهوات وجنود العقل والضمير

(الحقيقة ٢٣): في وصف الصراع بين المشاعر وجنود العقل والضمير.

واعلم أن الصراع بين جنود العقل والضمير وبين جنود الشهوات العاجلة والرغبات الجامحة صراع عميق، فإنه وإن كان ينطلق من الممارسات والأعمال التي هي الغايات المنظورة بها، إلا أنه يؤثر على مقام الإدراكات والملكات والاهتمامات والأدوات.

فمن تأثير الشهوات في الإدراكات أنها قد تحول دون الإدراك الصحيح للمشهد، وذلك فيما إذا لم يستند الإنسان في ممانعتها إلى إدراكه للحقائق والواقعيات، فتتذرّع النفس في ارتكابها بإنكار الواقع المشهود، أو التشكيك فيه معرضاً عن البحث عنه.

مثلاً: إذا كان مستند المرء في حيلولته دون مقتضى رغباته الإذعان بالحقائق الكبرى في الوجود ـ من الله سبحانه والدار الآخرة ـ وما يقتضيه هذا الإذعان ـ من الاقتصاد في الشهوات وتحديدها ـ تجد أن النفس تنزع إلى التشكيك فيها أو إنكارها، إما لأصلها أو لما تتوقف عليه الاستجابة للرغبة وإرضاؤها، وقد يبدي هذا التشكيك بصيغة فنية فلسفية، إلا أنه في عمقه ينشأ عن كراهة النفس لتقييدها باسم الدين.

وإذا كانت ممانعة المرء لبعض رغباته الجامحة على أساس معطيات اجتماعية أو صحية تنكّرت لها النفس أو شككت فيها، وفسرت الأمور على نحو آخر.

وهذه أمور واضحة يشهدها الإنسان لدى الأطفال بصور بدائية وساذجة، ويجدها لدى الآخرين من الكبار عند تأمل الخلافات العقائدية والسياسية والاجتماعية وغيرها، ويجدها المنصف من نفسه ولو في بعض خطواته لا سيما التي أعقبت ندماً وأورثت خللاً.

وكثير من الأبحاث التي تروج في بعض الأوساط في هذا العصر في المجالات المذكورة هي وليدة رغبات محددة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الكبيرة والمجتمعات المعتادة على ثقافة معينة، وليست مهنية تماماً.

ومن هنا تتوقف عملية التعلم على بعض مراتب التزكية، لحاجة الإدراك الصحيح إلى صفاء النية والحياد تجاه تأمين الرغبات والانقياد للحقيقة، وذلك مما يترتب على تزكية النفس وسلامتها.

وأما تأثير الشهوات في الملكات النفسية فلأن من أراد أن يكون طوع رغبته استرسل في تصرفاته وأعطى قياده لها، ولا حاجة به إلى إرساء الملكات

الفاضلة والقيم النبيلة في نفسه، بل يكون ذلك مرغوباً عنه لديه، لأنها تعيق تحقيق رغباته وتقتضي محاسبتها فهو يكره الحديث عنها، وأما من أراد مراعاة الحكمة والضمير فلا بد أن يربي نفسه ويهذب دوافعه وانفعالاته، ويرسي للتعقل والأخلاق أسساً في نفسه حتى يكون لهما صوتٌ مسموعٌ ونداءٌ مستجابٌ، لأن تصرفات الإنسان ليست فجائية، وإنما تنطلق من أسس نفسية، فلا يمكن التحكم فيها دون التمهيد لها.

وأما تأثير الشهوات على الاهتمامات النفسية فهو ظاهر، فمن آثر الشهوات عاش في أجوائها ودارت هواجسه حولها، ونظر إلى آفاق الحياة من زاويتها، ولم يرغب في أن يسمع حديثاً ينغصها في نفسه عن الحقائق الماثلة والقيم الفاضلة، ومن نظر إلى مقتضيات الحكمة والضمير أبصر هذه الحياة من أفق أوسع واحتقر المبالغة في الشهوات، ورأى أنها حاجبة للمرء عن إدراك الأمور وملهية له عن السلوك الصحيح، ومن ثم ورد عن رسول الله ﷺ[1]: ((إن الجنة حُفّت بالمكاره وإن النار حُفّت بالشهوات))، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال[2]: ((إن الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها. وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماشٍ بينهما، كلما قرب من واحد بعد من الآخر. وهما بعدُ ضرتان)).

وأما تأثير الشهوات في الأدوات التي يملكها الإنسان لفعل الخير فلأن الأدوات التي يمكن أن يستعين بها المرء من أوقات وطاقات نفسية وجسدية ومالية واجتماعية محدودة بطبيعة الحال، فالإنسان مخيَّر بين أن يصرفها في شهواته ورغباته فتنقضي بذهاب متعتها، وبين أن يستثمرها ويصرفها في مسار حكيم وسلوك فاضل، قال سبحانه[3]: ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا**

---

(١) لاحظ نهج البلاغة ج:٢ ص:٩٠.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:٢٣.

(٣) آل عمران:٩٢.

تنفقوا من شيء فإنّ الله به عليم﴾. وقال في وصف الأنصار[1]: **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**.

ولو تأمّل المرء صراع الحِكَم والفضائل مع الرغبات والشهوات في نفسه حيث يخيّر النفس بينها لوقف على أمثلة كثيرة لذلك.

واعلم ـ سددك الله ـ أن صراع الحكمة والفضيلة مع الشهوات منه ما هو ظاهر جليّ، حيث يخير المرء نفسه بين موقفين في أحدهما إرضاء لشهوته وفي الآخر إرضاء لضميره، ولذلك أمثلة لكل امرئ في حياته. ومنه ما هو باطن خفي، حيث إن النوازع النفسية تعمل عملها ويغلب ما برمج المرء حياته عليه منها من دون الحاجة إلى استحضار تفصيلي لها، ولكنه عند تحليل بواعثه ودواعيه يكشف طبيعة العوامل المتصارعة وما غلب منها.

فتبين مما سبق أن المشاعر على أقسام أربعة يختلف مقتضى الحكمة في التعامل معها، وهي: حميدة، ومشروعة، ونقيصة، ومذمومة. فالحميدة ما تدعو إلى الخير والحكمة، واللازم تنميتها وترسيخها. والمشروعة ما فطر عليه الإنسان من وجوه الاستمتاع، واللازم القناعة فيها وعدم المبالغة فيها. والنقيصة هي ما كانت حالة مرضية، واللازم معالجتها. والذميمة ما كانت تدعو إلى أمور غير أخلاقية، واللازم إصلاحها ومقاومتها.

٢٤/ هـ ـ الاختلال في إدراك الدوافع النفسية

(الحقيقة ٢٤): في وجوه الاختلال في إدراك الدوافع النفسية.

إن من أهم وجوه الاختلال في الإدراك ما يتعلق بإدراك الإنسان بدوافعه ونياته، لأن الدوافع بطبيعتها أمور كامنة، وكثير منها ينبعث عن العقل الباطن ومرتكزاته الخفية، مما يحتاج إلى مزيد تحليل واستبطان واختبار من المرء لنفسه.

وقد لوحظ أن النّفس الإنسانية كثيراً ما تدّعي المشاعر الحكيمة والنبيلة من غير أن يتصف المرء بها، سواء كان ذلك في ما بينه وبين نفسه كما هو الحال في

---

(١) الحشر:٩.

من كان يذعن أنها مشاعر فاضلة فعلاً، فيكره أن يعترف على نفسه منقصة الخلو منها، فيعتقدها لنفسه.

فمن ذلك ما يقع في دعوى المحبة للغير كمن يدعي أنه يحب الله سبحانه ويرجوه ويخشاه، لأنه يعتقد أنه يجب أن يكون كذلك، وليس متصفاً بذلك فعلاً. وقد يكون ذلك في ما بينه وبين الناس تجمّلاً أمامهم أو مسايرة معهم، وقد يتصف ببعض المظاهر المناسبة لتلك المشاعر، وقد يتصف بدرجة خفيفة من الشعور الذي يدعيه ولكنه يدعي ما يزيد عليه، وعلامة هذه المشاعر أنها لا تستتبع الآثار المناسبة لها.

وقد نبّه الله سبحانه وتعالى في عدة آيات على مثل هذه المشاعر كقوله تعالى[١]: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾، وقوله[٢]: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾.

وفي كلام لأمير المؤمنين عليه السلام[٣] في مقطع تعرض فيه لنقد مزاعم العباد في رجائهم لله سبحانه وخوفهم منه، قال: ((يدعي بزعمه أنه يرجو الله. كذب والعظيم، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله؟ فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله .. إلا رجاء الله تعالى فإنه مدخول، وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول، يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد ما لا يعطي الرب. فما بال الله جل ثناؤه يقصر به عما يصنع لعباده؟ أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً؟ أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً؟ وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي ربه، فجعل خوفه من العباد نقداً، وخوفه من خالقهم ضماراً ووعداً. وكذلك من عظمت الدنيا في عينه، وكبر موقعها في قلبه آثرها على الله تعالى فانقطع إليها وصار عبداً لها)).

---

(١) آل عمران:٣١.

(٢) الجمعة:٦ـ٧.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:٥٦ـ٥٧.

ومن ذلك ما يدعيه الإنسان من أنه يريد الخير ولكنه لا يستطيعه، ويكره الشر ولكن لا محيص له عنه، ومن ذلك ما نبه عليه سبحانه، فقال[١]: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ ثم قال تعالى[٢]: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾.

أو يأتي بالشرّ ويدّعي أنه أراد الخير قال عزّ من قائل[٤]: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾.

ومن أسباب ادّعاء المرء الشعورَ الحكيم والنبيل من دون أن يتصف به أن يقع في موضع يتوقع منه ذلك، فمن كان إنساناً اعتيادياً في الحياة لا يتكلف في ادعاء مثل هذه المشاعر كثيراً، ولكن من كان في موضع القيادة للآخرين ويسعى إلى سَوقهم إلى حيث يريد بترغيب أو ترهيب أو إقناع، أو كان في موضع القدوة والمثل، أو كان معلّماً للحكَم والفضائل من خلال الكتب الإلهية أو غيرها يبتلى بهذا الادعاء كثيراً كما قال سبحانه[٥]عن فرعون: ﴿**إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾.

وقد يرصد الإنسان شعوراً ما ولكن يشتبه في تحليل منشئه فيجد من نفسه شعوراً فعلياً تجاه شخص أو شيء ولكنه يرى أن هذا الشعور إنما هو لخصوصية ما ـ تكون نبيلة على الأغلب ـ مثل صفاته وأخلاقه وسلوكه ودينه والتزامه،

---

(١) التوبة:٤٢.

(٢) التوبة:٤٦.

(٣) التوبة:٧٥ـ٧٦.

(٤) التوبة:١٠٧.

(٥) غافر:٢٦.

ولكنه في الحقيقة لخصوصية أخرى هي غالباً رغبة إنسانية اعتيادية من قبيل جماله وجاهه وثروته وما إلى ذلك، وقد يشتبه الأمر على الإنسان نفسه في مثل ذلك حتى إذا وقع في المحك تبيّنت حقيقة ما كان يصبو إليه ويتعلق به.

مثلاً: من الناس من يدعي الإنسانية والالتزام، فإذا اقتضى ذلك تضحية منه وجدته يتراجع ويخفي نفسه، أو يصطنع لنفسه شبهة ليبرّر لها عدم العمل بوظيفته، ولذلك كانت الامتحانات الإلهية للإنسان حتى يميز سبحانه الصادق من الكاذب والطيب من الخبيث، قال تعالى[١]: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾، وقال[٢]: ﴿**مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ..**﴾.

وقال الشيخ الأنصاري ﷺ[٣] في كلام له في بحث الغناء ـ بعد البناء على أن الغناء كيفية صوتية لهوية وليس مقيداً بكون المضمون لهوياً ـ: (وظهر مما ذكرنا أنه لا فرق بين استعمال هذه الكيفية في كلام حق أو باطل، فقراءة القرآن والدعاء والمراثي بصوت يرجع فيه على سبيل اللهو لا إشكال في حرمتها ولا في تضاعف عقابها، لكونها معصية في مقام الطاعة، واستخفافاً بالمقرو والمدعو والمرثي.

ومن أوضح تسويلات الشيطان أن الرجل المتستر قد تدعوه نفسه ـ من أجل التفرج والتنزه والتلذذ ـ إلى ما يوجب نشاطه ورفع الكسالة عنه من الزمزمة الملهية، فيجعل ذلك في بيت من الشعر المنظوم في الحكم والمراثي ونحوها فيتغنى به، أو يحضر عند من يفعل ذلك. وربما يعدُّ مجلساً من أجل إحضار أصحاب الألحان، ويسميه (مجلس المرثية) فيحصل له بذلك ما لا يحصل له من ضرب الأوتار من النشاط والانبساط، وربما يبكي في خلال ذلك من أجل

---

(١) العنكبوت:٢ـ٣.

(٢) آل عمران:١٧٩.

(٣) كتاب المكاسب ج:١ ص:٢٩٧ـ٢٩٨.

الهموم المركوزة في قلبه الغائبة عن خاطره، من فقد ما تستحضره القوى الشهوية، ويتخيل أنه بكى في المرثية وفاز بالمرتبة العالية، وقد أشرف على النزول إلى دركات الهاوية، فلا ملجأ إلا إلى الله من شرّ الشيطان والنفس الغاوية).

وليعلم أن أخوف ما يخافه المعنيون بتزكية أنفسهم هو أن تخفى عليهم حقيقة مشاعرهم ونيّاتهم ومن ثم لم يزالوا يخفون أعمالهم الصالحة ـ غير الفرائض ـ وهم على وجل منها ويعوذون إلى الله سبحانه من الرياء والنفاق، ويسألونه الإخلاص في العمل كما قال أمير المؤمنين عليه السلام[1] في وصف المتقين: ((لا يرضون من أعمالهم القليل. ولا يستكثرون الكثير. فهم لأنفسهم متهمون. ومن أعمالهم مشفقون. إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له .. فمن علامة أحدهم.. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل)).

وأشد المواطن في ذلك موارد الشبهات حيث يكون الباطل أقرب إلى رغبات الإنسان وأهوائه، لشهوة أو تقليد أو تثاقل أو انفعال أو نحوها، ويجد سبيلاً لتوجيهه بغطاء من الحق، فإذا لم يحذر موّهاً على نفسه واختار سبيل الباطل وهو يزعم أنه سلك سبيل الحق ويتهم أهل الحق في ما ساروا عليه، وقد يقتدي به ويسمع قوله آخرون فيحمل أوزارهم مع وزره ويبوء بالإثم العظيم.

وإذا كانت المسألة عقائدية أو كانت فتنة اجتماعية تبتني عليها أمور النفوس والأمراض والأموال كان المحذور أشدّ والخطب أعظم، وفي تأمل الخلافات الفكرية في مسائل حساسة تتصل بأصول العقائد أو بالفتن الاجتماعية ما يدل الإنسان على عظم الخطورة في مثله، حيث يجد المرء بوضوح بعد تبين الحق وانقشاع الشبهة وانقضاء الفتنة كيف أثرت الأهواء في جماعات كلهم كان يدعي الحق ويعدّ في قيادات حملته، فحدثت خلافات أريقت عليها الدماء الغزيرة وأزهقت النفوس المحترمة، واستبيحت الأموال وأسست للفرقة في هذه الأمة حتى يرث الله الأرض وما عليها، وإنما نحن بشر مثل هؤلاء، نكون عرضة لمثل ما اعترضهم ومظنة لنحو ما فتنهم، وإنما نستوضح ما وقع من الأمور

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٦٢ـ١٦٣.

السابقة لارتفاع الشبهة في بيئاتنا وانقضاء تلك الفتنة في زماننا، كما جاء في الأثر[١]: ((إن الفتن إذا أقبلت شبَّهت، وإذا أدبرت نبَّهت، يُنكرن مقبلات ويُعرفن مدبرات، يَحُمن حوم الرياح، يُصبن بلداً ويُخطئن بلداً)).

ولكن الإنسان يختبر بما يقع في زمانه من موارد الشبهة والبلاء، فإن لكل زمان فتنة وفي كل عصر شبهة، وللحق والباطل والهدى والضلال والصواب والخطأ رايات وجبهات لا يكون المرء مصوناً عن الافتتان فيها.

ومن أعظم عِبر التاريخ أن المرء يجد افتتان أصحاب السوابق الحسنة والمقامات الخطيرة والمواقع المتقدمة في المجتمع والدين والعلم، وانغماسهم في الشبهة على الرّغم من قرب العهد بالنبوة، حتى وقع ما لا نزال نحصد من آثاره خراباً ونجني ثماره علقماً.

ولعل أعظم العِبر كلها سقوط جماعة في الفتنة عرفوا بـ(الخوارج) كانوا منقطعين إلى العبادة، مشغوفين بها، صابرين عليها، لا يطلبون لأنفسهم مالاً ولا جاهاً، ولا يهتمون بنفس أو نفيس، يتلون الكتاب آناء الليل وأطراف النهار، ويزهدون في متاع الدنيا زهد أهل الصلاح، يتمسكون في كل خطوة بالكتاب ويدعون إلى تطبيقه، يتراءى للناظر في أحوالهم أنهم ممن لا يخشون في الله لومة لائم، حتى عظمت الشبهة بهم على أهل الدين من جهة حسن الظن بهم.

ولكنهم لم يكونوا في واقع الحال كذلك كما كشفه أمير المؤمنين عليه السلام فقال[٢]: ((أما بعد أيها الناس فإني فقأت عين الفتنة، ولم تكن ليتجرأ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كَلَبُها)).

وليس ذلك إلا لأنهم فرطوا في الأساس، وهو كسب البصيرة والتفقه في الدين، فظنوا بأنفسهم من العلم والفطنة ما لم يتصفوا به، ورفضوا من أجله أن يجددوا النظر في ما خطر في أذهانهم، واعتقدوا أن جميع الناس غيرهم يجب عليهم الانقياد لهم والقبول بأقوالهم وإلا كفروا وخرجوا عن الدين، وحلّت

---

(١) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:١٨٣.

(٢) نهج البلاغة ج:١ ص:١٨٢.

بذلك دماؤهم وأموالهم. فلم ينفعهم مع هذا الجهل الناشئ من الأنانية مبالغتهم في العمل والعبادة والتضحية، بل كان ذلك مقوياً لجهلهم، مانعاً من الاهتداء إلى خطئهم.

٢٥/ و ـ من المشاعر الفطرية ما يهدي إلى الله سبحانه والدار الآخرة

(الحقيقة ٢٥): في أن من المشاعر الفطرية ما يهدي الإنسان إلى ما وراء الغيب والإيمان بالله سبحانه وبالدار الآخرة.

قد سبق أن للمشاعر الفطرية بحسب نظام الخِلقة وسننها دلالة على تحقق مقتضياتها في الخارج، فالشعور بالحاجة إلى الأكل والشرب والنكاح والاجتماع وعاطفة الأم ينبّه على أنه قد أمّن ما يفي بهذه الحاجات للإنسان في الحياة.

وفي هذا السياق ينبغي الالتفات إلى أنه لا يبعد أن يوجد ما في المشاعر الإنسانية ما يشير إلى عالمٍ وراء عالم المادة هذه.

وبيان ذلك: أن الحقيقتين الغيبيتين الكبريين هما وجود الله سبحانه، وبقاء الإنسان بعد الممات ..

أما **الحقيقة الغيبية الأولى**: فمن القريب انطواء النفس الإنسانية عليها، ذلك أن الذي تقتضيه المشاعر الوجدانية والمعلومات التاريخية والرسالات الإلهية أن الإنسان مفطور على الشعور بالحاجة إلى موجود أعلى يتوجه إليه ويستمد منه، لا سيما في أوقات الاضطرار والمعاناة، فهذا الشعور أمر مزروع في كيان الإنسان، ومن ثم فإن إيمانه بالغيب ليس أمراً مجافياً لطبيعته، بل يجد في النفس شعوراً مناسباً له، فهذا الشعور على حدّ شعور الطفل بالحاجة إلى عاطفة الأم، الذي يشير إلى أن نظام الخِلقة كفل له أمّاً ذات عواطف متبادلة معه بحيث تحتضنه وتعتني به.

ومن ثم نجد أن البحوث التاريخية تشير إلى توجه الإنسان منذ القدم إلى موجود غيبي في مختلف بقاع الأرض، يؤمن به ويستعين به ويخضع له، فهذا يشير إلى وجود نافذة على الغيب في داخل الإنسان، وليس في نشأة هذا الشعور

عن الضعف ما يفنّد هذه الدلالة، فإنه على حدّ سائر المشاعر التي تمثّل في الإنسان حاجة جسدية أو ضعفاً نفسياً مثل شعور الطفل بالحاجة إلى أمه. كما لا يفند ذلك وجود مخلوقات موهومة وخرافية يؤمن بها المرء، فإن كل شعور فطري في أصله يمكن أن يتوسع لحالات موهومة نتيجة غموض فيه وعدم تحديد جهته.

ولعل في استقراء المشاعر الوجدانية لدى غير المؤمنين بالدين في حالات الضعف والاضطرار ما يدل على فطرية هذا الشعور.

هذا، وليس في حاجة الإنسان إلى تعلم الاعتقاد بالغيب ما يدل على عدم فطريتها، لأن كثيراً من المشاعر الفطرية لا يمكن اختبار فطريتها أو مدى قوتها في الفطرة، بالنظر إلى تلقي الإنسان للتعليم من قبل أسرته ومجتمعه مبكراً قبل انبثاق مشاعره الفطرية بنحو واضح، ومن ثم تنصهر هذه المشاعر في الأفكار الملقاة، وإن لم تكن في أصلها مدينة للتلقي والتلقين.

مثلاً: إن من طبيعة الإنسان حسب ما تدل عليه الدراسات النفسية والاجتماعية السعي إلى أداء المعاني باللغة، ولو أن الكبار لم يبدوا لفظاً للطفل لوجد أنه يُصدِر من تلقاء نفسه أصواتاً مقرونة بقصده لتفهيم ما يريده، ويطرأ عليها التنظيم والاطراد تدريجاً حتى تكون لغة له، إلا أن استقبال الوالدين الطفل بتعليم اللغة من خلال حديثهما معه من صغره يؤدي إلى اختفاء هذا المسار الطبيعي من جهة إشباع ذهنه بالتعليم المسبق، فلا يظهر مدى عمق الحاجة إلى اللغة في النفس الإنسانية.

وقد يظن المرء أن في ما أشير إليه ـ من دور حالات الضعف والاضطرار في الالتفات إلى ما وراء الغيب ـ ما يدل على أن ذلك ليس شعوراً طبيعياً عاماً في النفس كي يمكن عدّه شعوراً فطرياً، وإنما هو شعور مكتسب وليد للشعور الفطري بالضعف والحاجة حيث يؤدي إلى تقدير وجود من يلجأ إليه.

وهذا الظن ليس صائباً، فإن جملة من الحاجات والقيم الفطرية يحتاج بروزها إلى تحفيز عوامل خاصة كما هو الحال في الاستعدادات الذهنية

والجسدية، وليس في ذلك ما يقتضي كونه شعوراً مكتسباً حاصلاً من عوامل ثانوية.

وهكذا الحال في كثير من الأمور التي يتلقاها الإنسان مبكراً بالتعليم والتربية، فإن لها جذوراً في النفس، ولكنها تتوجه بالوجهة التي يربى عليها، ومن ثم قد يتعذر على المرء إجراء اختبار وجداني لما هو كامن في عمقه.

وقد جاء في رسالة الله تبارك وتعالى إلى خلقه ما يؤكّد زرعَ الشعور بالغيب في الفطرة الإنسانية، وقد ذكّر فيها بأن هذه الفطرة إنما تقتضي وجود كائن غيبي مهيمن على الحياة، طُبع الإنسان على التسليم له.

وأما إسباغ صفة الألوهية على الكائنات المحسوسة من الأنبياء والصالحين والأصنام وغيرها فهو مما تأباه الفطرة والعقل، لأنه يراها ويشعر بها ويحس بالوجدان أنها ليست مصدراً للتأثير الغيبي، ولكنهم التجأوا إليها كتوسع في ما وراء الغيب من خلال الغلو والأوهام والخرافات، وتم ترسيخ ذلك لاحقاً كعقيدة ثابتة، مع ما هو ظاهر عليها من وهن واصطدام مع بداهة العقل البشري، قال تعالى[1]: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾، وقال[2]: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾، وقال[3]: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾.

وقال النبي ﷺ[4]: ((كل مولود يولد على الفطرة))، وفي لفظ آخر[5]: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما

---

(١) الروم:٣٠.

(٢) الأعراف:١٧٢-١٧٣.

(٣) الأعراف:١٩١.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٣.

(٥) صحيح البخاري ج:٢ ص:٩٧.

تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء)).

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام[1]: ((إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به .. وكلمة الإخلاص، فإنها الفطرة))، وفي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه سئل عن آية الفطرة فقال[2]: ((فطرهم جميعاً على التوحيد)).

وعلى ضوء ذلك جميعه لا يبعد أن يُعدّ شعور الإنسان بوجود قوة غيبية شعوراً فطرياً زُوِّد به المرء ليكون داعماً لإدراكه العقلي بوجود الله سبحانه من خلال التأمل في الكائنات الموجودة وبديع صنعها وخلقتها، وجاذبة له إليه سبحانه وتعالى، كما كانت المشاعر الفطرية الأخرى داعمة لإدراكات عقلية. ولعل هذا منشأ تذوق الإنسان التام للإيمان بالله سبحانه والخضوع له واندماجه التام مع الإذعان بالغيب. هذا عن الحقيقة الغيبية الأولى.

وأما **الحقيقة الغيبية الثانية ـ وهي بقاء الإنسان بعد الممات ـ:** فقد يرجح أيضاً وجود شعور يشير إليها في داخل الإنسان، لأننا نجد أن الإنسان بطبعه ينظر إلى المتوفى من أعزته وغيرهم بعين البقاء، وإلا يستأنس لذلك إنا نجد أن من لا يؤمن بالدين إذا ذكر العلماء الذين خدموا البشرية بعلمهم يدعو لأرواحهم بالمسرة، كما يشعر كل قوم من الأقوام ببقاء عظمائهم.

وهذا الأمر وإن أمكن أن يفسّر بتشبث الإنسان بالأماني حيث لا يجد سبيلاً ظاهراً إليها، ولكن تفسيره بأمل مزروع في فطرة الإنسان أقرب، من جهة اشتهاره في أوساط الناس على اختلاف ثقافاتهم وطبقاتهم ومراحلهم التأريخية.

٢٦/ ز ـ وجوه الاختلال في المشاعر الإنسانية وأنواع المشاعر المختلة

(الحقيقة ٢٦): في وجوه الاختلال في المشاعر الإنسانية.

إن من المهم جداً للإنسان معرفة الاختلال الطارئ في المشاعر الإنسانية من

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٣.

(٢) نهج البلاغة ج:١ ص:٢١٥.

أجل صيانتها، لأن للمشاعر دوراً كبيراً في بناء الإنسان، إما إيجابياً كما في المشاعر العالية من النزوع إلى الحكمة والخلق النبيل، وسائر المشاعر التي يمكن أن تسند هذه المشاعر ومبادئها. أو دوراً سلبياً كما في المشاعر التي تكون بالضد منها وتعيقها.

ووقوع الاختلال في المشاعر الإنسانية على الإجمال أمر معروف، وينبغي الالتفات إلى أنواعها حذراً من الغفلة عن اختلالها وسعياً إلى علاجها.

والضابط في كون المشاعر صحيحة ـ على وَفقِ توجيه الله سبحانه وتعالى واقتضاء الفطرة السليمة ـ هو أن تكون حقيقية وفطرية، أو تكون تنميةً للمشاعر الفطرية في الجهة التي تقتضيها الفطرة الإلهية وتؤدي رسالة المشاعر في وجود الإنسان. وهذه الرسالة في المشاعر العالية هي الوصول إلى الغايات الحكيمة والفاضلة، وفي المشاعر الاعتيادية إسناد المشاعر العالية وغايتها من جهة وحفظ الشخص والنوع وسلامتها جسماً ونفساً من جهة أخرى.

وما عدا ذلك فهي مشاعر مختلة تعيق السعادة الحقيقية، وتحجب الحقيقة عن الإنسان، وتمانع روح الحكمة والفضيلة فيه، وتخرجه عن الاستقامة في الحياة، وهي على أنواع ..

النوع الأول: المشاعر الشريرة والقبيحة، وهي في أصولها مشاعر فطرية نمّيت في اتجاه الشرّ والرذائل، وبذلك حرفت عن جهة الفطرة ووقعت في مواجهة الحكمة والفضيلة، وقد سبق توضيح ذلك.

النوع الثاني: المشاعر العاطفية ـ غير المنطقية ـ وذلك أن الإنسان بطبيعته كائن حساس متقلب المزاج، تثير فيه الأشياء والحوادث التي يشهدها مشاعر مختلفة من الخوف والأمن والكره والمحبة والجدّ والعزيمة والتشاؤم والتفاؤل والرجاء واليأس والثقة والإحباط والتمني والترجي والتحسر والتوجع، وغير ذلك. وهذه المشاعر تستتبعها غالباً إدراكات غير منطقية، وهو وجه تسمية هذه المشاعر بالمشاعر غير المنطقية، بالنظر إلى ما توجبه من إدراكات لا أساس منطقي لها.

وجملة من هذه المشاعر التي تنبثق في حالة معينة تُعمم تدريجاً وتنتشر بين عامة الناس وتكون جزءاً من ثقافتهم، كما هو الحال في أسباب التشاؤم والتفاؤل لدى الأمم المختلفة، فصوت البوم مثلاً صوت مكروه يناسب الحزن والنعي كما نجده بالمقارنة مع ما يصدر من الإنسان نفسه في حالات الحزن والنعي، وقد يحتمل أنه قد أثار في نفوس بعض الناس ـ ممن كان في حالة قلق تجاه أمر معين ـ تشاؤماً حتى كأنه إخبار عن حدث محزن، فانكشف وقوع هذا الحدث بالفعل اتفاقاً، فجعل أمارة على وقوع حدث محزن، وعمَّ هذا الشعور فصار من أسباب التشاؤم عند بعض الأقوام.

ولو راقبت أحوال الإنسان في يوم واحد لشاهدت أنه منذ الصباح حتى آخر اليوم يمرُّ بمشاعر عديدة من وحي ما يجده وما يختزنه في عقله الباطن، بل تؤثر فاعلية تلك الحوادث الكامنة في نفسه في حال المنام إلى مشاعر تترجم نفسها بأنواع من الحوادث والقصص الخيالية.

وهذه المشاعر يتعلق بعضها بما يجده الإنسان في أعماله من إخفاق ونجاح ويحصل عليه من نِعم وإمكانات أو نِقم وابتلاءات، نظير ما يثيره الغنى في النفس من الشعور بالرضا عنها والتميز عن الآخرين، وما يثيره الفقر فيها من الشعور بمقت النفس واحتقارها، كما قال سبحانه[1]: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾، وقال[2]: ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾، وقال عن صاحب الجنة التي اغترَّ بها[3]: ﴿**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**

---

(١) العلق:٦ـ٧.

(٢) الفجر:١٥ـ١٦.

(٣) الكهف:٣٤ـ٣٧.

ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾، وقال[1]: ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

ومن هذا الباب أن المرء إذا رجا شيئاً ولم يتفق له تشاءم من جهة مرارة اليأس بعد الرجاء.

ومنها: ما يتعلق بالحوادث الاتفاقية غير ذات الصلة به، مثل صوت البوم ونعيق الغراب ـ على ما تقدم ـ، حيث أن اقتران سماعهما بطابعهما الشجيّ بحادث محزنٍ أدى إلى التشاؤم بحصول حدث مكروه.

ومنها: ما يتعلق بالآخرين وما يجده الإنسان تجاههم من رغبة عنهم أو إليهم أو من أجل مواصفاتهم الخَلْقية ـ كالجمال وخلافه ـ أو الخُلقية كحسن الخلق وسوئه، أو من أجل تصرفاتهم تجاه الإنسان ـ مثلاً ـ فإذا أمّل المرء من شخص شيئاً فتخلف عن تحقيق أمله كرهه من جهة مرارة تخلف مأموله، وإذا أعجب بجمال شخص ظن أن الحياة دونه غير مستقرة، وإذا اتفق تصرف خاطئ من قرين ظن أن الحياة معه ممتنعة، وفي مثل هذه المشاعر قال سبحانه وتعالى[2]: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وقال عزّ من قائل[3]: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وقال[4]: ﴿لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

---

(١) فصلت:٤٩ـ٥١.

(٢) البقرة:٢١٦.

(٣) النساء:١٩.

(٤) الحديد:٢٣.

فعلى الإنسان العاقل والحكيم أن لا يأبه بهذه المشاعر ولا يعتني بها حتى تهدأ ثورتها ويحول دون تنميتها، لأن فيها ضرراً كبيراً على الإنسان من وجهين..

(أحدهما): أنه لا جدوى منها، بل هي ضارة على العموم بالسلامة النفسية والشعور بالسعادة من غير علة أو مبرر، ومن سلم منها ولم يعتن بها عاش الطمأنينة والسكينة والاستقرار النفسي، وذلك أروح لنفسه وأهدأ لباله، وأنشط لمسيرته وأصح لجسده وعافيته.

(وثانيهما): أنها تؤثر تأثيراً سلبياً في تفكير الإنسان وتوجهه إلى منحى غير صحيح، وتؤدي به إلى مسارٍ غير منطقي ولا موضوعي، فيلهيه عن تأمل أسباب الأمور وعواقبها ومقتضى الحكمة في التعامل معها.

وليستعن على درء هذه المشاعر بأمور ثلاثة ..

أولها: تقوية العزيمة على ضبط الخواطر الذهنية حتى لا يكون ذهنه كالريشة في مهب الريح، يذهب به في كل آنٍ كل مذهب، فيعجز عن تركيز الانتباه، ويبتلي بتداخل الأفكار والشواغل الذهنية والنفسية، فيقلُ عطاؤه.

وثانيها: بنقدها وترشيدها وتمحيصها وتتبع عيوبها وأخطائها وأضرارها والاعتبار بالآخرين ممن يبتلي بها وبمضاعفاتها، فإن ذلك مما يحدُّ ويقلل من مكثها وتأثيرها.

وثالثها: أن يتجنب الأسباب المثيرة لها من مشاهد ومسموعات ومطعومات وغيرها، فإن لذلك كله تأثيراً على تعلقاته وأجوائه النفسية، فربّ شيء رآه الإنسان فطمع فيه وشغل باله، وهو لا يجد ما يحققه به أو لا يرى حكمة في أن يكون بصدد تحصيله، وقد تقدم ذكر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)[1] في وصف إعراض النبي ﷺ عن الدنيا أنه كان يكره أن يرى زينة هذه الحياة، فيكون الستر على بابه فيه التصاوير فيأمر إحدى أزواجه بتنحيته رغبة عن الدنيا.

نعم لا بأس بالمشاعر النفسية التي تكون داعمة لمقتضى الحكمة والعقل

(١) لاحظ نهج البلاغة ج:٢ ص:٥٩-٦٠.

ومقوية عليه ومساعدة على فاعليته، ومحفزة على الاستجابة له، فيكون دورها الإسناد والدعم لما اقتضاه العقل دون التوجيه والقيادة.

النوع الثالث: المشاعر الزائفة والخداعة والكاذبة، وهي مشاعر حاصلة لا على نحو طبيعي بل بضرب من التكلف على سبيل الرياء والمصانعة على نحو ما يقع في مقام التمثيل ولكن لا يكون الداعي منه إبراز الفن، بل إبراز ما يدعي من الهموم أو الاهتمامات النبيلة، وقد يشتبه الأمر فيها على المرء لا سيما إذا كان معتاداً لها خاصة في من له براعة على التكلف والتظاهر(١).

ولا يندرج في المشاعر الزائفة ما يكون تكلفاً من المرء في مقام يجد جفافاً في نفسه وجموداً في مشاعره النبيلة فيتكلف بينه وبين نفسه تلك المشاعر تشبّهاً بما يليق أن يكون عليه، فإن ذلك أمر محمود، ومن ثم ورد مدح البكاء والتباكي من خشية الله تعالى، أو على الحسين عليه السلام فإنه لا يعني بالتباكي تكلف البكاء أمام الناس رياءً، بل تباكي المرء بينه وبين نفسه.

كما لا يندرج في المشاعر الزائفة ما قد يجده الإنسان من الشعور في ضمن العمل الجمعي شريطة أن يكون ذلك من باب تحفيز التنافس على الخير لإثارة المشاعر النبيلة وليس لمجرد إظهار الشعور أمام الآخرين، فإن ذلك يفسد النفس.

النوع الرابع: المشاعر السالبة للاختيار، كما في بعض الدوافع القوية والانفعالات الشديدة، وهذه مشاعر غير محمودة، لأن الاختيار أداة لفاعلية العقل والحكمة فإذا اختل وقع الفعل خطأً من غير خضوع لسلطانهما، وللفعل الخاطئ ـ حتى وإن لم يكن خطيئة ـ آثار سلبية على روح الحكمة والفضيلة وعلى النفس الإنسانية والجسد والمجتمع والنِّعَم التي يمتع بها الإنسان كلها.

ومن ثم ينبغي للإنسان أن يعتبر الخطأ الناشئ من غلبة الانفعال أخاً

---

(١) وفي الحديث عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يداه أو رجلاه لم يشعر بذلك؟ فقال: ((سبحان الله ذاك من الشيطان، ما بهذا نعتوا، إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل)) الكافي ج:٢ ص:٦١٦-٦١٧.

للخطيئة فيستغفر منه ويُحمّل نفسه عملاً صالحاً تكفيراً عنه تزكية لنفسه وتطهيراً لها عن آثاره وتربية لها عن أن يتكرر منها. ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى الكفارة في بعض الأفعال الخاطئة مثل القتل الخطأ.

على أن من المشاعر السالبة للاختيار ما يكون خطيئة، بالنظر إلى أنها وإن تعذر التحكم بها في حينها إلا أنه يمكن التحكم المسبق بها، من جهة تربية الإنسان لنفسه وتهذيبه لانفعالاتها وتأنيبه إياها إذا اتفقت منه مرة، ومعاقبته لها ببعض ما تكره حتى لا يسهل عليها ذلك، ومن ثم ترى أن الإنسان نفسه يلوم من أخطأ بحقه إذا تضرر بخطئه.

النوع الخامس: المشاعر المطلوبة لذاتها، وذلك أن المشاعر على ضربين: ضرب يكون فضيلة في نفسه مثل الشعور بالشكر والامتنان، وضرب يكون آلة مساعدة على الفضيلة، فهي وسيلة لا غاية. وفي الضرب الثاني متى أصبح الشعور غاية للإنسان يستمتع به ويوجب الطرب له فقد انحرف عن دوره، ولم يؤدّ إلى تحقق غايته، بل كان مخدّراً للإنسان. وهذا كمن يطرب بذكر حقوق الوالدين ولزوم الإحسان إليهما في ضمن مقطوعة شعرية جميلة إلا أنه لا يدعوه شعوره هذا إلى رعايتهما والإحسان إليهما، فشأن الشعور أن يكون حافزاً إلى العمل وموجداً لبيئة محرضة عليه، وليس أن يستغرق فيه الإنسان ليستمتع به لذاته، ويكون من جملة ملذاته.

ولعل هذا هو الموجب لعدم تأثير كثير من الأساليب النفسية التربوية المعاصرة في غاياتها، لأنها تعتمد على إثارة المشاعر، فنجد أن إحسان الأولاد إلى الآباء أقل بالرّغم من كثرة التركيز عليه بالأساليب الأدبية والفنية المختلفة.

وقد وقعت بعض المناهج المنسوبة إلى التصوف في هذا الخطأ حيث إنها اهتمت بكل وسيلة تثير المشاعر الخاصة مثل دوران المرء حول نفسه، والغناء وممارسات أخرى استمتاعاً بالشعور المتولد منها، وقد أوجب ذلك انتشار البدعة والرياء والغلو وغير ذلك من المفاسد المعروفة.

النوع السادس: المشاعر الاستهلاكية المتولدة من النهم في المشاعر

الاعتيادية الإنسانية، وهي المشاعر التي تثار من أجل الاستمتاع بإرضائها، ليعود الإنسان ثانية لإثارتها ثم الاستمتاع بإرضائها مرة أخرى وهكذا.

وهذا يتفق في شأن الدوافع الجسدية والنفسية الفطرية للإنسان، كدافع الأكل والشرب والنكاح والاستطلاع والراحة، فإن هذه الحاجات على وَفقِ ما ذكّر الله سبحانه عباده في رسائله إليهم لم تجعل للإنسان في هذه النشأة الدنيا من أجل الاستمتاع بها لذاتها، بل ليحفظ شخصه ونوعه من خلالها كما هو شأنها في سائر ما يحتاج إليها، ويكون ابتلاء له في ما يزيد على حاجته منها.

وعليه فلا يحسن من الإنسان أن يسعى إلى إثارة هذه النوازع في نفسه لإشباعها ثم العود إليها وإشباعها ثانية، فإن من أصبح همه الاستمتاع بها يكون نظره إلى هذه الحياة كحالة مقصودة لذاتها وليس كسفر عابر، إذ يلهيه ذلك عن ذكر الله سبحانه والدار الآخرة، فيتجاوز مقتضيات الفضيلة ويخرق أصول الحكمة وتتشابه عليه الحقيقة ويسير في هذه الحياة عابثاً، وقد قال سبحانه[1] في قوم مدحهم: ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**﴾، وقال[2]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

ولذلك دأب أهل الصلاح من عباد الله سبحانه وتعالى على أن يغيبوا من ملذّات هذه الحياة وروائعها عن حواسهم ما يوجب زيادة مشاعرهم هذه، وذلك هو من جملة عوامل زهدهم في هذه الحياة، قال أمير المؤمنين عليه السلام[3] في كلام فيه يصف فيه النبي صلى الله عليه وآله: ((ولقد كان صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض، ويجلس جِلسَة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه)).

---

(١) النور:٣٧.

(٢) الجمعة:٩.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:٥٩ـ٦٠.

ومن ابتلاء الإنسان في هذا العصر عرض حاجات الإنسان بأساليب وكيفيات وأنواع جذابة للإنسان، فإن قسماً منها وإن كان يوفر حاجات ضرورية للإنسان، إلا أن كثيراً منها تسوّق عن طريق التزويق والدعاية[1] وتتفنن في تحريك غرائز الإنسان، حتى إنها تثير لديه الرغبة من غير حاجة وتحرك عنده الشهوة من غير عوز، فيلهو بإثارة الرغبة ثم إرضائها لاهياً عما يغيب عنه وينتظره بعد هذه الحياة. وقد صدق سبحانه وتعالى إذ قال[2]: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**﴾.

وعلى الإجمال فلا شك في أن الإفراط في الرغبات الاستهلاكية خروج عن الاستقامة النفسية، ولها مضاعفات جسدية ونفسية وتربوية سلبية، فهي أشبه بحالة مرضية تطرأ على الإنسان، ومن ثم صح عدها من جملة مظاهر الاختلال في المشاعر الإنسانية.

النوع السابع: المشاعر الشاذة غير المبرّرة، والمراد بها المشاعر التي لا وجه عقلائي لها، والمفروض تخلص الإنسان منها، مثل خوف الإنسان من بعض الحيوانات غير المؤذية، وقلقه من رؤية بعض الأشياء غير الضارة، فإن ذلك وإن كان لحادث اتفق للمرء في الصغر، إلا أنه لا ينبغي أن يمثل ذلك عقدة للمرء تؤذيه، بل ينبغي أن يتخلص منه بالأساليب التربوية التي ذكرت في علم النفس المختص بالأطفال.

النوع الثامن: المشاعر الغامضة، وهي مشاعر لا تبدو لها ـ بالنظر إلى مناشئها ـ أسبابٌ مفهومة توجبها، ويحتمل أن يكون نشوؤها من تداعيات بعض الظروف الصعبة والرياضات الشاقة والرغبات المكبوتة، وقد تظهر هذه المشاعر في صورة إفراط في محبة أو مبالغة في كرهٍ أو تعلق شديد بأمر تافه وما إلى ذلك.

---

(١) قيل إن الصحيح لغة (الدعاوة) لأن الفعل واويّ لا يائيّ.

(٢) الأنبياء:١ـ٣.

النوع التاسع: المشاعر المرضية وشبه المرضية[١]، وهي قد تنشأ عن مرض أو ضعف عقلي أو نفسي أو جسدي من قبيل تشوه في خلقة، أو اختلال في عمل الغدد الهرمونية أو غير ذلك، وهي معروفة في علم الطب النفسي.

وقد يشتبه بعض هذه المشاعر بالمشاعر المحمودة، وهو اشتباه ينبغي حذر المرء منه لا سيما في مقام تزكية النفس، من جملتها: اشتباه بعض وجوه الرقة الزائدة بالرحمة، واشتباه المبالغة في العناية بالطهارة والنجاسة بالورع، واشتباه الكسل بالطموح[٢]، والخوف الشديد من الموت أو النار الموجب لمجرد القلق والكآبة ومضاعفات مرضية دون تهيّؤ واستعداد أو عمل باليقين.

نسأل الله سبحانه أن يوفق عباده لأن يستثمروا المشاعر التي فطرهم عليها للوصول إلى الغايات السامية التي دعاهم إليها، والتوقي من المشاعر المنحرفة والشريرة التي تحرف الإنسان عن تلك الغايات.

٢٧/ ح ـ وصف جامع لعمق النفس الإنسانية وطبقاتها

(الحقيقة ٢٧): في عمق النفس الإنسانية وطبقاتها.

قد يظن الإنسان في بادئ النظر أن جميع ما يدور في نفسه من إدراكات ودوافع ومبادئ أخلاقية وتخيّلات هي أمور واضحة له يسهل عليه استحضارها، ولكن واقع الأمر ليس كذلك، بل للنفس الإنسانية طبقات عديدة، كل طبقة تحتوي على طيف من المعلومات والدوافع وأخواتها من الأمور النفسية.

وهذا المعنى على الإجمال واضح لكل شخص إذا تأمل دعاوى الآخرين في ما يصفونه من أنفسهم ويذكرونه من دوافعهم، حيث يلاحظ أنهم ربّما لا يعلمون بدوافعهم الحقيقية علماً تفصيلياً في جملة من الحالات لحواجب تحجبهم عن إدراكها، ومن ثم يذكرون غيرها في بيان غايتهم من العمل من غير كذب

---

(١) المراد بـ(شبه المرضية) ما تنشأ عن ضعف لا يبلغ حدّ المرض.

(٢) المراد أن الإنسان قد يتكاسل عما يقدر عليه ويعلل ذلك بعدم قناعته به بل يطمح إلى ما يزيد عليه، فيضيّع بذلك الأدنى والأعلى جميعاً.

متعمد بل خطأ منهم في تشخيص واقع دوافعهم.

بل قد يجد الإنسان من نفسه مثل ذلك حيث تصدر منه تصرفات لم يتوقعها ولم يسيطر على الحيلولة دونها. فإذا تأملها جيداً ظهر أن ذلك فلتات لأمور مرتكزة في نفسه خرجت بنحو قهري.

وقد تكرر التذكير بذلك في رسالة الله سبحانه وتعالى إلى خلقه وكلمات الصالحين من عباده من منظور تربوي للنفس الإنسانية، كما قال عزّ وجل[١]: ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾.

وكأن ذلك من جملة المعاني المنظورة بنهيه تعالى للمرء عن تزكية نفسه حيث قال[٢]: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾، فإنه ينطوي على التحذير من وثوق المرء بنفسه والاعتقاد بسلامة نيّته، فإن هناك أبعاداً قد تخفى عن المرء مما يطلع عليه الله تبارك وتعالى.

ومن ثم كان الصالحون على حذر من الاعتماد على أعمالهم، كما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام[٣] في صفة المتقين، مع عظيم ما ذكره لهم من الفضائل فيهم: ((فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون)).

وكلما كان الإنسان أبصر بطبيعة النفس البشرية ومكنوناتها عامة وبسير أحواله ونيّاته خاصة كان أكثر حذراً من نفسه وأبعد عن الوثوق بها.

هذا، وقد رصد هذا الموضوع في علم النفس بنحو واضح، حيث نبّه على كمون كثير من دوافع الإنسان في مرحلة اللاوعي المعبر عنه بالعقل الباطن، وانتفع بذلك انتفاعاً كبيراً في تحليل السلوكيات الغامضة[٤] وفي تشخيص

---

(١) الكهف:١٠٤.

(٢) النجم:٣٢.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٦٣.

(٤) ومن جملة الموارد التي رصدت تأثير الدوافع اللاشعورية في تصرفات الإنسان من أفعال أو تروك فيها ما يأتي ..

١ ـ المخاوف الشاذة التي لا يعلم الخائف سببها كالخوف من الظلمة، وقد لوحظ في بعضها أنها تنشأ عن حادثة وقعت في مرحلة الطفولة بقيت آثارها في نفسه على الرّغم من نسيانه لها.

الأمراض وعلاجها بالطب النفسي.

والالتفات إلى هذا الموضوع ضرورة من ضرورات عملية تربية النفس لعدة اعتبارات، من جملتها أن تربية النفس ـ بعد الالتفات إلى عمقها وإمكانات الخداع والتعمية فيها ـ يتوقف بطبيعة الحال على تفتيش الإنسان عما يتصف به من دوافع وصفات لتهذيبها وإصلاحها، وهذا بدوره يتوقف على كثير من تحليله النفسي لها ولأفعاله بالنقد والتمحيص والملاحظة.

انقسام الأمور النفسية إلى الشعور الجلي والخفي واللاشعور الذهني

وتحدد طبقات الأمور النفسية بمستويات ثلاثة رئيسة ..

المستوى الأول: مرحلة الشعور الجلي التفصيلي، كما يجده الإنسان في كثير من دوافعه الإنسانية مثل الجوع والعطش والشوق والغم وغير ذلك.

المستوى الثاني: مرحلة الشعور الخفي الارتكازي، كما يجده الإنسان في كثير من دوافعه التي لا يشعر بها في أثناء عمله شعوراً جلياً ولكنه يستطيع أن يستحضرها بشيء من التأمل.

وربما قيل: إن هذا المستوى هو الغالب في دوافع الإنسان، فإنه يشعر بها شعوراً خفياً لا واضحاً.

المستوى الثالث: مرحلة اللاشعور والعقل الباطن، وذلك من قبيل الدوافع الكامنة في المرء مما لا سبيل إلى استكشافها بمحض التأمل، بل يحتاج إلى

---

٢ ـ النسيان، فإن التحليل النفسي يدل على أن نسيان بعض المواعيد ونحوها أسلوب لا شعوري بدافع التخلص منها للرغبة عنها.

٣ ـ العقد النفسية، وهي في ما قيل مجموعة مركبة من ذكريات وأحداث مكبوتة مشحونة بشحنة انفعالية قوية من الذعر أو الغضب أو الاشمئزاز أو الكراهية أو الغيرة أو الإحساس الخفي بالذنب مثل عقدة النقص وعقدة الغيرة.

٤ ـ الدواعي المزروعة في حال التنويم المغناطيسي، فإذا كلف المنوّم النائم بأمر كالذهاب غداً إلى بيت فلان في الساعة الرابعة، فإن النائم سوف تطرأ فكرة الذهاب في ذهنه وإن كرهه، ويرى أنه لا يستطيع أن يقاوم الميل إلى العمل بها لما تخففه عنه من ضيق وتوتّر.

مزيد حفر وتنقيب في شخصية الإنسان والحوادث التي تَعرُض له.

وقد عرف العقل الباطن بمجموعة العوامل والدوافع التي تؤثر في سلوك الفرد وتفكيره ومشاعره من دون أن يكون شاعراً بها وبكيفية تأثيرها[1].

والواقع أن ذكر هذه المستويات الثلاثة إنما هو كتصنيف عام، وإلا فإن لكل مستوى منها مراتب متعددة بحسب درجة جلاء المعنى في الذهن أو خفائه أو كمونه وغيابه عن الشعور الفعلي.

وربما يكون الدافع معلوماً للإنسان ولكن يكون تأثيره في النفس من غير شعور وإرادة، كالهفوات الصادرة من الإنسان مثل فلتات اللسان وزلات القلم، فإن التحليل النفسي يدل على أن جملة منها تنشأ عن عوامل فاعلة في النفس من حيث لا يريد، كمن يريد أن يخفي شيئاً فتبرز من لسانه كلمة تناسب ما يضمره.

وربما عُدّ ذلك من باب الدوافع اللاشعورية، ولكن الذي هو لا شعوري فيه تأثير الدافع لا أصله.

عوامل انتقال الدوافع إلى مرحلة اللاشعور

ويظهر بملاحظة موارد انتقال الدوافع إلى مرحلة اللاشعور أن هناك عوامل متعددة لذلك، ففي بعضها يكون نسياناً من جهة طول المدة كما في المخاوف الشاذة، وفي بعضها يكون كراهة من المرء لدافع ما لطبيعته المؤذية والمحرجة كالدواعي العدوانية أو الخادشة للحياء، فينتقل بنحو تلقائي إلى مرحلة اللاشعور للتخلص عن التحرج بذكره، وللحيلولة دون فاعليته، وفي بعضها يكون من جهة تثاقل النفس من الاستجابة للدافع، ولو احتفظ به لم يجد بداً من الاستجابة له، فتنقلها النفس إلى مرحلة اللاشعور تخلصاً من العمل به، كما في

---

(١) وهناك مستوى رابع يتحقق في خصوص الأمور الفطرية دون المكتسبة، وهو مستوى الاستعداد والقابلية الأولية التي لم تتبلور بعد، وذلك لأن للإنسان استعدادات كثيرة تتفعّل تدريجاً، وهي قبل فاعليتها لا أثر لها على عمل الإنسان، مثل قوة الجنس والوجدان الأخلاقي عند الطفل، فإن الطفل واجد لهما استعداداً ولكن لا فاعلية لهما كي يندرجا في مرحلة اللاشعور النفسي.

بعض المواعيد التي تكون ثقيلة على الإنسان.

ولعل أهم عوامل انتقال الدوافع إلى مرحلة اللاشعور عاملان ..

(أحدهما): الممانعة الطويلة عن الاستجابة للدوافع القوية المستمرة في النفس، بحيث توجب رد فعل نفسي بنقل الدافع إلى مرحلة اللاشعور والاستجابة لمقتضياته، من حيث لا يشعر به الفرد ولا يقدّره استجابة لها، ويعبر عن هذه الممانعة بالكبت النفسي.

ولا فرق في مضاعفات الممانعة للدوافع القوية بين أن تكون تلك الدوافع فطرية أو مكتسبة بالتربية والاعتياد إذا كانت الممانعة فجائية، وأما إذا كانت تدريجية وتربوية فربما أمكن التخلص منها ببرنامج قد يقصر أو يطول حسب مقدار تجذرها في نفس المرء والطاقات النفسية التي يساعد الصبر على التخلص منها.

كما لا فرق في الدواعي الفطرية بين العادية منها من قبيل داعي الطعام والشراب والأمومة والراحة، وبين الدوافع العالية وهي الدوافع الحِكَمية والأخلاقية، لأنها من جملة الحاجات الفطرية للإنسان على ما سبق ذكره، فإن المرء إذا سحق روح الحكمة عنده في تصرفاته انغماساً في رغبات وانفعالات آنية فربما يشعر بشيء من الاضطراب الداخلي النفسي وإن لم يذعن بذلك كراهة أن يعترف لنفسه بعدم الحكمة، وإذا سحق روح الضمير الأخلاقي استجابة لشهواته فإنه أيضاً تطرأ عليه مثل هذه الحالة، ويعيش تأنيباً داخلياً لا شعورياً في ضميره.

(ثانيهما): التحميل النفسي، والمراد به أن يكثر الإنسان من ممارسة شيء انسياقاً وراء رغبة شخصية أو اجتماعية فيه، فينشأ في النفس تدريجاً نحو تثاقل تجاهه ورغبة عنه.

وهذا العامل في الحقيقة يرجع إلى عامل الممانعة، لأن النفس ترغب في الاستراحة عما تمارسه أحياناً، فإن الراحة من التعب الجسدي والعناء النفسي هي حاجة فطرية من حوائج الإنسان التي لا يسع المرء تجاهلها، فإذا لم يعط المرء لنفسه فرصة للراحة أدى ذلك إلى ولادة تثاقل لا شعوري في النفس تجاه ما

تمارسه بحيث يسلب حالة الطوع والإقبال عليه بل ربّما لا تطيقه، وتترجم ذلك بصور أخرى غير معلنة.

وتنقسم الممانعة والتحميل إلى ما يكون لعامل داخلي، بأن كان الإنسان من تلقاء نفسه يمانع الاستجابة لرغبة أو يحمّل على نفسه ما يثقل عليها لمدة طويلة. كما قد يكون لعامل خارجي، بأن يكون ذلك نتيجة إلزام من قِبل الأولياء أو المجتمع، والعامل الخارجي أسرع في توليد الشعور بالتثاقل وآثاره السلبية.

هذا، ولا شك أن أصل تقدير هذه المستويات الثلاثة للدوافع النفسية في الإنسان نعمة له، لأن لكل منها خاصية إيجابية ليست للآخر، فالإنسان يحتاج إلى الاستحضار التفصيلي لبعض دوافعه حتى يتريث فيه ويقلّب خياراته في الاستجابة له ويعرف نوعها، كما يكفيه الاستحضار الإجمالي الارتكازي في عامة دواعيه لكفايته في حصول الفعل الذي يتوجه اختياره على وَفقِ أصول سلوكه وتربيته التي ارتضاها لنفسه، ولو لزمه الاستحضار التفصيلي في كلها لأبطأ، وكذلك يحتاج إلى نقل بعض دوافعه إلى اللاشعور تخلصاً من فاعليته وإحراجه إياه تخفيفاً عن نفسه.

إلا أن هذه الدوافع لا تخلو بطبيعة الحال في امتداداتها عما يكون ابتلاء للإنسان، بالنظر إلى ما توجبه من الغموض في كثير من أبعاد شخصية الإنسان وعوارضه ودوافعه، مما يملي عليه عدة وظائف ..

وظائف الإنسان تجاه دوافعه

(الوظيفة الأولى): رقابية، بأن يتحرى المرء دوافعه تحرياً نفسياً دقيقاً من المنظور الأخلاقي ويحذر في موارد الريبة والشك، لأهمية دور النية في قيمة العمل على ما سبق ذكره، بل وفي تمييز حقيقة العمل الذي يمارسه، فإن كثيراً من الأعمال تتحدد هويتها على وَفقِ المقاصد منها، فقد يكون العمل صلاحاً أو إحساناً إذا أتى به بداعيهما دون ما إذا أتى به بداعٍ مختلف، فلا بد أن يكون المرء

طبيباً أخلاقياً لنفسه فيكشف عن دوافعها، ويحلل مقاصدها حتى يتعامل معها تعاملاً سليماً على وَفقِ أصول التزكية والأخلاق. ولن يقوم أحد مقام الإنسان في ذلك، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام[1]: ((من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ)). نعم إذا كان الإنسان ملتفتاً إلى نفسه ناقداً لها أمكن أن يعينه بعض من يحسن الظن به بعض الإعانة وليس كلها.

(**الوظيفة الثانية**): **فكرية** ـ وهي أخطر من الأولى ـ حيث إن الممانعة والتحميل ـ لا سيما إذا كانا خارجيّين ـ قد يؤديان إلى تغيرات فكرية بالتشكيك في المبدأ الذي كان أساس الممانعة والتحميل أو في المنظومة الفكرية التي ينتمي إليها، منطلقاً في هذا التشكيك أو الإنكار من منطلق انفعالي وليس موضوعياً.

وهذا وجه الخطورة في هذا الأمر، ومن ثم يلزم الإنسانَ الراشد أن يتأمل جيداً منشأ ميوله الفكرية، حتى لا يتخذ موقفاً انفعالياً في تأمله للقضايا المختلفة لا سيما حول الحقائق الكبرى.

(**الوظيفة الثالثة**): **تربوية وعملية**، وهي أن يتحكم في مستوى دوافعه النفسية في ما يستحضره أو يتركه أو يقمعه.

وذلك أن المستويات الثلاثة المتقدمة للدوافع ليست خارجة عن اختيار الإنسان في مطلق الأحوال، بل يتأتّى له التحكم فيها بأساليب التربية النفسية. فيمكن للمرء ـ مثلاً ـ أن يقلل الشعور بالدافع كالحزن بالانشغال بأمور تصرفه عنه أو تهوين سببه على نفسه، كما يمكن أن يحفز الشعور بالداعي بمحاسبة تصرفه وتحليل سببه قبل وقوعه، للحيلولة دونه إن لم يكن ما يدفعه إليه تصرفاً حكيماً أو بعد وقوعه لأخذ العبرة منه وتأنيب النفس عليه كي لا يتكرر منه.

ويمكن له أيضاً أن يساعد على انتقال بعض الدواعي إلى مرحلة اللاشعور بتقوية عنصر الحياء في النفس بأساليب تربوية، أو الحيلولة دون تحقق

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:١٦٠. ولا يبعد عنه ما جاء عن الصادق عليه السلام في أمالي الصدوق ص:٥٢٦، وأمالي المفيد ص:٢٨.

أصل تلك الدواعي مثل الاهتمام بالأشياء كي لا ينساها تثاقلاً لها مثلاً.

وبذلك يتصف تعامل الإنسان مع مستوى دوافعه ودواعيه ـ كسائر أعماله الاختيارية ـ طوراً بكونه محموداً، وذلك فيما إذا كان مطابقاً للحكمة أو باعثاً على الفضيلة، وطوراً آخر بكونه مذموماً، وذلك فيما إذا كان مخالفاً مع الحكمة وباعثاً على الشر والرذيلة، وطوراً ثالثاً بكونه مشروعاً غير محمود ولا قبيح، كما في سائر الموارد.

وهذا المعنى على الإجمال أمر بديهي في بعض موارده حتى عند العرف العام.

من الخطأ والنسيان ما يكون مذموماً

ومن ثم ترى أنهم قد يلومون المخطئ والناسي بأن ذلك نشأ من عدم اهتمامه بما أخطأ فيه ونسيه، ولو كان مما يهتم به لم يتفق له ذلك، كما قد يحمدون المصيب والمتذكر في ما هو مظنة الخطأ والنسيان عادة بأنه لم يتفق ذلك منه من جهة عنايته بالعمل الذي كلّف به.

وقد يُستفاد ذلك من بعض الأدلة الشرعية، كما قيل في قوله تعالى[1]: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إنه ناظر إلى الخطأ والنسيان الناشئ عن عدم الاهتمام، إذ هو الذي تصح المؤاخذة عليه. وقيل في حديث رفع الخطأ والنسيان[2] أيضاً إنه ناظر إلى مثل ذلك، لأن ظاهر الرفع أن المرفوع مما يتأتّى وضعه، والوضع التشريعي لما حصل فيه الخطأ أو النسيان إنما يكون بالأمر

---

(١) البقرة:٢٨٦.

(٢) وقد ورد بألفاظ مختلفة، ففي التوحيد للصدوق (ص:٣٥٣) بإسناده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رفع عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة)). وفي الكافي (ج:٢ ص:٤٦٢-٤٦٣) بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رفع عن أمتي أربع خصال: خطأها، ونسيانها، وما أكرهوا عليه، وما لم يطيقوا..)).

بالاهتمام به اهتماماً يمنع من حصولهما، وجاء في الحديث المعتبر إيجاب إعادة الصلاة على من صلى في ثوب نجس ناسياً لنجاسته، وعلل ذلك بقوله عليه السلام[1]: ((كي يهتم بالشيء إذا كان في ثوبه، عقوبة لنسيانه)).

وعلى هذا حيث كان الإنسان قادراً على التحكم في شأن دوافعه وجب عليه أن يوجّهها توجيهاً حكيماً وراشداً ونافعاً في جهة مسعاه من تزكية نفسه.

نكات عامة في شأن الدواعي

وهناك عدة نكات تقتضيها التوجيهات الإلهية وسنن الفطرة الإنسانية ينبغي الالتفات إليها في هذا السياق ..

كبت الدواعي الفطرية ليس حكيماً

١ ـ إن كبت الدواعي الفطرية على العموم ليس حكيماً، لأنه يوجب خروج النفس الإنسانية عن طور الاعتدال، بالنظر إلى غرس تلك الدواعي في خلقتها وتكوينها، مما قد يؤدي إلى مضاعفات توجب محاذير أكثر للمرء من حيث الجوانب الأخلاقية والحكمية والجسدية.

وربما يتعذر على المرء إصلاح النفس المكبوتة من أجل رفع تلك المضاعفات، لأنه لا يذعن أصلاً بوجود دافع مكبوت بعد غياب هذا الدافع عن شعوره واستبعاده إياه، بل قد ينسب إلى دوافع شريفة ومحترمة.

هذا، ولا فرق في التحذير عن كبت الدوافع الفطرية بين الدواعي العالية ـ وهي الحِكَمية والأخلاقية ـ والدواعي الاعتيادية من سائر الرغبات الجسدية والنفسية التي خلق عليها الإنسان. نعم يختلف التعامل اللائق والحكيم بينهما، حيث إنه لا بد للمرء من تنمية الدواعي العالية وجعلها في موضع القيادة للنفس الإنسانية حتى تكون أعمق وأكثر تأثيراً فيها من سائر الدواعي، فيكون الهم الأول في حياة الإنسان الحكمة والفضيلة والحقيقة، ولا يدعها تتعطل فتنتقل إلى

---

(١) تهذيب الأحكام ج:١ ص:٢٥٥.

مرحلة اللاشعور تثاقلاً عن العمل بمقتضياتها، لعظم المحاذير التي تترتب على تعطيلها، قال سبحانه وتعالى(١): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقال(٢): ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، وقال(٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وقال(٤): ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقال(٥): ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، وقال(٦): ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقال(٧): ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وأما الدواعي الاعتيادية فلا بد من الاستجابة لها أيضاً، ولكن مع فارقين..

أ ـ إنه لا بد أن تكون الاستجابة لها محدودة بحدود الحكمة والضمير، فإن أبت النفس ذلك كان ذلك ابتلاء ابتلي به الإنسان في الحياة من قبيل الأمراض البدنية والنفسية.

ب ـ إنه ينبغي للإنسان أن يراعيها على وجه معتدل ولا يسعى إلى تنميتها، لأنها في هذه النشأة وسيلة لا غاية، وتنمية الإنسان لها لا يحقق لها مرتبة إضافية من السعادة النفسية كما مرّ في ذكر سنن السعادة والشقاء.

---

(١) آل عمران:١٣٥.

(٢) البقرة:٢٠٠.

(٣) الأحزاب:٤١.

(٤) البقرة:٢٣٧.

(٥) البقرة:٤٤.

(٦) الحشر:١٩.

(٧) يونس:٧-٨.

عدم صحة تحميل النفس ما لا تحتمل

٢ ـ هذا، وعلى الإنسان أن يراعي في استجابته للدواعي العالية بألاّ يحمّل نفسه ما لا تتحمّل مما يؤدي إلى فقدانه للرغبة في غاياتها، أو يسبب تراجعه وانقطاعه عنها، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ[١]: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾، وقد جاء في الحديث[٢]أن ذلك قد نزل عندما كان النبي ﷺ يقوم على أطراف أصابع رجليه في الصلاة، ولعله من جهة تورم قدميه في أثر المبالغة في العبادة. وقال عزّ من قائل في الإنفاق[٣]: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً﴾.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[٤]قال: ((قال رسول الله ﷺ: يا علي إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربك، فإنّ المنبّت ـ يعني المفرط ـ لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً، واحذر حذر من يتخوف أن يموت غداً)).

وفي الحديث المعتبر عن أبي عبد الله عليه السلام[٥]قال: ((كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إني لأحبّ أن أداوم على العمل وإن قلّ))، وفي حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام[٦]قال: ((ما من شيء أحب إلى الله عزّ وجل من عمل يداوم عليه وإن قلّ)).

وعن النبي ﷺ[٧]أنه قال: ((إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفلوا وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة)).

---

(١) طه:٢ـ٣.

(٢) لاحظ ما جاء في شأن نزول الآية الكافي ج:٢ ص:٩٥ الحديث:٦.

(٣) الإسراء:٢٩.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٨٧.

(٥) الكافي ج:١ ص:٨٢.

(٦) الكافي ج:١ ص:٨٢.

(٧) الكافي ج:٣ ص:٤٥٤.

لزوم صبر الإنسان والفرق بين الصبر والكبت

٣ ـ ولكن لا ينبغي أن يتكاسل المرء ويصطنع لنفسه المعاذير، بل عليه أن يكون صبوراً على القيم والممارسات الفاضلة، قال سبحانه وتعالى[1]: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾، وليتذكر ما ورد في القرآن الكريم والأثر من أحوال الصالحين وصبرهم على العبادة ومكارم الأخلاق.

ولا يخلطنّ المرء بين الكبت والصبر، فإن الكبت خديعة للنفس وصدٌّ لها من غير وجه حكمة أو فضيلة، وأما الصبر فتبصر وثبات طلباً للحكمة ورجاءً للفضيلة.

وقد استفاضت الآثار في مدح الصبر، ففي الأثر الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام[2]قال: ((الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وكذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان)). وفي أثر صحيح عن أبي بصير[3]قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((إن الحرَّ حرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسِر وقهر واستبدل باليسر عسراً، كما كان يوسُفُ الصِّدّيق الأمينُ (صلوات الله عليه) لم يضرر حريته أن استُعبد وقُهِر وأسِر، ولم تضرره ظلمة الجُبّ ووحشتُه وما ناله أن مَنَّ الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد إذ كان له مالكاً، فأرسله ورحم به أمة. وكذلك الصبر يُعقِبُ خيراً، فاصبروا ووطّنوا أنفسكم على الصبر تؤجروا)).

وقد يختلف الكبت والصبر باختلاف الأشخاص، لأن الكبت تحميل الإنسان نفسه فوق طاقتها بعدم استجابته لنوازعها القوية لمدة طويلة، والصبر ثبات للمرء على ما يطيقه ويتحمله، وهذا يتأثر بتقدير مقدار طاقة المرء والضغط الذي يعانيه من جراء عدم الاستجابة بالنظر إلى طاقته الأخرى التي كانت وراء

---

(١) طه:١٣٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٨٧.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٨٩.

عدم الاستجابة للدافع المكبوت، فإذا كان للمرء طاقة أخلاقية وحكمية وإيمانية أكبر كان صبره على ممانعة بعض رغباته الجسدية والنفسية المتعارفة أكثر بما لا يكون كبتاً في حقّه، ولو كانت تلك الرغبات شديدة جداً كان تحقق الكبت لها أسرع.

ضرورة كون المرء خبيراً بأحوال نفسه

٤ ـ وعلى الإجمال فلا بد أن يكون المرء طبيب نفسه والقيِّم عليها، يحسن الاختيار لها ويعرف تقلبات أحوالها، كما يفعل البارعون من أهل الدنيا بأبدانهم ومكاسبهم وثرواتهم، فترى أن أحدهم يتقن تفاصيل عجيبة حول مزاجه وما ينفعه أو يضره، ويصرف على ذلك كثيراً من الجهد والوقت، ويصبر على البحث عن كيفية تحصيل المال والجاه والمداخل المختلفة إليه من غير سأم ولا ملل، وقلب الإنسان أولى بهذه المراعاة.

ومتى كان ما يعيه المرء من الحكمة والفضيلة والإيمان أكثر وكانت دوافعه أقوى كان أصبر على التضحية من أجلهما، وعلى المرء أن يرتب همومه ودوافعه في هذه الحياة، والذي يليق بالمؤمن بالله سبحانه والدار الآخرة أن يكون أصبر من الآخرين لسعة الآفاق التي ينظر إليها، قال تعالى[1]: ﴿**إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ**﴾، وقال[2]: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**﴾.

ومن وجوه صبر الإنسان صبره على البلاء، فإنه نوع من السعي إلى تناسيه واستصغاره في جنب ما يؤمن به، ليزيد عطاؤه الذي ينصب في جهة الحكمة والفضيلة بما يحصل عليه من الهدوء والسكينة، كما قال سبحانه[3]: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**﴾، بل يزداد إيمان المؤمن بما يلقاه

---

(١) النساء:١٠٤.

(٢) التوبة:٥٢.

(٣) البقرة:١٥٦.

من البلاء كما قال عزّ من قائل[١]: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[٢] في بعض كلامه في صفة الزهاد: ((كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها. عملوا فيها بما يبصرون، وبادروا فيها ما يحذرون. تقلّبُ أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة، يرون أهل الدنيا يعظّمون موت أجسادهم، وهم أشد إعظاماً لموت قلوب أحيائهم)).

وقال (صلوات الله عليه)[٣] في رسالته إلى محمد بن أبي بكر: ((واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم. سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح. أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة)).

٢٨/ ط ـ التأثير المتبادل بين الإدراكات والدوافع النفسية

(الحقيقة ٢٨): في العلاقة بين الإدراكات الذهنية والأمور النفسية.

تنقسم الأمور النفسية ـ بما للنفس من معنى عامٍّ في مقابل البدن ـ إلى قسمين ..

أحدهما: الأمور الذهنية من التصورات والأفكار، ويعبر عن القوة المتضمنة لها بالذهن أو القوة العاقلة.

والآخر: سائر الأمور النفسية من ملكات ومشاعر مختلفة، كالحب والكره

---

(١) الأحزاب:٢٢.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٢٥.

(٣) نهج البلاغة ج:٣ ص:٢٧.

والرضا والغضب والرقة والحزن وغيرها. وقد يخصّ هذا القسم باسم الأمور النفسية ـ بما للنفس من إطلاق أخص يقع في قبال الذهن ـ.

وقد سبق وصف جانب من العلاقة بين الأمور الذهنية وما سواها من الأمور النفسية، حيث ذكرنا كيفية تدخل المشاعر النفسية في الإدراكات الإنسانية تأثيراً إيجابياً أو سلبياً.

والذي نريد أن نشير إليه هاهنا العلاقة بين استقامة الإدراك وسلامته وبين الملكات النفسية حسب ما يهدي إليه التأمل والمتابعة، فهناك صفات خُلُقيّة داعمة لروح العلم مطلقاً أو في قسم منه، وأخرى موهنة لروح العلم وأدواته في النفس الإنسانية، فمن الملحوظ مثلاً ..

(١) أن روح الصبر والأناة تساعد على مزيد من التثبت في اتخاذ القرار وعدم التسرع فيه، بينما روح التعجل تساعد على عدم الاهتمام باحتمالات ومؤشرات ينبغي الاهتمام بها، ومن ثم جاء ذمُّ الاستعجال في الآيات الشريفة كما قال سبحانه[1]: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾.

(٢) أن روح الأنفة والحذر من الخطأ والتأذي منه ومن آثاره تساعد المرء أيضاً على مزيد من التثبت في اتخاذ الرأي وتعقيب الاحتمالات والمؤشرات، مما لا نجده لدى من يفقد مثل هذه الصفة.

(٣) أن روح الشجاعة تساعد المرء على عدم المبالغة في احتمال الخطر، وعدم رفع الاحتمالات الضعيفة عن مستواها المناسب للمؤشرات الموجودة.

(٤) أن الصفاء النفسي وعدم فرط الحساسية النفسية تجاه الموضوع أيضاً يساعد على عدم المبالغة في بعض الاحتمالات ورفعها عن درجتها، كما إن الحساسية النفسية المفرطة مما يوجب تنمية الاحتمال الضعيف إلى حدّ الظن، فتكون من سوء الظن بمن لا يستوجبه.

(٥) أن الركون إلى الحال الحاضر والانسجام الشديد معه يؤدي إلى تضعيف احتمالات العوارض والطوارئ المغيرة لهذا الواقع بما هو دون

---

(١) الإسراء:١١.

استحقاقها.

(٦) أن روح النشاط والعمل تؤدي إلى تقدير الاحتمالات التي تقتضي نشاطاً وفعالية حق تقديرها، وروح التثاقل تؤدي إلى نفي هذه الاحتمالات أو تضعيفها بما لا يستوجب معه الاهتمام بها.

إلى غير ذلك من الأمور التي يقف عليها الإنسان بالمتابعة والتأمل.

فعلى الإنسان أن يعرف من حال نفسه أو حال من ينيط به مهمة بما يكون معه تصرفه صحيحاً، وقد اعتُبرت في منصب (الإمامة) شروطٌ من حيث الصفات النفسية بما يضمن سلامة المتصدي له من التقدير الخاطئ في الأمور، كما أوصى أمير المؤمنين عليه السلام مالكاً الأشتر في عهده إليه عندما ولاه مصر فقال[1]: ((ولا تُدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزيّن لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ بالله))، والمراد بسوء الظن بالله عدم تقدير سنن البركة والإنماء في الحياة، فيظن أن الحكمة تقتضي الإمساك والحفاظ على ما هو الموجود، وعدم المخاطرة بإنفاقه.

---

(١) نهج البلاغة ج:٣ ص:٨٧.

حقائق عن التخيلات الإنسانية

٢٩/ أ ـ وصف قوة التخيل وأنواع التخيلات وأدوارها الحميدة والذميمة

(الحقيقة ٢٩): في تخيّلات الإنسان وأدوارها الحميدة والذميمة في حياة الإنسان.

إن قدرة التخيل والافتراض من جملة الصفات المودعة في الكيان النفسي للإنسان، وهذه الصفة عظيمة ذات أدوار علمية وتربوية وأدبية، ويُعبّر عن هذه القوة عظمة التراث الأدبي الإنساني من جهة، وآفاقُ التخيل التلقائي الذي يحدث للإنسان في حال المنام من جهة أخرى، إلا أن الأدوار التي تؤديها هذه القوة بعضها إيجابي ومحمود أو مشروع وبعضها يمكن أن يكون سلبياً مما يحوجه إلى أن يكون تحت سلطة الإدراك والحكمة والضمير، فينبغي الالتفات إلى كلٍّ من هذه الأدوار في مقام تربية النفس وتزكيتها.

وبذلك تنقسم التخيّلات الإنسانية إلى تخيّلات حميدة وأخرى ذميمة، وذلك بحسب الدور الذي تؤديه ..

أما التخيّلات الحميدة فهي تؤدي أدواراً إيجابية عديدة في إعانة الإدراك والحكمة والضمير.

فمن أدوارها الإيجابية للإدراك الإنساني ما يأتي ..

الأول: إعانتها في استنباط المفاهيم العامة، فإن كل ما يجده الإنسان من أشياء من خلال إحساسه وإدراكه المباشر إنما هو أمور جزئية، مثل هذا الإنسان وذاك القلم وتلك المنضدة وهذا العدد، ولكن الذهن يستخرج من هذه الجزئيات معانٍ عامة مثل الإنسان والقلم والمنضدة والأعداد، ويجعلها أدوات عامة للتفكير من غير حاجة إلى استحضار الخصوصية، وهذا النحو من التجريد ـ على رأي ـ يرجع إلى الافتراض، لأن المفاهيم العامة افتراضية ولا وجود لها بعمومها.

كما إن هذه القدرة ـ أي قدرة التخيّل ـ تساعد الإنسان على تكوين قضايا عامة غير ناظرة إلى وقائع جزئية خاصة مثل (كل حديد يتمدد بالحرارة)، لأن الموضوع في هذه القضايا أمر افتراضي، إذ لا ينظر إلى أفراد بخصوصها. ويفصل الحديث حول ذلك في علمَي المنطق والمعرفة.

الثاني: دور الفروض في اكتشاف الحقائق من حيث إمداد البحث العلمي بتحليلات متعددة، لفرز التحليل الصحيح وإبطال ما عداه، ومن هذا الباب إعانة الخيال العلمي في ابتكار الأجهزة والآلات وما إلى ذلك. وكذلك دور الافتراض في عملية الاستشفاف بملاحظة الآثار والنتائج المترتبة على العمل في المستوى الفردي أو الاجتماعي، نظير وضع الأب نفسه موضع ابنه لإدراك مشاعر الابن في وضع محدد.

الثالث: دور الفروض في تقريب الحقائق المعقدة والصعبة بالاستعانة بالتشبيه بالأمور المحسوسة والواضحة. وهذا دور معروف فإن تشبيه المعقول بالمحسوس، أو الأمر الغائب بأمر حاضر من جملة الأدوات المعروفة في تقريب الحقائق العلمية والأخلاقية والمستقبلية.

ومن الدور الإيجابي للفروض في عملية اكتساب الحكمة والتفكير الحكيم مساعدتها في إثارة المشاعر المحرضة للبحث عن الحكمة والصبر في الوصول إليها، أو المساندة لمقتضى الحكمة بما يوجب تفعيل الحكمة في النفس الإنسانية، وذلك من قبيل استحضار الغائب والمستقبل الذي ينبغي الاعتبار بهما حتى يكون لهما الوقع المناسب في النفس الإنسانية، كي لا يفنى الإنسان في العاجل المحسوس، وقد سبق ذكر أن قدرة الإنسان على حسن تقديره للأمور العاجلة والمحسوسة ـ بما يلائم حجمها من مشهد الحقائق والأحداث ـ مرهونة باستحضاره الأمور الآجلة والغائبة بجنبها حتى كأنها محسوسة بالفعل، وهذا ضرب من الافتراض الممدوح كما قال سبحانه[1]: ﴿**كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾، فرؤية الجحيم ـ أعاذنا الله منها ـ في حال علم اليقين

(١) التكاثر:٥ـ٧.

بها إنما هي بمعونة من التخيل المجسّد للواقع المنتظر.

ويكثر في القرآن الكريم تمثيل مشاهد الآخرة حتى كأنها حاضرة بالفعل حتى يقدّرها الإنسان حق تقديرها، وربما حمل بعض ذلك على تجسّم الأعمال كما قال تعالى[١]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾. وعن النبي ﷺ[٢]أنه قال: ((أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، واسعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعملوا لما بعد الموت، فكأنكم بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل..)). وقال أمير المؤمنين عليه السلام[٣]في وصف المتقين: ((فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون)). وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال[٤]: كتب الحسين بن علي عليهما السلام إلى محمد بن علي عليه السلام من كربلاء: ((بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قِبله من بني هاشم، أما بعد فكأن الدنيا لم تكن وكأن الآخرة لم تزل، والسلام)).

ويدخل في هذا الباب مطلق التخيلات الأدبية التي تحفز صفات نفسية ـ في موضع كون إثارتها موافقة للحكمة ـ مثل الشجاعة والثبات والكرم وما إلى ذلك.

ومن الدور الإيجابي للتخيلات في إعانة الضمير الإنساني مساعدتها على إدراك القضايا الأخلاقية، وعلى إثارتها بما يناسب أن تكون عليه.

فمن إعانتها على إدراك القضايا الأخلاقية أن تلك القضايا قضايا عامة قد يصعب على الإنسان إدراكها، إلا إذا افترض ابتلاؤه بها.

مثلاً: ربما لا يلتفت الإنسان إلى قبح عمل حتى يفرض صدور هذا العمل من الآخرين تجاهه، أو صدور هذا العمل من جميع الناس بعضهم مع بعض،

---

(١) النساء:١٠.

(٢) أعلام الدين في صفات المؤمنين للديلمي ص:٣٤٤. بحار الأنوار ج:٧٤ ص:١٨٧.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٦١.

(٤) كامل الزيارات ص:١٥٨.

فيثير ذلك استهجانه العقلي ويلتفت إلى قبحه.

وهذه استعانة بعملية افتراضية على سبيل الاستشفاف، وكأن لهذه الغاية جاء التشبيه في الحديث النبوي[١]: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).

ومن إعانتها على تفعيل القضايا الأخلاقية في النفس أن المرء قد يدرك تلك القضايا ولكنها لا تكون فاعلة في نفسه، فإذا تخيّل تخيّلاً داعماً لها أوجب ذلك تفعيلها، كما في تشبيه الغيبة بأكل لحم المغتاب في قوله تعالى[٢]: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾.

ومن هذا الباب عامة التخيلات المستخدمة لتقريب المفاهيم الأخلاقية وتفعيلها مثل العدل والصدق والإحسان وغيرها، ويندرج في ذلك مختلف القصص والرسوم وسائر الأدوات الفنية والأدبية حيث تستخدم لغايات تربوية صحيحة مثل قصص الأطفال.

وعامة المجازات الواردة في القرآن الكريم تقع في الانتفاع بالتخيل للغايات الحميدة.

وأما التخيلات المذمومة فهي تؤدي أدواراً سلبية في شأن الإدراك والحكمة والضمير منها ما يأتي ..

(الأول): أنها قد تشتبه المعاني المتخيلة بالمعاني المعلومة والأمور الحكمية والقضايا الأخلاقية، بمعنى أن يظن المعنى المتخيل واقعاً وحكيماً وحسناً من جهة قوة الخيال، أو الرغبات النفسية التي تقف وراءه.

وقد تؤدي المعاني والافتراضات المتخيّلة إلى ترديد الإنسان في تشخيص حقيقة الأمر بينها وبين المعلومات الصحيحة، من جهة عدم القدرة على الحسم الفكري لما هو واقع حقيقة.

(الثاني): أن التخيلات قد تستخدم وسيلة للمقابلة والخصومة والجدال

---

(١) سنن النّسائي ج:٨ ص:١١٥. شعب الإيمان للبيهقي ج:٣ ص:٢٦١.

(٢) الحجرات:١٢.

والإثارة والهتك والكذب والإلهاء والإغواء بالنسبة إلى الآخرين، من جهة إحلال الأدوات التخيلية محل الأدوات الموضوعية، كما هو الحال في كثير من المجادلات العقيمة والتنظيرات المصطنعة والأقوال الخاطئة وغيرها.

وإلى ذلك ترجع الظواهر الأدبية الذميمة مثل المبالغات الكاذبة والإثارات القبيحة، مثل إثارة البغضاء والتفرق والظلم ونحوها مما يترتب عليه انتهاك الحقوق وإراقة الدماء وغيرها، ومن ثم جاء ذم الشعر أو الشعراء في بعض النصوص كتاباً وسنّة كقوله تعالى[1]: ﴿**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾، فالمراد من ذلك الشعر الذي يكون باطلاً.

ومن ثم يتعين على المرء أن يعقل تخيّله بعقال الحكمة والأخلاق حتى لا يخرج عن الحدود المعقولة والمقبولة.

٣٠/ ب ـ آفات التخيلات الإنسانية ووجوه اختلالها

(الحقيقة ٣٠): في آفات التخيلات الإنسانية ووجوه الاختلال الطارئ عليها.

ينقسم التخيل ـ كما تقدم ـ تقسيماً رئيساً إلى قسمين:

١ ـ تخيل علمي يكون سبب حدوثه البحث عن واقع ما.

٢ ـ وتخيل أدبي يكون سبب حدوثه شعور ما.

ولكلا النوعين دور كبير في حياة الإنسان، فالتخيل العلمي من شؤون التفكير الذي هو من أهم خصائص الإنسان، ولولا التخيل لم تستقم عملية التفكير ولا اتسعت آفاقه على ما يذكر في العلوم ذات العلاقة، كما إن التخيل الأدبي قوة ضاربة في أعماق الإنسان تترجم مشاعره إلى صور أدبية وقصص مخترعة، ويكفي دلالة على ذلك الأحلام التي تنطلق فيها النفس من شعور ما

---

(١) الشعراء:٢٢٤-٢٢٧.

فتصنع بنحو تلقائي قصصاً كاملة تذهب فيها مدى بعيداً، بالنظر إلى غياب عامل الوعي في حال النوم.

هذا، والتخيلات هي من شؤون الإدراكات والمشاعر، وهي تارة: تكون وليدة للإدراك والشعور، فالإنسان قد يدرك الشيء أولاً ثم يشبهه بشيء آخر حتى كأنه هو هو بالنظر إلى تماثلهما القريب، وإذا رأى شجاعة بالغة لزيد انتقل بخياله إلى الأسد حتى تراءى له كأنه أسد يزأر.

وأخرى: تكون مولّدة للإدراك والشعور، بمعنى أن الإنسان قد يريد تقريب شيء معنوي إلى الذهن من خلال تشبيهه بشيء حسي حتى كأنه من سنخه، وقد يريد أن يوجد إحساساً بشجاعة زيد لدى المخاطب فيجعله أسداً فيقول: (قد جاءك الأسد).

ويقع الاختلال في التخيلات كثيراً بما يخرجها عن دورها الإيجابي في الإنسان وسلوكه ويؤدي أدواراً سلبية خطيرة فيهما.

الضابط في التخيل الإيجابي والسلبي

والضابط في التخيّل الإيجابي ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن يكون له دور مساند للإدراك الصحيح والمشاعر الصحيحة فإذا قربت معنى صحيحاً تقريباً للإذعان به بتخيّل أدبي كان ذلك أمراً محموداً، وإذا حفزت المشاعر العالية الحكيمة والنبيلة من خلال استعارة أدبية كان ذلك أمراً محموداً أيضاً.

والضابط في التخيل المختل ما كان على خلاف ذلك، وهو إما أن يؤدي إلى خلل إدراكي بأن يساعد على تحريف الواقع، أو يؤدي إلى خلل حِكَمي ـ نسبة إلى الحكمة ـ بمعنى أنه يثير الإنسان لكي يعمل على خلاف الحكمة من قبيل التخيلات التي تثير الانفعالات الشديدة التي توجب انتهاك الحقوق والإخلال بالواجبات.

عدم كون التخيل الأدبي مذموماً

وربما يظن أن التخيل الأدبي مذموم مطلقاً، ويفسر ذلك ذم الشعر والشعراء في بعض نصوص الكتاب والسنّة وعدم لياقة الشعر بأهل العلم. وليس الأمر كذلك فإن القرآن الكريم مملوء بأنواع بديعة من المجازات ولكنها كانت لغايات محمودة، وأما ذم الشعر فإنما هو لما فيه من الإغراق في الخيال بعيداً عن الواقع واتخاذه سبيلاً إلى غايات غير محمودة أو كونه مظنة لمثل ذلك، وفي الاستثناء في الآية الشريفة ما يشير إلى ذلك[1].

وقد يظن كون التخيل الأدبي مذموماً لما فيه من الادعاء الكاذب، إذ يقال مثلاً: (إن زيداً أسد)، وليس بأسد، فيكون كذباً. وكون الغاية به إثبات شجاعته على حدّ الأسد لا يبرّره، فإن شرف الغاية لا يرفع قبح الوسيلة. وأدى ذلك إلى أخطاء في العقائد والفقه.

وهذا الظن خطأ ينشأ من الاشتباه في فهم حقيقة المعنى الأدبي، فإن المعنى الأدبي لا يراد إثباته بحده التخيلي إثباتاً حقيقياً وإنما هو تغطية للمعنى الحقيقي بغطاء تخيلي لغاية التأثير في النفوس، لما لهذه الصورة من أثر في النفس الإنسانية، فهو نظير ما يتعارف في ألعاب الأطفال من تلبيس بعض الناس لباس الأسد وحيوانات أخرى للاستمتاع بهذا الخيال، فمن يقول: (إن زيداً أسد) فإنما يريد أنه شجاع جداً كالأسد، كما بين ذلك في علم البلاغة والأصول.

وربما ظن بعض آخر أن التخيل الأدبي ضرب من المبالغة فيكون كذباً بهذا الاعتبار، إذ إنما يجعل الشيء من سنخ ما هو أقوى منه في الصفة المنظورة، فزيد مثلاً يشبه بالأسد، الذي هو أقوى منه في صفة الشجاعة التي ينظر إليها القائل.

وهذا الظن ليس صحيحاً على إطلاقه، وذلك لأنه قد تكون الصفة في

---

(١) قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ۞ إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ الشعراء:٢٢٤ـ٢٢٧.

الطرفين بمستوى واحد وإنما يشبه أحدهما بالآخر لأن المشبّه به أعرف، كما لو شبهت من يفوق حاتماً في الجود بحاتم.

على أنه قد تكون الصفة أقوى في المشبه به لكن لا يراد إثبات ذلك المستوى بحدّه للمشبه كي يكون كذباً، بل المراد إيجاد الواقع النفسي المناسب لصفة المشبه في نفس المخاطب.

مثلاً: إذا أردت أن تحذر شخصاً من الاصطكاك بشخص شرس، وهو لا يحذر منه حذراً مناسباً لشراسته فتقول: (إنه ذئب)، حتى تثير فيه الشعور بالخوف بالحدّ المناسب لشراسة ذلك الشخص، وهذه بلاغة في القول، وليس مبالغة مذمومة، لأنك لا تريد أن تقول: إن شراسته على حدّ الذئب، بل تريد أن تجعل الوقع النفسي لوصفه بالشراسة على حدّ الوقع النفسي للذئب في نفس المخاطب، وإنما تُحذف أداة التشبيه لهذه الغاية فتقول: (هذا ذئب) بدل أن تقول: إنه كالذئب، لتقوية الإثارة الأدبية في نفسه.

ولهذا لا يكون هناك مبالغة في قوله تعالى[1]: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾، لأن المراد بذلك ـ والله أعلم ـ أن ينبه المخاطبين بالآية على أن قبح قتل الفرد الواحد في الحقيقة ليس على حدّ ما تقدرونه، بل هو على حدّ القبح الذي ترونه لقتل الناس جميعاً، فما يحدث منكم من الاستقباح والاستيحاش والاستهجان ـ فيما إذا قتل شخص جميع الناس بغير حق ـ هو ما ينبغي أن تكونوا عليه فيما إذا قتل شخصاً واحداً.

وعلى هذا فلو قال الإنسان لابنه بعد أن ينهاه عن شيء عدة مرات: (لقد نهيتك عن هذا ألف مرة)، فإن أراد أن يزيد في العدد الحقيقي كان ذلك منه كذباً، وإن أراد أنه كان ينبغي لك أن تتأثر بما كررته عليك كما تقدّره فيما لو قلته لك ألف مرة فعلاً لم يكن ذلك من الكذب.

ومن جملة موارد الاختلال في التخيلات الأنواع الآتية ..

---

(١) المائدة:٣٢.

٣١/ ج ـ أنواع التخيلات المختلّة والذميمة

(الحقيقة ٣١): أن التخيلات المختلّة والذميمة على أنواع ..

النوع الأول: التخيلات التي تظن حقيقة، فتحل بذلك محل الحقيقة وتكون نِدّاً لها، فيتشوه بذلك الإدراك ويخفى الواقع، فإن الحقيقة هي الحقيقة لا شيء يحل محلها، ولا شيء يفيد فائدتها.

وهذه حالة شائعة نذكر لها أمثلة يختلف العامل في حدوث هذا التوهم فيها[١]..

١ ـ التخيلات التي تظن حقيقة من كثرة التلقين بها وإرسالها إرسال المسلمات من قبيل بعض القصص الكاذبة أو المجعولة من أجل الاعتبار والتربية فتُظَنُّ حقيقة بعد تداولها واشتهارها، ومن ذلك حكايات وأقوال تطرح أولاً على أنها محتملة فتصبح تدريجاً مسلمة.

٢ ـ التخيلات التي تظن حقيقة من جهة سوء فهم النصوص الشرعية، كما وقع لدى بعض الفرق الإسلامية في مورد جملة مما جاء في وصف الله سبحانه وتعالى وأفعاله في الكتاب والسنّة، مثل التعبير باليد والوجه والمجيء والغضب والأسف والمكر والنفس ونحوها، حيث ذهبوا إلى أنه سبحانه يتصف بحقيقة هذه المعاني ولكن على نحو يليق به دون ما تكون عليه في الإنسان.

وهذا خطأ، لأن هذه المفاهيم لا تقبل بطبيعتها نحواً يناسب ذات الباري، لأنها أوصاف جسمية أو انفعالية لا تليق بذاته تعالى. ولكن السبب الأصلي في مثلها قاعدة أوضحها أمير المؤمنين عليه السلام في شأن صفات البارئ التي هي بطبيعة معانيها عامة لا تشير إلى تجسيم أو انفعال، فيتصف بها سبحانه حقيقة ولكن بغير النحو المعهود منها في الإنسان مثل العلم والحياة والقدرة والمعية مع الكائنات ونحوها وهي مبنية على قوله تعالى[٢]: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ كما قال أمير المؤمنين

---

(١) ولم نذكر في هذه الموارد الأخطاء الإدراكية المحضة، إذ قد تقدم وصفها في موضعه.

(٢) الشورى:١١.

(عليه السلام)[1]: ((مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة..)).

ومما قد يساعد على ذلك شبهات ناشئة عن عدم النضج الفكري كاعتقاد أن المجاز مطلقاً كذب وباطل فلا يليق بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد يتفق سوء فهم النص لعوامل أدبيّة مثل ضعف الحس الأدبي، فإنه قد يؤدي إلى البناء على كون كثير من الإطلاقات المجازية حقائق لعدم رصد العناية الأدبية فيها، وقد يساعد على ذلك كون المجاز كثير الاستعمال، فإنه قد يؤدي إلى كونه مجازاً هادئاً يخفُّ الشعور بالعناية الموجودة فيه.

٣ ـ التخيلات التي تظن حقيقة من جهة الخطأ في الإحساس، إما لسبب فيزيائي، وكثير من أهل الدعاوى الباطلة يتوسلون إلى الشعبذة ـ التي هي نحو من الحركات السريعة والخفيّة ـ لادعاء كونهم أصحاب خوارق للعادات مثل رؤية القلم منكسراً، أو لسبب نفسي مثل حالات من الترائي الكاذب المعبر عنه بالهلوسة، وقد تقدم توضيح ذلك.

والإنسان السليم لا تخفى عليه حالات الترائي الكاذب ولكن قد يحدث الاشتباه فيه ـ فضلاً عن الخطأ في الإحساس ـ إما لخلل إدراكي كما في حالات الهلوسة المرضية الناشئة من حالات نفسية، أو للاشتباه بين اليقظة والمنام فيظن المرء انه رأى ما رآه في اليقظة وقد رآه في المنام، أو للاشتباه بين الترائي الناشئ من قلة الوعي وبين الترائي الناشئ من لطف الروح، وهذا ينشأ في جملة من موارد الرياضات والضغوط النفسية عند مختلف الأقوام من المسلمين وغيرهم.

٤ ـ التخيلات الناشئة من غليان المشاعر والإحساسات فيظن المرء أنه قد شهد ما يحس به شهوداً باطنياً ـ بأدوات إحساس ـ كما يحدث ذلك عند بعض من ينسب إلى التصوف، وعليه تبتني جملة من المزاعم الغريبة المخالفة للدين والعقل ـ مثل دعاوى الحلول والاتحاد والادعاءات الكاذبة بالوحي، وأغلب

---

(١) لاحظ نهج البلاغة ج:١ ص:١٦.

ذلك يرجع إلى خروج المرء عن حدّ السلامة النفسية.

٥ ـ التخيلات الناشئة من أخطاء علمية تحليلية، لضعف أدوات التحليل الفكري كما وقع في بعض المباحث المعقولية والمنطقية والأصولية وغيرها من قبيل توهم أن الأحكام القانونية كالملكية والحقوق موجودات خارجية عينية.

النوع الثاني: التخيلات المحرفة للحقيقة، وهي التي يستعان بها لتزييف الحقائق عمداً، من قبيل الأكاذيب الصريحة التي يراد إقناع الآخرين بها وما تصطنع لها من الشبهات بعنوان الأدلة، وكذلك القصص التاريخية الكاذبة سواء كانت لغاية مذمومة أو ممدوحة، فإن حسن الغاية لا يبرّر الوسيلة.

والتقريبات التي تذكر للأمور الباطلة المخالفة لبداهة العقل، مثل تشبيه النصارى وحدة الإله مع تعدد الآلهة عندهم بأن ذلك يُشبه وحدة الشمس بالرّغم من تعدد جرمها ونورها وشعاعها، ويكثر ذلك ممن يتكلم في العرفان والتصوف على غير المنهج المناسب للعقل والموافق للدين.

ومما يندرج في هذا النوع المبالغات الأدبية التي يراد بها إعطاء انطباع أكبر من الواقع عن الحقيقة التي يبالغ في تصويرها كما لو قلت: (إن زيداً أسد) بداعي إقناع المخاطب بشجاعة زيد بدرجة أعلى من المستوى الذي يتصف به منها. أما ما كان الغرض منه إيجاد الوقع النفسي المناسب لشجاعته حيث يستهين المخاطب بها من غير مبالغة في نفس الشجاعة، فذلك بلاغة مطلوبة كما مرّ ذكر ذلك.

ومن ذلك المجازات الأدبية مما يذكر على سبيل التجوز لمنظور صحيح إلا أنه ربما يؤدي شيوعها وتعارفها إلى اعتقاد الناس بحقانيتها فتكون مصدراً للعقائد والتاريخ والأخلاق ونحوها.

النوع الثالث: التخيلات الموهنة لروح الحكمة والفضيلة في الإنسان، كالتخيلات المُثبّطَة عن الوظائف أو المُحفِّزة لتركها، والتخيلات العدوانية، والأنانية، واللاهية والمُثبّطة عن الخير والمحفزة للشر أو الشك والوسوسة وغيرها.

ولها أمثلة كثيرة ..

١ ـ تخيل الإنسان صدور الأمور القبيحة والمحظورة من نفسه لا سيما في تفاعل مشاعره مع ما يتخيله، فإنه يؤدي إلى تقليل قبح ما تخيله في نفسه وقد يدفعه إلى ممارسته، ومن ثم يحذر أهل الصلاح من مثله خشية الانزلاق به ويؤنبون أنفسهم عليه، فإن أول القتال اللطام.

٢ ـ التخيلات الأدبية التي تتضمن التشهير والإساءة وتوجب إثارة العدوان والبغضاء بين الناس، ومثلها سائر أنواع التخيل.

٣ ـ الصور والأفلام التي تؤدي إلى قتل روح الحكمة والفضيلة في نفس الإنسان أو تضعيفه وتنمية دواعي العنف والاعتداء والأخلاق السيئة في نفسه.

فعلى الإنسان العاقل تجنب ممارسة مثل هذه التخيلات ومعايشتها والاهتمام بها.

النوع الرابع: التخيل للتخيل، بمعنى أن يكون التخيل مطلوباً للإنسان لذاته، فهو يستمتع بأجواء التخيل وآفاقه الواسعة، وهذا الأمر يمكن أن يكون بعض الشيء منه استجابة للحاجة الفطرية في طلب الراحة النفسية من خلال المتعة الحاصلة به والتنوع الذي يحصل من خلاله ـ لا سيما إذا لم تفِ مطالعة روائع الحكم ونحوها بحاجته ـ وقد تكون المبالغة فيه أمراً لاهياً مشروعاً وإن لم يكن محموداً.

ولكن كثيراً ما يستتبع الوقوع في بعض الأخطاء الفكرية والسلوكية كما في الحالات الآتية ..

١ ـ إن هذا الاستمتاع قد يؤدي بالمرء إلى حب التخيل على حساب مراعاة مقتضى الحكمة والفضيلة، فترى أنه إذا خطرت بباله مبالغة في الكلام أو تشبيه قبيح أو نكتة سمجة لا يكف عن إبدائها للغير وإن كانت مخالفة للآداب وموجبة للإساءة، إذ يضنّ به عن أن لا يذكره للآخرين، وكأن ذلك بنفسه فضيلة ولكنه حالة نفسية، إذ يرى أن في ذلك ما يجلب التوجه إليه، فلا يستطيع أن يحبس مثله في نفسه.

وقد ترى أن الشاعر يريد أن يصف الشخص بما يرى انه يستوجبه من

مدح أو ذم فتجره خواطره الأدبية إلى صنوف من المبالغات الكاذبة أو الإساءات الشائنة، لا لشيء إلا لأنها الخواطر التي طرأت عليه من مفردات ومعانٍ عند مسعاه للإيفاء بغرضه، وهكذا يتبدل التخيل من وسيلة إلى غاية.

وأن من وجوه الخطأ التي تقع في شأن التخيل هو مسعى الأديب في أن يكون مقصده أن يتصف كلامه بما أمكن من البلاغة والروعة والجمال.

مع أن حقيقة البلاغة هي أن يتكلم الإنسان بمقتضى الحال، بمعنى أن يعبر عن المعنى الذي يريد تفهيمه للآخرين على وجه يكون له الوقع المناسب في نفوسهم، فإذا كان يتكلم على حالة افتراضية فلا حرج عليه في ما يختاره من وجوه التخيل والإبداع وأما إذا كان يتكلم على مشهد حقيقي فلا بد أن يؤدي الواقع الموجود على الأرض ولكن بأسلوب رائع، لا أن يحوّر هذا الواقع بزيادة ونقصان وتغيير لغاية الروعة.

وعلى الإجمال فالأدب وسيلة وليس غاية، فمن نظر إليه بنظر الغاية فاته به أعظم مما يحصل عليه به.

٢ ـ إن معايشة أجواء التخيل تؤدي أحياناً إلى ابتعاد الإنسان عن واقعيات الحياة، لأن كل جوّ ذهني يحتل مساحة من فكر الإنسان ويؤثر في رؤيته إلى الحياة والكائنات بدرجة أو أخرى، فمن تذوق التخيلات لذاتها وعاش أجواءها وخيلاءها وأوهامها ونظر إلى الأمور بمنظارها حجبه ذلك عن التفكير الموضوعي السليم، ومن ثم ترى أن بعض الشعراء يدخل في مداخل غير حقيقية ويعيش أجواءً واهمة لنفسه، وكذلك بعض من يتكلم في أمور ما وراء الطبيعة بما هو أقرب إلى نسيج الخيال.

النوع الخامس: التخيلات المسيئة إلى مقاصدها، من جهة قلة الذوق في اختيارها، أو الاختلاط في المشاعر المؤدية إليها أحياناً، فقد ذكر في البلاغة أنه يعتبر في سلامة التشبيه سلامته من إيحاءات معاكسة لما رامه المتكلم، ومن ثم عيب على بعض الشعراء قوله في المدح:

لا زال يهذي بالمكارم والعُلا   حتى تراه كأنه محموم

فإنه أراد أن يمدح الرجل بأن سجيته المكارم والعُلا لكنه أساء إليه بتشبيهه بالمحموم الذي يهذي من غير قصد.

ومما يبتلى به من هذا الباب بعض الاستعارات والتمثيلات التي يستخدمها بعض البارعين في الأدب، في مقام الحديث عن الله تعالى ومحبته والتعلق به والتشكي من هجرانه، من تشبيهه بالسكر الحاصل من شرب الخمر أو التعلق الحاصل بالزوجة وغير ذلك، وهو حتى وإن كان بحسن نية لا يخلو عن إيحاءات غير مناسبة، فضلاً عن محاذير أخرى من جهة اختلاط المشاعر أحياناً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

ولم يأت في النصوص المقدسة كتاباً وسُنَّة ما يُشبه ذلك بل أديت المعاني الصحيحة بتعابير لائقة ومناسبة، فانظر إلى ما جاء في هذا الباب في كتاب الله تعالى وكلمات رسوله وما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، لا سيما في الأدعية الموثوق بها مثل ما ورد في الصحيفة السجادية الشريفة، وتأمل الآداب المرعية فيها في الحديث عن الله سبحانه وتعالى ومحبّته.

النوع السادس: التخيلات المتعلقة بوجود الله سبحانه وتعالى وسائر عوالم ما وراء الطبيعة، فإنها على العموم غير مناسبة لغياب تلك العوالم عن إدراك مباشر وواضح للإنسان لا سيما في هذه النشأة، وطبيعة الإنسان أن تكون تخيّلاته اقتفاء لإدراكاته بمعنى أنه يحتذي في ما يتخيله على مثال ما يجده وبما أن تلك العوالم ليست مدركة تفصيلاً للإنسان فإن التوسع في التخيل حولها ـ ولو كان في مقام شرح النصوص ـ قد يؤدي إلى الابتعاد عن واقع الأمر فيها، وربما أدى إلى بعض المحاذير في شأنها خاصة في ما يتعلق بالله سبحانه وتعالى، ومن ثم ورد النهي عن التفكير في ذاته وأمر الناس إلى التفكير في خلقه، وابتلى بعض الساعين إلى تحصيل الحكمة بالكلام حول ذاته سبحانه فزلّ فيه في أمر كان له مندوحة عنه.

النوع السابع: التخيلات المرضيّة، وهي تخيّلات ناشئة عن بعض الأمراض النفسية التي تؤدي إلى الهلاوس الحسية والبصرية والسمعية وغيرها، وقد تكرر

ذكرها، وهذه التخيلات كثيراً ما تشتبه بالإحساسات الحقيقية المبنية على لطافة الروح كما كان يحدث للأنبياء من رؤية الملائكة والجن، وسيأتي بعض الحديث في ذلك.

النوع الثامن: التخيلات الإيحائية، وهي التخيلات التي تحصل بإيحاءات خارجية، وسيأتي ذكرها بأنواعها في الكلام عن الإيحاءات الخارجية للنفس الإنسانية لاحقاً.

حقائق عن القابليات الغامضة في النفس الإنسانية

٣٢/ أ ـ استقبال الإنسان للإيحاءات الخارجية

(الحقيقة ٣٢): في قابلية الإنسان لاستقبال الإيحاءات الخارجية ومصادرها واعتبارها.

قد تقدم أن للنفس الإنسانية قابليات غامضة، من جملتها قابليتها لاستقبال الإيحاءات الخارجية إليها. والالتفات إلى طبيعة تلك الإيحاءات أمر مهم في رفع الإبهام عن جملة من العوارض والهواجس النفسية المتشابهة، ويكشف عن جملة من الانحرافات والبدع المذمومة.

انقسام الإيحاءات إلى داخلية وخارجية

وينبغي أن يلاحظ أن هذه الإيحاءات على قسمين ..

الأول: تفاعلات داخلية للنفس حقيقة.

وذلك أنه لا شك في أن جملة من الإيحاءات النفسية التي يظن أنها ناشئة من عوامل خارجية هي ناشئة عن النفس الإنسانية ذاتها، فإن هذه النفس ـ كما يرشد إليه الوقوف على أحوال الناس والأمم من أصحاب المذاهب والملل المختلفة ـ ذات أطوار غريبة، لا سيما إذا خرجت عن الطور المعتدل المعتاد إلى أطوار أخرى تحدث بموجبها نشاطات ذهنية ونفسية غير اعتيادية، وقد وُصف في علم النفس الحديث وصفاً مبسوطاً.

وتنشأ هذه الإيحاءات الداخلية الغامضة من عدة مناشئ ..

١ ـ عوارض نفسية ناشئة من الأمراض العقلية والنفسية مثل الجنون والذُهان[١] وانفصام الشخصية[٢] وغيرهما، وذلك معروف في علم الطب النفسي.

٢ ـ عوارض نفسية ناشئة من حوادث تتفق للإنسان تؤدي إلى تفاعلات في العقل الباطن وبروز خواطر وهواجس للمرء أشبه ما يكون كثير منها بما يخطر في حال النوم.

٣ ـ عوارض نفسية ناشئة عن رياضات إرادية شاقة، توجب الضغط على

---

(١) الذُهان (Psychosis): مصطلح طبي يرمز ـ بمعنى واسع ـ إلى اختلالٍ بالقدرة على تمييز الواقع، وأهم عرضين له هما الأوهام (Delusions) والهلوسات (Hallucinations) كما توجد هنالك أعراض ثانوية تُعد جزءاً من الظاهرة الذُهانية مثل الكلام غير المرتب، والإغماء التخشبي (Catatonia). لا يعتبر الذُهان تشخيصاً طبياً دقيقاً لأنه يحصل في مضامين سريرية متنوعة، ولكن من بين الإختلالات الذُهانية المختلفة، يعتبر الفُصام (الشيزوفرينيا) النموذج الأكثر تمثيلاً لهذه الحالة. ففي الشيزوفرينيا تحصل الأعراض الذهانية في فترة مزمنة بدون عيوب عضوية ظاهرة للعيان في الدماغ ـ وبالتالي تم تسميته بـ(الذُهان الوظيفي) ـ، أو بدون وجود حالة طبية شديدة مرافقة (كما في الهذيان)، كما إنّ الذُهان يحصل في الفُصام حتى عندما يكون المزاج عادياً، وهذا الذي يميّز الشيزوفرينيا عن الإكتئاب ثنائي القطبية أو الهوس الإكتئابي.

وبالرغم من أن أكثر ما يُعرف من حالات الذُهان هي الشيزوفرينيا وخصائصها السريرية تُعد الأكثر ظهوراً، إلا أنه توجد مجاميع أخرى من الأعراض الإدراكية والسلبية المسؤولة عن جزءٍ كبير من العوق النفسي والاجتماعي الذي يرافق الإصابة بهذا الإختلال. (الطب النفسي السريري الفصل:٢٨ ص:٣٧١).

(٢) ويسمى بالفُصام (الشيزوفرينيا): مصطلح طبي يشير إلى تحقق أثنين أو أكثر من الأعراض الآتية لمدة طويلة من الزمن خلال شهرٍ مثلاً (أو أقل في حال معالجته بنجاح)، وأعراضه هي: أولاً: الأوهام Delusions، وثانياً: الهلوسات Hallucinations، وثالثاً: الكلام غير المرتب (مثل عدم التناسق أو الانشداد بعيداً عن الموضوع بصورة متكررة)، ورابعاً: سلوكيات غير متناسقة بوضوح أو سلوكيات تخشبية Catatonic (أي السلوكيات التي تحصل مع حالة الإغماء التخشبي)، وخامساً: أعراض سلبية (مثلاً خبوت التعبير العاطفي أو فقدان الهدف أو المبادرة لتحقيقه Avolition). و يجب أن يكون أحد أول ثلاثة أعراض ـ على الأقل ـ موجوداً. (الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية ـ٥ ص:٩٩).

العقل الباطن وحدوث ردة فعل منه من خلال خواطر وهواجس وأحاسيس غير اعتيادية. والمراد بالرياضة هو الامتناع عن الاستجابة للحاجات الفطرية مدة طويلة مثل الأكل والشرب والمعاشرة والنكاح والاستطلاع والراحة الذهنية والنفسية والجسدية، فإن ذلك يؤدي إلى ضعف الوعي عن السيطرة على العقل الباطن، واشتداد فعالياته في حال اليقظة، وتكون مضامين تلك الفعاليات على وَفقِ اتجاهات الشخص وأهدافه والمعاني التي لقن نفسه بها بنحو مؤكد، كما هو أمر معهود لدى مختلف الملل والنحل سواء المتدينة بالإسلام أو سائر الأديان الإبراهيمية أو غيرها كمرتاضي الهند.

الثاني: ما تستقبله النفس من مصدر خارجي، وقد يظن المرء أن جميع الإيحاءات الغامضة في النفس الإنسانية هي من قبيل تفاعلات العقل الباطن ـ كما كان ذلك اتجاهاً في علم النفس الحديث بعد اكتشاف العقل الباطن وانتماء كثير من النشاطات إليه ـ ولكن لا شك في عدم صحة هذا الانطباع كما تبين في علم النفس نفسه، إذ ثبت استقبال النفس للإيحاء الخارجي في حال التنويم المغناطيسي، حيث إن المنوم يستطيع من تنويم الشخص الذي يريد تنويمه فيلقنه في حال النوم بأمور يبقى متمسكاً بها بعد اليقظة، وقد كان ذلك أمراً مشهوداً على وجه عام في ضمن الممارسات الغريبة مثل السحر وأخواته.

مصادر الإيحاءات الخارجية

وأياً كان فإن هذه الإيحاءات الخارجية تكون من مصادر ثلاثة ..

الإيحاءات البشرية

المصدر الأول: بعض الناس، كما يتفق ذلك في عدد من الحالات ..

(منها): حالة التنويم المغناطيسي.

(ومنها): حالة السحر وأخواته، فإن الساحر يؤثر في إدراك الآخرين فيوجب تخيلهم لأشياء على خلاف الواقع زعماً منه بأنه يحدث حوادث خارقة،

ولكن الواقع أنه يؤثر في تخيّلهم أموراً لا وجود لها في الواقع، وذلك في أثر قدرة نفسية يكتسبها ببعض الرياضيات النفسية كما قال سبحانه(١) عما فعله السحرة الذين استعان بهم فرعون: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

وفي هذه الحالة دلالة على وجود قدرات نفسية غامضة وغير متعارفة من غير أن تنشأ عن صفة معنوية عالية أو توسل إلى الله سبحانه وتعالى، وربما تخرج حالة السحر على أنها إنما تؤثر في خيال المرء بتوسط الجن الذي عرف بقدرته على إيجاد الإيحاءات الغامضة في النفس الإنسانية.

الإيحاءات الربانية وأقسامها

المصدر الثاني: الله سبحانه وتعالى وملائكته، وذلك على ضروب ثلاثة ..

(١) ما يصدر تجاه الأنبياء تبليغاً لرسالته سبحانه وتعالى إلى خلقه، وهو أمر معروف، وهو أوضح الضروب الثلاثة استناداً إلى الله سبحانه، إذ ضمن الله سبحانه وتعالى في ما يبعثه من الرسائل إلى خلقه أن يقرن ذلك بالحجة الواضحة حتى لا تكون هناك شبهة في الوسط الذي يبعث فيه برسالته.

ومن العجيب تقبل بعض الدعاوي الزائفة للنبوة أو ما هو في حدّها في أوساط بعض المسلمين كما في الدعوة القاديانية والبابية، حتى خرجوا بذلك عن أصول الإسلام، مع أن ذلك مخالف لما بُني عليه من حقانية الإسلام، فضلاً عن أن شيئاً منها لا يتمتع بالحجة البالغة، بل هي في غاية الوهن، فإن النصوص المزعومة ركيكة وواهنة ولكن عدم إتقان اللغة العربية التي صيغت بها في الأوساط التي برزت هذه الدعاوي فيها ساعد على قبولها.

والمهم أن كل من زعم هذا المستوى من الإيحاء إليه فهو كاذب متعمّد للكذب أو مصاب ببعض الأمراض العقلية والنفسية المعروفة في علم الطب.

ولقد قال الله سبحانه عن رسوله محمد ﷺ(٢): ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ

---

(١) طه:٦٦.

(٢) الأحزاب:٤٠.

﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وقال ﷺ[١] لعلي عليه السلام: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))، وقال أمير المؤمنين عليه السلام[٢] يخاطب النبي ﷺ: ((بأبي أنت وأمي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء)).

(٢) ما يصدر من الملائكة تجاه خاصة العباد المصطفين كالأوصياء، من الحديث معهم وإخبارهم ببعض الأمور، لا كرسول عن الله سبحانه وتعالى كما كان الحال مع الأنبياء. ويسمى المتلقي لذلك بالمُحَدَّث، وكان أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء والحسنان والأئمة من أهل البيت عليهم السلام مُحَدَّثون كما ورد في نصوص مستفيضة، وكان ذلك أمراً معهوداً في الأمم السابقة، كما جاء عن مريم في قوله تعالى[٣]: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آيات أخرى.

علماً أن ذلك مما يحصل للأنبياء عليهم السلام أيضاً، إذ لم يكن يقتصر حديث الملائكة على إبلاغ رسالة الله سبحانه إليهم، بل ربما كان إشارة ونصحاً وتسديداً وتطميناً وما إلى ذلك.

(٣) ما يصدر تجاه سائر العباد الصالحين والمؤمنين من تقوية نزوعهم إلى الفضيلة وثباتهم عليها، حيث إن الملائكة حسب ما يظهر من الآيات الشريفة وما تؤكده النصوص المعتبرة أن الملائكة خلق يحبون الإيمان والعبادة والتقوى والفضيلة والحكمة، ومن ثم قد يوحون إلى الإنسان الراغب فيها ـ بإذن الله سبحانه ـ بإيحاءات تشجع إلى النزوع إليها، وربما بلغ ذلك درجة يكون بعض الملائكة على حدّ قرين فضيلة وخير للمرء. وهذا الأمر يتفق للأنبياء والأوصياء أيضاً.

وقد ورد ذكر ذلك في موارد مختلفة ..

---

(١) الكافي ج:٨ ص:١٠٧.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٢٨.

(٣) آل عمران:٤٢.

(منها): ما يكون عناية خاصة من الله سبحانه بتربية بعض عباده الصالحين منذ صغره ممن تميز بتوقد النظرة ونقاء الضمير كما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في شأن النبي صلى الله عليه وآله إذ قال[1]: ((ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالَم، ليله ونهاره)).

ومن هذا الباب ما كان إعداداً للصالحين من عباده نظير ما ورد من الإيحاء إلى أم موسى في ما تصنع به عند ولادته قال سبحانه[2]: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾.

(ومنها): ما يكون عناية بالمؤمنين في الظروف الصعبة إما إعانة كما قال سبحانه[3]: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾، أو تثبيتاً لهم كما قال تعالى[4]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام[5] قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((لَمّتان: لَمّة من الشّيطان، ولَمّة من المَلَك، فلَمّة المَلَك الرقة والفهم، ولَمّة الشيطان السهو والقسوة)).

(٤) ما يصدر منهم تجاه الإنسان المعاند تضعيفاً له وتوهيناً لعزمه وإراءة له ما كان يكذب به من وعيده، فهو بذلك على وجوه ..

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٥٧.

(٢) القصص:٧.

(٣) آل عمران:١٢٣-١٢٥.

(٤) فصلت:٣٠.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٣٣٠.

(منها): إثارة التخييلات الحسية في نفوس المعاندين نصرة لأهل الحق والإيمان، كأن يريهم أهل الحق أقل مما هم عليه فلا يتهيأوا لهم التهيؤ المناسب لعدتهم كما قال سبحانه[1]: ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾.

(ومنها): إثارة الرعب في قلوب المحاربين للحق، نصرة لأهل الحق أيضاً كما قال تبارك وتعالى[2]: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾.

(ومنها): إشعار المعاندين للحق لدى مماتهم بما ينتظرهم حتى لا يكونوا قد خرجوا من هذه الدنيا إلا وقد وقفوا على نتيجة ما سلكوه من سبيل المعاندة والمكابرة مع الحق.

قال الله تبارك وتعالى[3]: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾، وقال سبحانه[4]: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۞ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾، وقال تعالى[5]: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾.

---

(١) الأنفال:٤٤.

(٢) الحشر:٢.

(٣) الأنعام:٩٣.

(٤) الأنفال:٥٠، ٥١.

(٥) محمد:٢٧، ٢٨.

الإيحاءات الشيطانية وأقسامها

المصدر الثالث: الشيطان وقبيله من الجن، وهو عدو للإنسان منذ خلقته، وما يصدر منهم من الإيحاءات النفسية في الإنسان على قسمين ..

القسم الأول: تضعيف روح الفضيلة في الإنسان، وتقوية نوازع الشر فيه.

قال تعالى[١]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾، وقال[٢]: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، وقال[٣]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾، وقال[٤]: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾، وقال[٥]: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال[٦]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، وقال[٧]: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

وإذا كان الإنسان معنياً بالإيمان بالله سبحانه وإطاعة أوامره والمعاني الفاضلة وقاه الله سبحانه من خواطر الشيطان وأضرارها، قال تعالى[٨]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، وقال[٩]: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) النور:٢١.

(٢) النمل:٢٤.

(٣) النساء:١٢٠.

(٤) الأعراف:٢٧.

(٥) البقرة:٢٦٨.

(٦) المائدة:٩٠.

(٧) البقرة:٢٧٥.

(٨) الأعراف:٢٠١.

(٩) المجادلة:١٠.

وإذا استجاب الإنسان لدواعي العناد والشك والترديد في الإيمان بالله ومراعاة القيم الفاضلة أصبح الشيطان قريناً له حتى أصبح زمامه بيده، وكان عابداً إياه ووليا له من دون الله قال عزّ من قائل[١]: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، وقال[٢]: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا﴾، وقال[٣]: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾، وقال[٤]: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، وقال[٥]: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال[٦]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، وقال[٧]: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

وينبغي للإنسان أن يتحرز عن الإيحاءات الشيطانية ويكون حذراً منها كما يحذر من عدوه في سوح الحرب والقتال، قال سبحانه وتعالى[٨]: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وقال[٩]: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ﴾، وقال[١٠]: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾.

على أن الشيطان لا سلطان له على الإنسان على نحو يسيّره إلى ما يريد، وإنما هو كصديق السوء للإنسان، يوجهه إلى الخطيئة من جهة طبيعة توجهاته وتصرفاته كما قال عزّ وجل[١١]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا

---

(١) آل عمران:١٧٥.

(٢) النساء:٣٨.

(٣) النساء:١١٩.

(٤) الأنعام:١٢١.

(٥) الأعراف:٢٧.

(٦) مريم:٨٣.

(٧) الزخرف:٣٦.

(٨) فاطر:٦.

(٩) الأعراف:٢٠٠.

(١٠) المؤمنون:٩٧.

(١١) آل عمران:١٥٥.

استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾، وقال[١]: ﴿**وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾**، وقال[٢]: ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾**.

هذا، ويكون تأثير الشياطين في الإنسان ـ عموماً ـ من حيث لا يحتسب، وذلك من جهة كون سنخ وجوده ألطف من المادة، فهو ليس مرئياً للإنسان كما قال تعالى[٣]: ﴿**إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾**، كما إن سنخ فعله ـ حيث إنه من قبيل الإيحاء ـ كفعل الساحر والمنوم المغناطيسي لا يشعر به المرء. نعم قد يشعر بذلك الأنبياء والأوصياء، أو يرونهم أو يسمعون صوتهم، قال أمير المؤمنين عليه السلام[٤]: ((ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت يا رسول الله: ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي)).

القسم الثاني: إيجاد الوهن الإدراكي في الإنسان بوجوه أبرزها الوسوسة في الحقائق الكبرى في الحياة وإلقاء الشبهة فيها، كي يضل بذلك عن الحقيقة والاعتدال، ولا شك في أن هناك استعداداً نفسياً وعضوياً للإنسان للوقوع في هذا الابتلاء، وإنما يكون الشيطان محفزاً لهذا الاستعداد، وظهيراً لما يبدر من المرء نفسه من الولوج في هذا الباب.

---

(١) إبراهيم:٢٢.

(٢) الحشر:١٦.

(٣) الأعراف:٢٧.

(٤) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٥٧-١٥٨.

كون الوسوسة في العبادات من الإيحاءات الشيطانية

ومن وجوه الوهن الإدراكي إلقاء الوسوسة في أمور خاصة مما يعتني بها الإنسان لا سيما ما يتعلق بالدين كالطهارة والصلاة وغير ذلك، وإنما يساعد على ذلك الإنسان نفسه باهتمامه بالشيء فوق اهتمام الشارع به، والخروج عن النمط المتعارف لدى العقلاء، وقد تتطور كثرة هذه الحالة ودوامها لدى الإنسان إلى ضروب من المرض النفسي كمرض الشك والوسواس القهري[1] وما إلى ذلك، ولهذا المرض كسائر الأمراض النفسية والعقلية ـ أياً كان سببها ـ تمثّل عضوي لا محالة، لعلاقة الجسم والنفس، ولكن الحالة المرضية قد تبدأ بالنفس وتؤثر في الجسد، وقد يتفق العكس كما سبق. ويعتقد الناس أن مطلق وجوه الاختلال المرضي العقلي والنفسي إنما هو بتأثير الشيطان ومن ثم يسمى الجنون بهذا الاسم ـ كما مرّ ـ والله أعلم.

---

(١) الاضطراب الوسواسي القهري (Obssessive - Compulsive Disorder): مصطلح طبي يُطلق على ما يصيب الإنسان من الوساوس أو الإرغامات (القهر) أو كليهما، بحيث يأخذان مقداراً واسعاً من الوقت ـ ساعة يومياً مثلاً ـ أو يسببان عدم ارتياح معتداً به سريرياً، أو اختلالاً في الحياة الاجتماعية أو الوظيفية، بشرط ألا يكون كل ذلك بسبب التأثيرات الفيزيولوجية لتعاطي مادة معينة (دواء أو مخدّرات)، أو بسبب حالة طبية معينة، كما يشترط عدم إمكانية تفسير الاختلال بأعراض أمراض أخرى.

أما معنى الوساوس فهو متقوم بتحقق أمرين: الأول: أفكار أو نوازع أو صور يعيشها المرء في وقتٍ معين خلال الاضطراب، والتي تسبب لأكثر الأفراد قلقاً أو عدم ارتياح معتداً به، والثاني: أن يحاول الفرد تجاهل أو كبت تلك الأفكار أو النوازع أو الصور، أو تحييدها من خلال فكرة أخرى أو فعلٍ معين (بكلمةٍ أخرى: من خلال القيام بإرغام (قهر) معين).

أما معنى الإرغامات (القهر) فهو متقوم بتحقق أمرين: الأول: سلوكيات متكررة (مثل تكرار غسل اليدين، أو التأكّد من شيء، أو طلب شيء)، أو أفعال عقلية (مثل: تكرار الصلاة، أو العدّ، أو تكرار الكلمات بصوتٍ خافت)، التي يحس الفرد بأنه منساق للقيام بها كردة فعل لوسواس أو قوانين يجب تطبيقها بصرامة، والثاني: أن هذه السلوكيات أو الأفعال العقلية تكون موجهة نحو المنع أو التقليل من القلق وعدم الارتياح، أو منع موقف أو حادثة مكروهة، ولكنها ليست متصلة بأي طريقة موضوعية مع ما يُراد تحييده أو منعه، أو أنّها مبالغ بها بوضوح. (الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية ـ٥ ص:٢٣٧).

وعلى كل تقدير فينبغي الالتفات إلى أن ما يمهد لحصول ذلك إنما هو نحو من الضعف النفسي للمرء والاهتمام بهذه المعاني، فينبغي تجنب الإنسان الاهتمام بها والوثوق بالله ثم بالنفس في مقابلها، كي لا يفتح مدخلاً على نفسه.

هذه وجوه الإيحاءات الغامضة التي يشعر بها الإنسان، وقد تبيّن أن منها ما يكون داخلياً وليداً لفعاليات تلقائية تجري في العمق النفسي، ومنها ما يكون خارجياً إما ربانياً أو شيطانياً أو إنسانياً من خلال بعض العلوم الغريبة مثل السحر وأخواته.

التأصيل الشرعي في التعامل مع الإيحاءات النفسية

والتأصيل الشرعي المطابق للعقل والفطرة والخبرة الناشئة عن الاطلاع على ما يتفق من ذلك في التعامل مع الإيحاءات النفسية هو ..

أولاً: التعامل الحذر منها عند حصولها، لغموض هذه الظاهرة وتعدد مواضعها، ودلالة الاستقراء على خطورة الاسترسال فيها والأخذ بها، لا سيما في إثبات كائنات في ما وراء المادة وشهودها والاتصال بها، أو تلقي العقائد والتشريعات منها. بل لا إشكال في عدم تلقي المعارف والتعاليم الدينية من خلالها، وإنما غايتها الاستئناس أو التأييد للأمور الثابتة لمزيد الاطمئنان بها والتشجيع على رعايتها في ما لم يقترن بعلامات مريبة أو أخطاء واضحة.

ولا يقاس شيء من ذلك بما اتفق للأنبياء من الوحي المقرون بالدلائل الواضحة والشواهد القاطعة، فإنه مميز امتيازاً نوعياً عن سائر الحالات من حيث مظاهره عند من يشعر بالإيحاء، أو من حيث علائمه بالقياس إلى ما يقع في سائر الموارد[1]، على ما ذكر تفصيله في علم العقائد.

---

(١) فمن مظاهره عند من يشعر بالإيحاء أنه تتحقق لديه مفاجأة بلا سابق اهتمام أو عناية بهذا الأمر، ولا أي ولوج فيه أو بحث عنه أو محاولة له، ومن ثم لا يكون فعلاً طبيعياً له يكون قد توسل إليه بأسبابه الغريبة، كما لا يكون أمره بيده يتكلف الوصول إليه متى شاء. ومن علامة صاحبه أنه يكون معتدلاً في أخلاقه وسلوكه، لا يتصف بشيء من الشذوذ والغموض الخارج عن الاعتدال، كما لا يتصف بالسذاجة وخفة العقل بل يتصف بالصفاء والانتباه. ومن علامة هذا

وثانياً: أنه ليس هناك ترغيب شرعي لسعي الإنسان في هذا المنحى بشيء من أقسامه ..

أما النفساني والشيطاني منه الذي يبتني على التوسل إلى الجن ونحوه فهو على العموم مرغوب عنه شرعاً، بل حظر مثل السحر والكهانة في النصوص الشرعية صريحاً، ولا يبعد البناء على مرجوحيته مطلقاً حتى مثل تحضير الأرواح والتنويم المغناطيسي، فإنه مما لا يرجى خيره ويحذر شره ويوجب انتشار الخرافات والنبوءات الكاذبة والأمراض النفسية ويوجب خروج الساعي ومن حوله عن الاعتدال والاستقامة والسلامة، ولقد صدق الله سبحانه حيث قال[1]: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

وأما الرباني منه فالأولى ـ بنحو عام ـ أن لا تكون هِمّة المرء في طلب مثله، ولكنه يسعى في طاعة الله وشكره ونيل مرضاته، ويطلب توفيقه وتسديده كيف يشاء، فإن شاء الله سبحانه أن يكرمه بشيء أكرمه، والله المسدد.

٣٣/ ب ـ أخطاء تقع في الإيحاءات الروحية

(الحقيقة ٣٣): إن هناك أخطاء ثلاثة تقع بكثرة في شأن الإيحاءات الروحية مما يؤدي إلى الابتداع في الدين أو إثارة الفتنة في المجتمع أو انهيار الشخص ووقوعه في الخرافات والأوهام والأمراض النفسية الخطرة ..

الخطأ الأول: توهم كثير من الإيحاءات النفسانية الدخيلة على أنها إيحاءات خارجية شيطانية أو ربانية، من جهة قلة الاطلاع وعدم الوقوف على الحالات والعوارض النفسية الشائعة. ولو وقف المرء على حال المرضى النفسيين عند تفاقم أحوالهم لوجد منه ما لم يكن يخطر على باله، وقد كانت هذه الحالات معروفة وموصوفة لدى الأطباء من القديم، وقد ازدادت وضوحاً في

النحو من الوحي أنه يأتي بعيداً عن المعهود في سائر مدعيه في غزارته ومضمونه ومواقعه مما يكون فوق قدرة صاحبه.

(١) الجن:٦.

الطب الحديث.

الخطأ الثاني: تلقي المعارف الدينية ـ سواء في ما يتعلق بالحقائق الغيبية أو التعليمات الشرعية ـ عن هذا الطريق، والتعويل عليه في ما لا يشهد عليه كتاب أو سنة، حتى وقع كثير في ما يكون مصداقاً للأوهام والخرافات والافتراء على الله سبحانه وتعالى والتفسير بالرأي والوهم، من جهة صرف النصوص إلى الخواطر الناشئة من هذا الباب.

الخطأ الثالث ـ وهو يندرج في ما قبله ـ: أن المرء قد يطيل التفكير في أمور ويمعن إمعاناً شديداً ويلح عليها ليالي وأياماً فتتوارد عليه الأفكار بكثرة، وحيث لم يألف تلك الخواطر يظن أن ذلك بوحي من الله سبحانه وتعالى ويظن أن لها قداسة، لا سيما إذا كان قد دعا الله سبحانه وتعالى أن يهديه، وكان التفكير في موضوع رباني ومعنوي. وقد وقع في هذا الأمر جماعة.

ويكفي منبهاً إجمالياً على خطورة هذا التلقي أن جماعة ممن جرى على هذا المجرى ممن ينسب إلى التصوف أو بعض مناهج المعقول والمعرفة زلوا زلة عظيمة في الفكر والسلوك وقدسوا أفكاراً زعموا أنها أفيضت عليهم مما وراء الغيب مع أنها أفكار بشرية محضة تخطئ وتصيب.

ومنشأ الخطأ في ذلك الغفلة عن أمور واضحة لمن تأمل هذه المواضيع من علٍ ولم يستغرق في حالته هو.

وهذه الأمور على الإجمال ..

منها: الالتفات إلى قابليات النفس وطاقاتها وعمق كوامنها وخفاياها، فإن الاطلاع على ذلك يقي المرء من الاعتقاد بأن كل حالة فكرية غريبة هي مما وراء الغيب.

ومنها: أن بعض ما يتلقاه الإنسان مما وراء الغيب قد يكون إيحاءات شريرة من الشياطين والجن، بينما يظنه المرء من قبيل الملائكة، وذلك لحسن ظنه بنفسه فيظن صفاءها بما لا يَحتَمِل معه أن يتلقى شيئاً من الشيطان الرجيم، مع أنه ربما يكون في واقع حاله منغمساً في حبّ المال والجاه والمكانة، ولكنه مانع

بعض مظاهرها فتمثلت لديه بأشكال رمزية لا يهتدي إلى انتمائها ومنابعها.

ومنها ـ وهو مهم جداً ـ: أن إعانة الله سبحانه وتعالى للإنسان إنما تكون على قدر قابليته وفهمه واستيعابه وأدواته الإدراكية فيكون ذلك على وَفقِ منظومته الفكرية وبناه الذهنية، فعليه أن يتوقع في كل ما يتلقاه أن لا يخلو عن النقص الذي قد يوجبه ضيق المنظومة الإدراكية والذهنية.

ومن ثم فإن أيّ تلقٍّ إنساني لشيء من علٍ في غير حالات الوحي الإلهي الظاهر للأنبياء والأولياء لا يخلو عن بصمة إنسانية بالنظر إلى طبيعة المتلقي.

٣٤/ ج ـ وصف التمثلات الروحية ومدى اعتبارها

(الحقيقة ٣٤): في التمثلات الروحية في اليقظة والمنام، والتأصيل الشرعي في مدى اعتبارها وقيمتها ..

وهذا الموضوع كسابقه من جملة المواضيع التي يكثر الاشتباه فيها عند فريق من الناس بما يؤدي إلى انحرافات وأخطاء كثيرة.

أقسام المنامات

وتنقسم المنامات إلى أقسام أربعة ..

الأول ـ ما هو الغالب ـ: من أن تكون الرؤيا نفسانية ناشئة من الرغبات والأهوال والمخاوف الكامنة في النفس الإنسانية، فإن غياب الوعي في حال النوم يعطي فسحة لقوة الخيال في النفس الإنسانية فيبرز ما حجبته الرقابة العقلية والنفسية في حال اليقظة عن البروز، فيكون المنام نحو تنفيس للإنسان تجاه القيود التي يشعر بها في حال اليقظة.

وهذا أمر واضح على الإجمال لجميع الناس، كما في حالة الاحتلام.

لكن ينبغي الالتفات إلى أن مساحة هذا القسم أكبر بكثير مما يظنه كثير من الناس، ذلك لأن هذا القسم لا ينحصر في مورد الدوافع الظاهرة للإنسان في حال اليقظة والمستولية على النفس الإنسانية حينها كما قد يظنه عامة الناس،

فيقول أحدهم في الاستدلال على صدق المنام: (إني لم أكن أفكر بالشيء الكذائي ولا كنت قريباً منه في هذه الأيام)، بل من الثابت بالبحث والتتبع أنه كثيراً ما يكون المنام تمثلاً لدوافع وأفكار كامنة في العقل الباطن بحيث لا يكون الإنسان مطلعاً عليها في اليقظة، بل قد يكون الغالب فيها كذلك، لأن الدوافع والأفكار ما لم تجد فسحة في اليقظة فقد تميل النفس إلى التفريج عنها في المنام.

الثاني: أن تكون الرؤيا ربانية بوحي من الله سبحانه وتعالى وملائكته، تسديداً وتوجيهاً لبعض من شاء من عباده الصالحين، وذلك كرؤيا إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل، أو تخويفاً لبعض العصاة والظالمين عن ارتكاب أمر، نظير ما يتفق في الإيحاءات حال اليقظة.

الثالث: ما يتضمن إنباءً صادقاً عن حوادث مستقبلية ـ تتفق فعلاً ـ أو حالية لم يكن لصاحب الرؤيا علم بها.

وهذا القسم لا يختص بمن يكون مؤمناً يراد تسديده من قبل الله سبحانه وملائكته، بل قد يكون في غير المؤمنين من الناس نظير رؤيا الملك التي فسرها يوسف عليه السلام.

وصدق هذه الرؤيا ينشأ عن أحد عاملين ..

١ ـ أن يكون سبب صدق المنام أمراً طبيعياً محتملاً، كأن تكون الرؤيا موافقة لهموم المكلف وهواجسه وأحذاره، فيكون من قبيل القسم الأول في الحقيقة وإن اتفق صدقه، إذ ربّ رغبة تتحقق وأمل يصدق ومحذور يصان المرء عنه.

أو يكون سبب صدقها ضرباً من التنبؤ في العقل الباطن على وَفقِ استشعاراته حسب معلوماته، حيث ثبت أن كثيراً من قرارات الإنسان وتنبؤاته ليست معللة بمناشئ مشهودة له، بل تبتني على استشعارات وإشارات مما هو كامن في مرحلة اللاوعي، فإن مرحلة اللاوعي أوسع بكثير من مرحلة الوعي، وعملية الاستحضار بالنسبة إلى ما فيها غير ميسورة، مع احتياجها إلى وقت وتحليل طويلين. وهذه حقائق واضحة.

٢ ـ أن يكون صدق المنام غير مبني على سبب طبيعي، ومثل ذلك مما يختلف في سببه الحقيقي، فقد يحتمل أن يكون من اطلاع الملائكة في أهل الإيمان خاصة أو بعضهم كرؤيا النبي ﷺ أن المؤمنين سيدخلون البيت الحرام ـ كما قصّ ذلك في سورة الفتح ـ أو يكون من اطلاع الجنّ لا سيما في غير أهل الإيمان والتقوى، إذ علم أن بعض الجنّ يطلعون على بعض المغيبات، ويحتمل أن تكون بعض النفوس من جهة صفاء فيها تطلع على بعض المعلومات في كتب التقدير الإلهي، ولا يلزم أن يكون صاحب هذا الصفاء مؤمناً أو مستقيماً في جميع جهاته كما يدل عليه تتبع الموارد.

الرابع: ما يكون بإيحاء من الشيطان، وذلك لغرض إيذاء الناس وتضليلهم وصرفهم عن الاتجاهات والمقاصد الصحيحة وانشغالهم بما لا نفع لهم فيه.

والحاصل من ذلك: أن المنامات منها صادق محمود، وكاذب مذموم، وخاطئ موهوم، لأن فيها ربانياً ناشئاً من الوحي والإلهام، وشيطانياً ناشئاً من الوسوسة والأوهام، ونفسانياً ناشئاً عن تمثلات مقبولة أو تخيلات سقيمة حاصلة من اختلال الإدراك واعتلال المزاج.

التأصيل الشرعي تجاه المنامات

وليعلم أن التأصيل الشرعي العام تجاه المنامات ـ بلا فرق بين أن يعتقد النائم أنه رأى بعض الأنبياء والصالحين أو لا ـ أنها من الأمور المتشابهة التي قد يكون وقوعها للإنسان ابتلاءً له أو فتنة وليس هداية وإرشاداً، فهي لا تصلح لإثبات أي شيء، لا إثبات موقف فكري أو فقهي، ولا وقوع حوادث مستقبلية وعدمها، ولا تزكية نفس صاحب الرؤيا حتى وإن اتفق صدق رؤياه. وذلك مما تشير إليه الأدلة وتتضح بملاحظة الوقائع الخارجية وما يقع من نسبة مضامين غير معقولة ممن لا سبيل إلى دعوى كذبه عن قصد إلى الأنبياء والأولياء، وربما وقع في بعض الأحاديث ما اهتم العلماء بتوجيهه وتأويله تنزيلاً للمتشابه على

المحكم.

نعم قد يصلح بعضها لأداء أحد أمرين ..

الأول: أن تحفز النفس على فعل الخيرات وترك الشرور، ويرجع ذلك إلى حثّها على مطاوعة العقل في ما ثبتت صحته بالدليل الواضح وتيقن من حقانيته بالبرهان الجلي، فيوجب ما يراه النائم استجابة من القلب تجاهه وطمأنينة من النفس حياله، ويرجى أن يكون تسديداً على الحق وتسكيناً في السير على الصدق.

والآخر: أن تكون منبهاً له على أمر ينبغي أخذه بنظر الاعتبار من حادث يخاف منه أو حقيقة يجب الإذعان بها، ونحو ذلك.

والمنبّه ليس مؤشراً على ما ينبه عليه بالضرورة، بل قد يثير في النفس احتمالاً يغفل عنه وعن دراسته بحيث لو التفت إليه أولاً لكفى في أخذه بنظر الاعتبار.

وهذا المعنى ـ أي عدم صلاحية المنام لأن يكون حجة على حقيقة أو حكم ـ على الإجمال من الأمور البديهية في الإسلام، فلا تجد أن أحداً من أهل العلم والفقه يثبت موضوعاً عقائدياً أو حكماً فقهياً أو عدالة أحد أو واقعة يتنبأ بها يترتب أثر شرعي عليها بالمنامات والرؤى مهما كانت مكانة المدعي لها والوثوق بقوله في حصولها.

ويكفي منبهاً على ذلك ملاحظة ما يتفق من المنامات لدى الأقوام والملل والمذاهب المختلفة، فإن الناظر لها يجد تهافتاً كبيراً بينها، بل يجد تهافتاً كبيراً بين أهل المذهب الواحد عند الاختلاف في المواضيع الفقهية والاجتماعية والسياسية الحادة على ما يظهر بتتبع ما يحكى منها مما دوّن أو لم يدوّن من الحكايات المتعلقة بالأزمنة القريبة.

ومن أجل ذلك صرح كثير من الأصوليين المتأخرين كالشيخ الأنصاري ﷺ وجمع ممن قبله وبعده بأن الاعتقادات الحاصلة من المبادئ غير المتعارفة مما لا حجة فيها على الآخرين، وكان ذلك بعد أن تمسك البعض على حرمة شرب

التتن ببعض المنامات.

بل عدّها شاهداً أو مؤيداً في البحث العلمي أمر خاطئ وموهوم، كما إن التعويل الشخصي عليها سواء في مستوى الحجة أو الشاهد والمؤيد خطأ فظيع، وإنما ينحصر دورها بدفع الوساوس أو التنبيه فحسب لشخص من يرى ذلك.

عدم صحة التمسك بالمنامات في إثبات الحقائق والأحكام

ويتفرع على ذلك أن أي شخص تمسك بالمنامات في إثبات حقيقة أو حكم كان خارجاً عن حدود أهل العلم والفقه والكلام ـ ما لم يكن زلة نادرة وكبوة شاذة ـ متشبثاً بالشبهة، معولاً على الظنّة، لم يخلُ عن إحدى حالات عند أهل العلم فهو إما فاقد للاستقامة الفكرية ويعيش في التخيلات والأوهام، وإما مبتدع جعل من المنامات التي يراها أو يدعيها سبيلاً لتقوية بدعته، أو جاهل لا يعرف موازين الاحتجاج والاستدلال المقبول منها والمردود على وَفقِ ضرورة العلم والفقه.

القول في قيمة المكاشفات

وأما التمثلات والأحاسيس الحاصلة في حال اليقظة ـ التي يعبر عنها بالمكاشفات ـ فقد يظن أنها حقة لا محالة، لأنها تحصل من غير غياب للوعي، كما يجري عليه بعض المنسوبين إلى التصوف، ومن ثم ربما بنى عليه جماعة ـ ممن ينسب إلى المنهج الإشراقي أو المنهج الجامع بين الفكر والإشراق ـ منهجاً فكرياً في علم المعقول وخاصة قسم ما وراء الطبيعة منه، وقد حاول المنهج الثاني إثبات حقانية تلك الأفكار بتقريبات عقلية هي أقرب إلى الاستحسان من البرهان العقلي.

وذلك كله خطأ في ضوء العلم والفطرة والخبرة والدين، وكفى منبهاً إجمالياً على خطئه ملاحظة أن ذلك كله مما يقع لأرباب المقالات الباطلة والضلالات الظاهرة، ثم هي تختلف وتتهافت بحسب أفكار أصحابها

ومتبنياتهم، فكل يتراءى له ما يناسب عقيدته ويرى الذي يلائم ما انطوت عليه سريرته.

ومن نقاط الجهل في هذه المناهج عدم الاطلاع على القدرات الغامضة الكامنة في النفس ووجوه فاعليتها، والغفلة عن العوارض المرضية وشبه المرضية الطارئة في موارد الضغط الطويل عليها والإصرار على منحى معين فيها، وهو مما يتضح بالوقوف على أحوال الناس وعوارضهم، وقد وثق ذلك في علم النفس العام، وعلم الطب النفسي.

ولذلك كله لا إشكال بين علماء المسلمين وفقهائهم من صدر الإسلام على تنزيل هذه التمثلات والأحاسيس منزلة المنامات، فلا تثبت بها حقيقة ولا يستدل بها على حكم ولا ينتفع بها في سلم ولا حرب، بل شأنها إما التحفيز أو التنبيه كما تقدم التطرق إليه في المنامات، ومن عوّل عليها في غير ذلك فقد زلّ وضلّ، وإن ساق غيره إلى طريق استنبطه على ضوء ذلك فقد أرسى منهجاً خاطئاً وضلّ ضلالاً مبيناً.

فالمكاشفات على أقسام ثلاثة ..

الأول ـ وهو قليل فيها بالقياس إلى موارد ادّعائها ـ: أن تكون مبنية على طروء نحو من الصفاء الروحي بما يتيح الإحساس بما وراء هذه المادة الكثيفة من غير نقصان للوعي، نظير ما كان يتحقق للنبي ﷺ عند قدوم جبرائيل حيث كان يراه ويسمعه من دون الناس، كما كان يرى الشيطان ويسمعه. وقد تقدم ما رواه أمير المؤمنين عليه السلام[1] عن النبي ﷺ أنه قال له: ((إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي)).

الثاني: أن يكون من جهة تمثل بعض الكائنات اللطيفة تمثلاً مادياً ـ على ما جوزه جماعة ـ فلا يكون في حقيقته مجرد تخييل من تلك الكائنات للرائي، بل وجوداً حقيقياً ينعدم متى شاء. وقد قيل بوقوع ذلك للملائكة والشياطين والأرواح الخيرة والشريرة، وربما كان المتمثل شيطاناً فتوهمه الرائي ملكاً أو عبداً

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٥٧-١٥٨.

صالحاً[١].

الثالث ـ وهو الأكثر ـ: أن تكون من جهة خفة الوعي فتشبه حالة المنام فتتمثل لصاحبها الإيحاءات وتتنامى في نفسه الخيالات، وهذا القسم يكون بدوره على أنحاء أربعة على حدّ المنامات ..

١ ـ ما يكون تمثلات لرغبات ومخاوف نفسية أو أفكار وأوهام ذهنية أشبع النفس بها فقويت فيه حتى تمثلت للحظة خَفَتَ الوعي فيها، منها ما يكون خيراً كتمثل الجنة والنار للمتقين، ومنها ما يكون غير ذلك.

٢ ـ ما يكون تمثلاً لإيحاءات ربانية تسديداً وتوجيهاً للمرء في صلاح أو

(١) وفي بعض الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أن عبد الله بن سبأ كان يدعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين عليه السلام هو الله ـ تعالى عن ذلك ـ فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فدعاه وسأله، فأقر بذلك، وقال: نعم أنت هو، وقد كان ألقي في روعي أنك أنت الله وأني نبي. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ((ويلك قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ـ ثكلتك أمك ـ وتب)). فأبى فحبسه أيام فلم يتب، فأحرقه بالنار. وقال: ((إن الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك)) (اختيار معرفة الرجال ج:١ ص:٣٢٣). وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ((لا أحسبه الا وقد تراءى لصاحبكم فاحذروه)) (اختيار معرفة الرجال ج:٢ ص:٥٨١). وفي حديث ثالث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((إن بناناً والسري وبزيعاً (لعنهم الله) تراءى لهم الشيطان في أحسن ما يكون صورة آدمي من قرنه إلى سرته)) (اختيار معرفة الرجال ج:٢ ص:٥٩٢). وروي عن يونس قال: سمعت رجلاً من الطيارة يحدث أبا الحسن الرضا عليه السلام عن يونس بن ظبيان أنه قال: كنت في بعض الليالي وأنا في الطواف فإذا نداء من فوق رأسي: يا يونس إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، فرفعت رأسي فأذاج. فغضب أبو الحسن عليه السلام غضباً لم يملك نفسه، ثم قال للرجل: ((اخرج عني لعنك الله ولعن من حدثك ولعن يونس بن ظبيان ألف لعنة يتبعها ألف لعنة كل لعنة منها تبلغك قعر جهنم، أشهد ما ناداه إلا شيطان. أما أن يونس مع أبي الخطاب في أشد العذاب مقرونان، وأصحابهما إلى ذلك الشيطان مع فرعون وآل فرعون في أشد العذاب، سمعت ذلك من أبي عليه السلام)). قال يونس: فقام الرجل من عنده فما بلغ الباب إلا عشر خطاً حتى صرع مغشياً عليه وقد قاء رجيعه، وحمل ميتاً. فقال أبو الحسن عليه السلام: ((أتاه ملك بيده عمود فضرب على هامته ضربة قلب فيها مثانته، حتى قاء رجيعه، وعجل الله بروحه إلى الهاوية، وألحقه بصاحبه الذي حدثه بيونس بن ظبيان، ورأى الشيطان الذي كان يتراءى له)) (اختيار معرفة الرجال ج:٢ ص:٦٥٧-٦٥٨).

تخويفاً له عن إجرام.

٣ ـ ما يكون تمثلاً لإيحاءات صادقة إلى النفس على حدّ المنامات الصادقة.

٤ ـ ما يكون تمثلاً لإيحاءات شيطانية قويت في النفس حتى تجسدت أمام الإنسان للحظة.

٥ ـ يضاف إلى ذلك نحو خامس: وهو ما ينشأ عن بعض الحالات المرضية المعروفة في علم الطب النفسي، فإنها تؤدي إلى تمثلات حسية متكررة وطويلة تناسب مرتكزات المريض، وقد لوحظ عياناً أن فيهم من يدعي رؤية بعض الأنبياء والأوصياء أو نزول الملائكة عليه وربما ادعى بعضهم النبوة مع تصرفات وسلوكيات واضحة في الخروج عن الاعتدال النفسي.

استنتاج

فظهر أن هذه التمثلات النفسية على أقسام بعضها محمود وبعضها مذموم وبعضها موهوم، وعامتها متشابه، ومن ثم تجد أن بعض أهل الصلاح يحتاط في ما يتراءى له من منام أو تمثل فيقول: إن صدقت رؤياي، وإذا أصاب ما تمثل لي. ولكن أهل الجهل يتذرعون بما يتفق لهم ويجعله بعضهم باباً لتحصيل الجاه.

علماً أنه يشترط في ما يحمد منه ويحتمل صدقه شروط عدة ..

منها: أن يتصف الشخص بالاستقامة التامة في عامة أفكاره وسلوكياته وتصرفاته وأقواله، بحيث يحرز اعتداله المزاجي والنفسي.

ومنها: أن لا يكون ما يتراءى مخالفاً لبديهيات الفطرة المستقيمة وبيّناتها كتقبيح أمر حسن بالفطرة، أو تحسين قبيح بحسبها، ولا يناقض ثوابت العقل السليم من أمور مستحيلة وغير معقولة، ولا ما يخالف ثوابت الدين الحنيف من خلال محكمات الكتاب ودلائل السنّة، ولا يكون باباً للابتداع في الدين أو مأخذاً لإثبات حقائق وأحكام، فإن كل ذلك يُخطأ مدعيه كائناً من كان، ولا تشفع لصاحبه سابقة ولا لزاعمه جلالة.

٣٥/ د ـ التأثيرات الغامضة (خوارق العادات)

(الحقيقة ٣٥): في قابليات النفس الإنسانية للتأثير الخارق.

وهذا الموضوع أيضاً موضوع مهم، من جهة تعدد وجوهه وتشابه الأمر فيه، فقد كانت الخوارق من جهة حججاً للأنبياء عليهم السلام على صدق إنبائهم عن الله سبحانه وقد قُصَّ جانب من ذلك في القرآن الكريم، كما كانت كرامة للأولياء من قبيل ما قُصَّ من كرامات مريم عليها السلام.

ومن جهة أخرى فقد لوحظ حدوث خوارق أو شبهها من بعض آخر من الناس بالرياضة والسحر والكهانة وبعض العلوم الغريبة، وقد جعلها بعضهم سبيلاً إلى دعوى الألوهية أو النبوة أو الوصاية أو مقامات وامتيازات معنوية، وأغرى بذلك جماعة من الناس ممن لا يعلم بحقيقة تلك الوقائع ومنشئها.

أقسام الخوارق

والذي عليه عامة أهل العلم قديماً وحديثاً وتدل عليه الخبرة والاطلاع أن ما يتلقى من قبيل الخوارق على أقسام أربعة ..

القسم الأول: ما ليس فعلاً خارقاً أو غير اعتيادي، ولكن يوهم الفاعل أنه خارق على سبيل الكذب والخديعة والتلبيس، بتستره على السبب الطبيعي أمام عامة الناس، وإيهامهم أن فعله هذا ليس له سبب طبيعي أصلاً بل هو فعل خارق، وكثير من عامة الناس متسرع في التصديق مسترسل في القبول، مما يكون باباً لوقوعهم في مداخل ضالة وخرافية.

قال بعض أهل العلم[1]: (إن البحث الدقيق في كثير منها يبين رجوعها إلى الأسباب الطبيعية العادية، فكثير من هذه الأفعال الخارقة يتقوى بها أصحابها بالاعتياد والتمرين كأكل السموم وحمل الأثقال والمشي على حبل ممدود في الهواء .. إلى غير ذلك، وكثير منها تتكي على أسباب طبيعية مخفية على الناس

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ج:١ ص:٢٤١ـ٢٤٢.

مجهولة لهم كمن يدخل النار ولا يحترق بها من جهة طلاية الطلق[١] ببدنه، أو يكتب كتاباً لا خط عليه ولا يقرؤه إلا صاحبه وإنما كتب بمائع لا يظهر إلا إذا عرض الكتاب على النار .. إلى غير ذلك. وكثير منها يحصل بحركات سريعة تخفى على الحس لسرعتها فلا يرى الحس إلا أنه وقع من غير سبب طبيعي كالخوارق التي يأتي بها أصحاب الشعبذة، فهذه كلها مستندة إلى أسباب عادية مخفية على حسّنا أو غير مقدورة لنا).

القسم الثاني: ما هو فعل بشري غير اعتيادي ولكن له سبب طبيعي يتوقف على ممارسات ورياضات طويلة مؤلمة، أو يحتاج إلى الاطلاع على العلوم الغريبة التي تتضمن كشف الأسباب غير الاعتيادية، أو يتوقف على كلا الأمرين من الممارسات والعلم.

وقد وصف ذلك بعض أهل العلم[٢] على وجه الإجمال فقال: (بعض هذه الخوارق لا يحلل إلى الأسباب الطبيعية الجارية على العادة، كالإخبار عن بعض المغيبات، وخاصة ما يقع منها في المستقبل، وكأعمال الحب والبغض والعقد والحل والتنويم والتمريض وعقد النوم والإحضار والتحريكات بالإرادة مما يقع من أرباب الرياضات، وهي أمور غير قابلة للإنكار، شاهدنا بعضاً منها ونقل إلينا بعض آخر نقلاً لا يطعن فيه، وهو ذا يوجد اليوم من أصحابها بالهند وإيران والغرب جماعة يشاهد منهم أنواع من هذه الخوارق).

وقد حررت علوم عدة في وضع ضوابط وقواعد لهذه الخوارق وهي معروفة[٣]، إلا أنها تحتاج إلى فن وممارسة وإشراف من أستاذ سابق غالباً.

---

(١) حجر برّاق شفّاف يُطحن فيكون مسحوقاً أبيضَ يُذرّ على البدن فيُكسبه برداً ونعومةً.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ج:١ ص:٢٤٢.

(٣) قال في (الميزان في تفسير القرآن ج:١ ص:٢٤٤ـ٢٤٥): (العلوم الباحثة عن غرائب التأثير كثيرة، والقول الكلي في تقسيمها وضبطها عسيرة جداً، وأعرف ما هو متداول بين أهلها ما نذكره ..

منها: السيمياء، وهو العلم الباحث عن تمزيج القوى الإرادية مع القوى الخاصة المادية للحصول على غرائب التصرف في الأمور الطبيعية. ومنه التصرف في الخيال المسمى بسحر العيون، وهذا الفن من أصدق مصاديق السحر.

ومنها: الليمياء، وهو العلم الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية باتصالها بالأرواح القوية العالية كالارواح الموكلة بالكواكب والحوادث وغير ذلك، بتسخيرها أو باتصالها واستمدادها من الجن بتسخيرهم، وهو فن التسخيرات.

ومنها: الهيمياء، وهو العلم الباحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير وهو الطلسمات، فإن للكواكب العلوية والأوضاع السماوية ارتباطات مع الحوادث المادية، كما إن العناصر والمركبات وكيفياتها الطبيعية كذلك. فلو ركبت الأشكال السماوية المناسبة لحادثة من الحوادث كموت فلان وحياة فلان وبقاء فلان ـ مثلاً ـ مع الصورة المادية المناسبة أنتج ذلك الحصول على المراد، وهذا معنى الطلسم.

ومنها: الريمياء، وهو العلم الباحث عن استخدام القوى المادية للحصول على آثارها بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الأنحاء، وهو الشعبذة.

وهذه الفنون الأربعة مع فن خامس يتلوها وهو الكيميا الباحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض كانت تسمى عندهم بالعلوم الخمسة الخفية.

قال شيخنا البهائي: أحسن الكتب المصنفة التي في هذه الفنون كتاب رأيته ببلدة هرات اسمه (كله سر) وقد ركب اسمه من أوائل أسماء هذه العلوم: الكيميا والليميا والهيميا والسيميا والريميا، انتهى ملخص كلامه.

ومن الكتب المعتبرة فيها: خلاصة كتب بليناس، ورسائل الخسروشاهي، والذخيرة الإسكندرية، والسر المكتوم للرازي، والتسخيرات للسكاكي، وأعمال الكواكب السبعة للحكيم طمطم الهندي.

ومن العلوم الملحقة بما مرّ علم الأعداد والأوفاق، وهو الباحث عن ارتباطات الأعداد والحروف للمطالب ووضع العدد أو الحروف المناسبة للمطلوب في جداول مثلثة أو مربعة أو غير ذلك على ترتيب مخصوص.

ومنها: الخافية، وهو تكسير حروف المطلوب أو ما يناسب المطلوب من الأسماء واستخراج أسماء الملائكة أو الشياطين الموكلة بالمطلوب، والدعوة بالعزائم المؤلفة منها للنيل على المطلوب.

ومن الكتب المعتبرة فيها عندهم كتب الشيخ أبي العباس التوني، والسيد حسين الأخلاطي وغيرهما.

ومن الفنون الملحقة بها الدائرة اليوم التنويم المغناطيسي وإحضار الأرواح، وهما ـ كما مرّ ـ من تأثير الإرادة والتصرف في الخيال، وقد ألف فيها كتب ورسائل كثيرة، واشتهار أمرها يغني عن

وذكر بعض أهل العلم والاطلاع في هذا الشأن[١]: (التأمل التام في طرق الرياضات المعطية لهذه الخوارق والتجارب العملية في أعمالهم وإرادتهم يوجب القول بأنها مستندة إلى قوة الإرادة والإيمان بالتأثير على تشتت أنواعها، فالإرادة تابعة للعلم والإذعان السابق عليه، فربما توجد على إطلاقها وربما توجد عند وجود شرائط خاصة، ككتابه شيء خاص بمداد خاص في مكان خاص في بعض أعمال الحب والبغض، أو نصب المرآة حيال وجه طفل خاص عند إحضار الروح، أو قراءة عوذة خاصة .. إلى غير ذلك. فجميع ذلك شرائط لحصول الإرادة الفاعلة، فالعلم إذا تم علماً قاطعاً أعطى للحواس مشاهدة ما قطع به، ويمكنك أن تختبر صحة ذلك بأن تلقن نفسك أن شيئاً كذا أو شخصاً كذا حاضر عندك تشاهده بحاستك ثم تتخيله بحيث لا تشك فيه ولا تلتفت إلى عدمه ولا إلى شيء غيره فإنك تجده أمامك على ما تريد، وربما توجد في الآثار معالجة بعض الأطباء الأمراض المهلكة بتلقين الصحة على المريض.

وإذا كان الأمر على هذا فلو قويت الإرادة أمكنها أن تؤثر في غير الإنسان المريد نظير ما توجده في نفس الانسان المريد إما من غير شرط وقيد أو مع شيء من الشرائط).

وذكر[٢] أيضاً ما يقتضي أن هذه الأسباب إنما تعطي شعوراً لصاحبها بتحقق خرق للعادة ولا يقتضي تحقق هذا الخرق واقعاً، وبيّن شواهد على ذلك.

القسم الثالث: ما يتحقق بالاستعانة بكائنات غير محسوسة كالجن، وهذا كسابقه في أن له أسباباً طبيعية غامضة تتوقف على الرياضة والعلوم الغريبة، إلا أن هذه الأسباب إنما تؤدي إلى تيسر الاتصال بالجن والتأثير عليه في الاستجابة لطلب الفاعل، وأما الفعل فإنما يصدر من الجن دون المتكلف لتلك الأسباب.

الإشارة إليها هنها، والغرض مما ذكرنا على طوله إيضاح انطباق ما ينطبق منها على السحر أو الكهانة).

(١) الميزان في تفسير القرآن ج:١ ص:٢٤٢.

(٢) لاحظ الميزان في تفسير القرآن ج:١ ص:٢٤٣.

القسم الرابع: ما هو أمر رباني[1]، وفيه تندرج معاجز الأنبياء وكرامات الأولياء.

امتيازات الخوارق الربانية

ويمتاز هذا القسم عن الأقسام السابقة ..

أولاً: بأنه ليس فعلاً بشرياً بمعنى أن يكون صادراً عن الإنسان لما اكتسبه من قوة الإرادة بالرياضة ونحوها، كما يلحظ ذلك في ما اتفق لإبراهيم عليه السلام من إعادة الطيور المقطعة إلى الحياة، كما قال الله سبحانه[2]: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾. وقال سبحانه عن سلامة إبراهيم عليه السلام من النار[3]: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾. وقال في شأن موسى عليه السلام[4]: ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۞ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى**﴾. وقال بعد ذكر سحر السحرة[5]: ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ**﴾. وقال عن معجزة عيسى عليه السلام في نزول المائدة[6]: ﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ**

---

(١) قال العلامة المجلسي في بحار الأنوار (ج:١٧ ص:٢٢٢) في الأول من شروط المعجزة: (أن يكون فعل الله أو ما يقوم مقامه من التروك).

(٢) البقرة:٢٦٠.

(٣) الأنبياء:٦٨ـ٦٩.

(٤) طه:١٩ـ٢٢.

(٥) طه:٦٧ـ٦٩.

(٦) المائدة:١١٤ـ١١٥.

الرَّازِقِينَ ۞ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ..﴾.

وقد يصح إسناد الفعل إلى النبي أو الولي في بعض الخوارق، إما لأن إرادته استتبعت الحدث المعجز من الله سبحانه، أو لأنه تعالى أعطى له قدرة خارقة خارجة عن نظام الأسباب الطبيعية ـ العادية وغير العادية ـ على تفصيل معروف في علم الكلام، ومن ذلك قوله تعالى عن قول عيسى عليه السلام[1]: **﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ..﴾.**

وبذلك يختلف عن القسم الثاني الذي كان يتأتّى على أساس استثمار السنن الكونية العامة، فإن الفعل في هذا القسم مما لا يتأتّى إلا بإمداد خارق من الله وفضل منه.

وثانياً: أنه يمتاز ما يتفق للأنبياء بخصائص يرفع عنها اللبس والشبهة وتختلف بها عن القسم البشري، كما يجده الباحث عند تأمل تاريخ الأنبياء، منها ما يأتي ..

١ ـ أنه يتفق لأناس لم يعهد سعيهم في منحى إيجاد الخوارق وإنما كان ذلك مفاجأة غير معهودة منهم، كما هو الحال في نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وإبراهيم وموسى عليهما السلام، كما إنهم لا يتصفون بالغموض والشذوذ ونحوهما من المعاني التي تشهدها لدى المعنيين بهذه المعاني، بل شخصياتهم في غاية الاعتدال والاستقامة والاسترسال والسلامة والألفة مع عموم الناس.

٢ ـ إن الذي يتراءى من حالهم في المجتمع العام تحكم جهة عليا في ما يقع منهم من الخوارق، وأنهم لا يستطيعون الاستجابة لكل ما يقترح عليهم وإن رغبوا في ذلك. بل يظهر عليهم وعلى تصرفاتهم سمات التسليم لإرادة فوقانية قاهرة كما جاء ذلك في نصوص قرآنية عديدة.

---

(١) آل عمران:٤٩.

قال تعالى[١]: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾. وقال سبحانه[٢]: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً﴾.

كما يمتاز ما يقع من الكرامات للأولياء ـ مضافاً إلى ما تقدم في المعاجز ـ بأنها لم يعهد صدورها في حق أهلها من الأوصياء أو الأولياء في مقام إثبات حقانيتهم للمجتمع العام.

لزوم الحذر في شأن دعاوي الخوارق

وعلى ضوء ما تقدم يجب على الناس الحذر في مقام ترتيب أثر عملي على ادعاءات الخوارق حتى لو تراءى لهم وقوعها في المقامات الآتية ..

أولاً: من يحتج بادعائها على إثبات موقع إلهي أو عقيدة دينية للمجتمع العام مثل دعاوى النيابة الخاصة، وقد كثر الدجل والكذب في هذا المقام حتى وقع جمع من الناس في هذا الفخ من البسطاء المتسرعين في الاعتماد على كل دعوى معنوية، لعدم تدقيقهم في موافقة ادعاءات المدعي ومقاصده مع الرسالات الثابتة والفطرة المستقيمة وقضاء العقل، بل ولا التأكد الكافي في وقوع هذه الخوارق فعلاً مع ما يشوب غالبها من وجوه الخدعة والتلبيس بشهادة الممارسين والمطلعين من أهل الورع والتقوى والفطنة.

وثانياً: من شهر عن نفسه مثل ذلك في المجتمع وبنى عليه لنفسه موقعاً معنوياً دون النبوة والوصاية والنيابة الخاصة، فإن هذا دأب أهل الأهواء والبدع.

---

(١) الأنعام:٣٥.

(٢) الإسراء:٩٠ـ٩٣.

وأما الصالحون فهم بمنأى عن ذكر ما يتفق لهم من العنايات الإلهية ويخشون زوالها بنشرها أو وقوع الناس في الشبهة بمثلها.

وثالثاً: من شهر عن نفسه معالجة المرضى ولا سيما النفسيين منهم، واتخذ ذلك مهنة بدعوى امتيازه بخاصة معنوية له دون سائر الصالحين وأهل التقوى، بل عامة من يدعي مثل ذلك يتوسل إلى الطرق الشيطانية والتلبيس والخدعة للتمويه على الناس.

وهذه الحالات معهودة منذ العصور القديمة وكان كثير من أهل هذه الدعاوى يتوسلون إلى تعلم العلوم الغريبة أو الأسباب الخفية لكي يلبسوا على الناس فيزعمون أنها من قبيل المعاجز والكرامات.

هذا، وقد يتفق أن يهب الله سبحانه ميزة لبعض الناس في تفسير المنامات أو بعض وجوه الاستخارة من غير أن يكون ذلك دلالة على امتياز على غيرهم في الصلاح والتقوى كما يذعن بذلك كثير منهم، فمن أخرج امتيازه مخارج الدلالة على ذلك وجب التوقف في دعواه وكان قوله مريباً.

واعلم أن عامة ما يدّعى من الإيحاءات والسحر وإحضار الأرواح ونحوها في هذه العصور كذب صراح ودجل واضح وتلبيس متعمد يستغل سذاجة عامة الناس، وليس فيهم من يتقن مثل هذه الفنون حتى بواقعها المذموم، اللهم إلا أن يكون واحداً في الألف أو دون ذلك، فإن هذه المعاني لن تتحقق للشخص بمجرد الرغبة أو مطالعة بعض الكتب المعدة فيها، بل تحتاج إلى رياضات طويلة وعناء كبير حتى تؤدي بصاحبها إلى اكتساب بعض تلك الصفات. وعامة المدعين لهذه الأمور ليسوا ممن مارس ذلك بل يعولون على بعض ما يتفق صدفة، ويتممون ذلك في موارد أخرى بالتلبيس أو العلاج الطبي بالطرق النفسية أو بالأدوية ويزعمون تلك المزاعم لأنفسهم في أثرها، وهذا كلام من سبر أحوال المدعين وأساليبهم لا من يتحدث بالظنة ومحض السماع.

هذا عما يتفق من وجوه الكرامات والخوارق للآخرين.

المنهج الصحيح في شأن اتفاق الخوارق للإنسان

وأما ما يتعلق بما يمكن أن يتفق للمرء نفسه فالمنهج العام الصحيح الذي يجري عليه الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيون يتألف من أمور ..

الأول: الرغبة فيها لا لمكان إراءتها للناس ولكن لما فيها من إيفاء حوائج تتوقف عليها وإكرام المرء من قبل الله سبحانه فيما بينه وبين الله عزّ اسمه، وقد قصّ الله تعالى في القرآن الكريم ما اتفق لأوليائه دلالةً على إكرامه لهم ترغيباً للناس في السعي لأن يكونوا بالكرامة اللائقة عنده سبحانه.

الثاني: الحذر من إثبات وقوعها فعلاً ما لم تكن غاية في الوضوح من حيث استقامة إدراك المرء في حال تراءى ذلك له، ومن حيث كون مخرج ما وقع من باب كرامته سبحانه دون توهم أو تأثير من سبب آخر، ومن تسرع إلى الجزم بذلك ـ كما يقع من بعض الناس ـ سقط في الوهم، فلا ينبغي أن يدعي المرء العلم في مورد الظن، ولا الظن في موضع الاحتمال.

الثالث: الحذر في حال وقوعها من إبدائها لعامة الناس، لمحاذير كثيرة فيه..

منها: أن يُظن بالمرء فوق ما هو عليه من الصلاح والتقوى أو يُغلى في حقه، فإن ذلك من أسباب الغلوّ عند الناس ورواج سوق الادعاء في هذه الأمور.

ومنها: الحذر من أن يُعجب المرء بنفسه أو يكون ذكر ذلك بفحواه تزكية من المرئ لنفسه، وقد نهى الله سبحانه عن ذلك.

الرابع: الحذر في حال إحراز وقوعها من ارتكاب ما لا يليق بمن تمّ إكرامه بهذا الإكرام من قبل الله سبحانه من جهة تأكد الحجة عليه بذلك، فإن فرّط في جنبه تعالى بعد ذلك استوجب سخطاً شديداً من الله سبحانه وأدّى إلى سوء عاقبته، وقد قال سبحانه بعد أن طلب الحواريّون من عيسى عليه السلام أن يُنزّل عليهم مائدةً من السماء، قال[1]: ﴿**إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ**

---

(١) المائدة:١١٥.

عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، وقال سبحانه[1] عن بعض من آتاه آية من عنده: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾، ولهذا السبب نفسه قد يوجل بعض أهل الصلاح من أن يتفق له شيء من هذا القبيل ـ على رغبته فيه ـ حذراً من أن يشتدّ حسابه ولا يكون عمله مناسباً لذلك.

الخامس: إن وقوع الكرامة لأحد دون آخر مما لا دلالة له مطردة على امتياز معنوي في من وقعت له على من لم تقع له، فإن لله سبحانه حِكماً لا تظهر للعباد، فرُبَّ عبدٍ أكرمه بأمر خارق ظاهر وآخر أكرمه بأمر أعظم من الأول ولكن أجراه له على وَفقِ ظاهر الأسباب، وثالث أوكل إكرامه إلى ما بعد هذه الحياة، وقد يكون شيء أصلح لبعض عباده بالنظر إلى نفسه أو أسرته أو مجتمعه بينما يكون الأصلح لحال بعض آخر غير ذلك، إن الله لطيف خبير، إلى الله نلجأ من شرور نفوسنا وسيّئات أعمالنا.

---

(١) الأعراف:١٧٥.

(حقائق أخرى عامة)

٣٦/ أ ـ وصف جامع لما يؤثّر في النفس الإنسانية

(الحقيقة ٣٦): في وصف جامع للأمور المؤثرة في النفس الإنسانية، وأن كل شيء يترك بصمة عليها.

اعلم أنه ما من شيء يشعر به الإنسان إلا وهو يترك بصمة في نفسه، وذلك من وجهين ..

الأول: أنه يكون لبنة في الكيان النفسي للإنسان، فإن الإنسان في هذه الحياة في طور الازدياد والنمو دائماً ـ في إيجاب أو سلب ـ على ما يفضي به التأمل الجاد والجامع في أحواله وتؤكده الرسائل الإلهية، ومن ثم تزداد مرتكزات شخصية الإنسان بمرور الزمن من خلال ما يتجدد له، حتى إذا ما مات توقفت عنده.

الثاني: أن يكون بذرة في كيان الإنسان تنمو وترتفع كما ترتفع بذرة النباتات فتكون شجرة باسقة، كما قال تعالى[1]: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**﴾، وذلك بالنظر إلى أن كل تصرف يكون بؤرة للجهة التي تمثلها ومنبعاً لا يزال يمد النفس بإيحاءات تقع في الجهة المسانخة لها فهو يجرُّ إلى أشباهه ويدعو إلى نظائره.

فأما الإدراكات الحسية فذلك ما يشعر به الإنسان بحواسه الخمسة، من المشاهد التي يبصرها والأصوات التي يسمعها والأمور التي يتذوقها والروائح التي يشمها والأشياء التي يلمسها، فلكل من ذلك تأثير مناسب في النفس على مشاعره وأفكاره وانطباعاته وآماله وممارساته.

---

(١) إبراهيم:٢٤-٢٦.

فما كان ممدوحاً بحسب الفطرة يرسخ الأمور الفاضلة في النفس الإنسانية وينحو بها إلى جهة الفضيلة والسداد، وما كان مذموماً بحسبها يهوّن تلك الأمور ويوجب تعلقاً بالأمور المذمومة والانزلاق إليها والوقوع فيها، وما كان مشروعاً فإن كان بمقدار الكفاف كان متعة واستراحة وطاقة ومدداً، وإن زاد عليه أخذ من النفس حيزاً وأوجب تعلقاً ربّما لا تحمد آثاره ولا تؤمن عوارضه، وقد تقدم ذكر صنيع النبي ﷺ في أمر بعض أزواجه بإزاحة الستر الذي كان على بابه وفيه التصاوير، رغبة عن التلهي في هذه الحياة والإعجاب بها.

وقد جاء ما يناسب ذلك في النصوص الشريفة قال سبحانه[1]: ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، وقال[2]: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾، وقال[3] في مدح المؤمنين: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾، وقال عليه السلام[4]: ((أول النظرة لك، والثانية عليك ولا لك، والثالثة فيها الهلاك))، وعن أبي جعفر عليه السلام[5] قال: ((من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عزّ وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان))، إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة كتاباً وسنّة.

فليحذر المرء من مزالق الإحساس في ما أنعم الله به سبحانه من الحواس، ولا يستصغرنّ مشهداً أو سماعاً أو لمساً أو شماً أو ذوقاً محظوراً أو سائقاً إلى المحظور باعتقاد أنه حالة عابرة لا أثر لها، فإن ذلك أمان خادع وإيهام كاذب وتلبيس من الشيطان، تسهيلاً لارتكاب المحظور وتحقيقاً للوقوع في المحذور، فربَّ

---

(١) النور:٣٠-٣١.

(٢) فصلت:٢٢.

(٣) المؤمنون:٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه ج:٣ ص:٤٧٤.

(٥) الكافي ج:٦ ص:٤٣٤.

موقف زلِق تدحرج به المرء حتى النهاية، ومشهد استدرج به ليبلغ إلى الغاية، بل كل انحراف فهو إنما يبدأ بخطوة غافلة وعملٍ ساهٍ لم يكن يتوقع المرء أن ينتهي به إلى ما يقع فعلاً، لفقدان البصيرة اللازمة والرؤية الثاقبة، وقد قيل: (إن أول القتال اللطام)، وكم من مشهد هوّن مبدءاً فاضلاً وزرع في النفس زرعاً فاسداً، أو سماع هيّج مشاعر ذميمة وأجّج كوامن وضيعة، أو مذاق أنعش في النفس مبادئ الشرور، وخدّر فيها هواجس الخيرات.

وأما الأفكار والمعاني التي تدور في ذهن الإنسان فإن منها ما يجري في الذهن على سبيل التصديق، ومنها ما يجري فيه على سبيل التخيل والافتراض، فهي بذلك على ضربين: تصديقات وتخيلات ..

أما التصديقات فإن من شأنها بطبيعة الحال التأثير في عمل الإنسان من جهة، وعلى بنية أفكاره ومنظومة عقائده من جهة أخرى، فإن شأن الأفكار أن تستتبع أعمالاً بحسبها وأفكاراً أخرى تناسبها، بل مدى رسوخ الأفكار الكامنة في النفس واستحضارها كمّاً وكيفاً مؤثر في الاتجاه الفكري والنفسي للإنسان، لما فيه من الأبعاد التلقينية، فهناك فرق بين الفكرة التي تكون ملء الذهن وبين غيرها، ومن ثم لزم على الإنسان أن يكثر من ذكر الحقائق الكبرى ويستمع إلى المواعظ النافعة كما قال تعالى[1]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾

وأما التخيلات الذهنية فهي تؤثر في مشاعر الإنسان وأحاسيسه الداخلية، فإن التخيّل والشعور قرينان متفاعلان يعين أحدهما على الآخر، فلا تخيّل إلا وله إيحاءات ظاهرة أو كامنة في نفس الإنسان ومشاعره، فيؤثر فيها بحسب نوع التخيّل وطبيعة المشاعر التي تؤثر في حصولها.

وأما المشاعر فهي مفاتيح قلب الإنسان بل وعقله، ومبادئ عمله وسلوكه، فبالمشاعر يندفع الإنسان إلى العمل أو يكف عنه، حتى إنها من شدة دفعها تجاه غايتها قد تلغي دور الفكر والتصديق الذهني، بل قد تلغي دور الإرادة فيخرج به المرء عن الاختيار. وقد تشلُّ الفكر وتغلق بابه إذا خيف منه أن

(١) الأحزاب:٤١.

يسلك مسلكاً غير مسلكها أو تحرفه عن وظيفته من الاهتداء إلى الواقع، وتسخره ليكون خادماً لها تابعاً لما تمليه، فيزوّق مقتضاها ويلبسه لبوس الواقع. وليست الملكات الحسنة والسيئة التي هي جزء من الكيان النفسي للإنسان من قبيل الإحسان إلى الآخرين والشكر وكراهة العدوان والمساءة أو كالحقد والحسد والحرص والطمع إلا مشاعر راسخة تتحرك وتهيج عند إثارتها وتسهل عمل المرء على وَفقِ مقتضياتها.

ومن ثم يلزم المرء أن يسعى دائماً إلى توليد الشعور المواكب للفكر الصحيح والعمل النافع، ليكون قائده الفكر وسائقه الدليل، فيكون الشعور معيناً وتابعاً لا رائداً وقائداً، كما إن عليه أن يمانع من المشاعر التائهة وفاعليتها واستبدادها كما قال تعالى[1] في مدح بعض المشاعر وذم آخر منها: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِه إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾، وقال[2]: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**﴾.

وأما أعمال الإنسان وسلوكياته ـ من قول أو فعل ـ فهي الأمور الأعمق ثبوتاً والأكثر ثباتاً على النفس الإنسانية على وَفقِ دوافعها ومضامينها، فالأعمال الصالحة مشاعل إضاءة في النفس ومنابت للخير فيها، والأعمال السيئة مبادئ ظلام ومنابت شرور، فبالعمل الفاضل ترسخ الملكات الفاضلة وتُبْلَغ الدرجات العالية، كما إن بضده تنشأ الملكات الوضيعة ويسقط المرء في الدركات السافلة، وما عمله المرء لزمه وثبتت عليه الحجة به، لا سبيل له إلى نفيه وإنكاره فإن له عليه شهوداً من جوارحه وأعضائه.

هذا، وإن بعض الأعمال أخطر من بعض وذلك على قسمين ..

(١) الأعمال الدائمة، فإنها أسباب الملكات وآثارها، وليس شيء أنفع للإنسان من عمل فاضل يواظب عليه حتى يصير سجية له لا يتكلف عناءً في

---

(١) الزمر:٤٥.

(٢) الفرقان:٤٣.

ممارسته، حتى كأنه أصبح جزءاً من ذاته، مما يتيح للمرء أن يبذل عناية في عمل آخر من الأعمال الفاضلة. كما إنه ليس شيء شرّاً للإنسان من عمل وضيع اعتاد عليه حتى صار سجية له، فهو لا يشعر بضِعَته وقبحه، بل يأنس به ويحن إليه، فهو جزء من كيانه.

(٢) الأعمال الحساسة، وهي التي تصيب من فاعلها مقاتلَه، وتترك في فطرته ندوباً لا تلتئم بسهولة ويسر، كسفك الدم الحرام بغير نفس أو فساد في الأرض، فإنه أمر عظيم كما قال تعالى[١]: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾.

وكارتكاب الفاحشة، فإن ظرافة هذه العلاقة تجعل منها أمراً حساساً ذا آثار خطيرة في النفس، ولقد صدق الله سبحانه حيث قال[٢]: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾.

وكأكل مال الغير ظلماً وعدواناً لا سيما من لا قدرة له على استيفائه ولا حول له يدافع به عنه كاليتامى، وقد قال عزّ من قائل[٣]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾.

وكاتهام الإنسان البريء ممن يَعلَم سلامتَه، لا سيما إذا كان ما اتهمه به من صنيعه هو كما قال سبحانه[٤]: ﴿**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾.

وعلى الإجمال فإن النفس الإنسانية بعد خلقها صحيفة مفتوحة، وكل ما يتفق للإنسان من خطور وشعور وممارسة ينقش على هذه الصحيفة ويترك أثراً مناسباً له فيها، كما قال تعالى[٥]: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾.

---

(١) المائدة:٣٢.

(٢) الإسراء:٣٢.

(٣) النساء:١٠.

(٤) النساء:١١٢.

(٥) النجم:٣٩.

وقال[١]: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.

وقد يناسب هذه المعاني بعض الشيء جملة من الآيات الشريفة كما قال تعالى[٢]: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال جلّ ذكره[٣]: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال عزّ من قائل[٤]: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فهذه الصحيفة الداخلية توافق الصحف الخارجية التي تحصي على الإنسان أموره ولا يعزب عنها شيء منه، كما قال سبحانه وتعالى[٥]: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۞ .. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وقال[٦]: ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقال[٧]: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

٣٧/ ب ـ وصف التأثيرات الجسمية في الإدراكات والمشاعر النفسية

(الحقيقة ٣٧): التأثيرات الجسمية في الإدراكات والمشاعر النفسية.

---

(١) الإسراء:٣٦.

(٢) فصلت:٢٠.

(٣) النور:٢٤.

(٤) فصلت:٢٢.

(٥) ق:١٨، ٢١.

(٦) يونس:٦١.

(٧) الكهف:٤٩.

وهذا الموضوع من جملة المواضيع التي لا بد على المرء من الوقوف عليها، لأن الغفلة عنه تؤدي إلى اعتقادات خاطئة كبيرة في شأن الأمور النفسية، كأن يظن الإنسان أن كل العوارض النفسية الأخلاقية ناشئة من العوامل التربوية، أو يغالي في بعض تلك العوارض ويزعمها إيحاءات غيبية إلى النفس.

وقد سبق التنبيه على أنه لا شك بحسب إرشاد الدين في أن الجسد والنفس ليسا واحداً حقيقياً بحيث تكون النفس من عوارض الجسد التي تفنى بفنائه، بل لكل منهما كيانه الذي يمكن أن يبقى من دون الآخر، كما تبقى النفس بعد فساد البدن بالممات. إلا أنه بالرّغم من ذلك فإن هناك علاقة وثيقة جداً بينهما؛ لأن الجسد هو الوجود الأول للإنسان حتى إذا اكتملت أدواته وأعضاؤه بدأت إرهاصات الإدراك فيه وبرقت بدايات الشعور لديه فكان ذلك إيذاناً بنضوج الروح الإنسانية فيه، وكان كوعاء يحتضن هذه الروح.

ومن مظاهر وثوق العلاقة بينهما أمور ..

الأول: أن الجسد لا بقاء له بعد تلك المرحلة التي استعد فيها لاستقبال النفس ـ من دون نفس تتعلق به وتحل فيه ـ ومن ثم يفسد الجسد تماماً بعد مفارقة النفس.

ولكنّ النفس بدورها تبقى بعد فساد الجسد، إلا أنه يطرأ عليها تغييرات مهمة بعد ذلك قد تختلف ـ بحسب النصوص الدينية ـ لدى الناس، فمنهم من يكون في سبات كحالة المنام، ومنهم من يكون ذا نشاط كبير كالشهداء الذين وصفوا بأنهم بعد الموت أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله.

الثاني: أن خلقة كل من النفس والجسد في هذه النشأة هي على نحو يسعى كل منهما للمحافظة على هذه العلاقة، وهذا أمر لا شك فيه، فالجسد الإنساني مخلوق على نحو يسعى إلى المحافظة على نفسه، ومن ثم يشعر بالجوع والعطش والألم والتعب ونحو ذلك مما يشير إلى الحاجات الحافظة لوجود الإنسان من خلال وقايته عن الاختلال المرضي المؤدي إلى الممات، وقد وصفت في الطب تفاصيل كثيرة عن أساليب الحماية الذاتية المودعة في جسد الإنسان.

كما إن النفس هي الأخرى متشبثة بهذه العلاقة بنحو فطري وتستوحش من احتمال مفارقته بالممات، حتى وإن علمت ببقائها بعد انفصالها عن الجسد، من جهة أنسها الشديد به، وبما عهدته معه ممن شهد هذه الحياة ومقوماتها من الناس الذين كانت تألفهم وتراهم والنعم التي كانت تتمتع بها، واحتضانه المديد لها، فهي تستوحش من مفارقته، وتهاب من الانقطاع عنه، وتشعر بذلك أنها تتوجه إلى عالم مجهول وجديد لا تعرف قواعده ولا تأمن مخاطره ولا تعلم ما ينتظرها فيه، فهي كمن يضطر إلى الهجرة من موطنه الذي ولد وعاش فيه وترعرع في وسطه إلى مكان آخر لا يعرف شيئاً عنه ولا بما سوف يكون عليه.

وبالنظر إلى فطرية هذه العلاقة بين النفس والجسد لم يجز بحسب قواعد الفطرة للإنسان أن يفرط بصحته بما يؤدي إلى مماته أو أن ينهي حياته اختياراً تخلصاً من نكده وان وجد حرجاً فيها فذلك من ابتلاءات هذه الحياة التي يجب على المرء أن يصبر عليها ويعوض لا محالة عنها.

وهو في أصله قاعدة متفق عليها بين العقلاء، بل لا يجوز بحسب الشرع إيراد المرء ضرراً بليغاً على نفسه انسجاماً مع ما فطر عليه الإنسان من رعاية صحته والحرص على دفع الأذى عن نفسه، وذلك كله من تطابق الفطرة والتشريع.

الثالث: أن الخصوصيات الجسدية للإنسان منذ بداية خلقته تمثل استعدادات ومؤهلات نفسية متناسبة معها، بحيث تكون النفس المفاضة عليها مناسبة لها، أو متأثرة بخصوصياتها وذلك من وجهين ..

(أحدهما): ما يتمثل في الخلايا الجسدية للإنسان منذ نشأته، فإن هذه الخلايا ـ المتكونة من تركيبة خلايا الأم والأب ـ ذات صفات ومؤهلات جينية خاصة مؤثرة في الخصائص النفسية بمعناها العام الشامل للتعقل والإدراك، وهذا على الإجمال أمر بديهي.

ومما يتفرع على ذلك ..

أولاً: اختلاف الحيوانات في التركيبة الجينية لخلاياها، فلا تفاض على ما

تكون من خلايا بعضها نفس حيوان آخر.

وثانياً: اختلاف النفس الحيوانية والإنسانية في كونها ذكراً أو أنثى، وهما يختلفان في جملة من الجوانب الإدراكية، بالمعنى الأعم من المشاعر والعواطف النفسية.

وثالثاً: جريان قانون التوارث في الصفات النفسية بين الآباء والأولاد، وهو يعبر عن عمق علاقة الجسد والنفس.

(وثانيهما): ما يتمثل في الجهاز الإدراكي والعصبي الذي يتكون للإنسان منذ كونه جنيناً، فإنه تُفاض على الإنسان نفس تناسب في خصائصها النفسية والعقلية الجهاز الإدراكي الجسدي عنده، فأي عوز أو امتياز في هذا الجهاز ينعكس في المؤهلات النفسية والذهنية زيادة ونقصاناً، وهذا أمر واضح في علم الطب الحديث أيضاً.

وبناءً على ذلك يظهر أن النفس التي تفاض على الجسد إنما تكون في خصوصياتها ومؤهلاتها مطابقة للجسد، فهي في الحقيقة منبثقة منه ومتطورة عنه على وَفقِ سنن خلقتها، ويمكن أن يعبر عن هذا المعنى بأن كل تأهل نفسي قرين تأهل جسدي وبالعكس، وهكذا في جانب عدم الأهلية. وإلى ذلك أشار أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له عبر فيه بتعابير كنائية[1].

الرابع: أن أي خلل عضوي طارئ في خلايا الدماغ يستتبع خللاً وتغيراً في العمليات الإدراكية والمشاعر النفسية حسب محل الخلل من أجزاء الدماغ، سواء كان الخلل بموت بعض الخلايا أو خمولها وقلة نشاطها، من غير فرق بين أن يكون ذلك لإصابة خارجية، أو لاختلال داخلي في أداء الجسم بوظائفه،

---

(١) في نهج البلاغة (ج:٢ ص:٢٢٨) عن اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام ـ وقد ذكر عنده اختلاف الناس ـ فقال: ((إنما فرّق بينهم مبادئ طينهم، وذلك أنهم كانوا فِلقة من سبخ أرض وعذبها، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون. فتام الرواء ناقص العقل، وماد القامة قصير الهمة، وزاكي العمل قبيح المنظر، وقريب القعر بعيد السبر، ومعروف الضريبة منكر الجليبة، وتائه القلب متفرق اللب، وطليق اللسان حديد الجنان)).

لعوارض جسمية ابتداءً أو لعوارض نفسية، أو لطروء الهرم والشيخوخة.

كما إن السلامة العضوية لتلك الخلايا ونشاطها تؤثر على استقامة الإدراك والشعور.

ويصدق عكس ذلك أيضاً، بمعنى أن أي خلل في العمليات الإدراكية والنفسية مما يحدث من أجل صدمة نفسية ـ مثلاً ـ توجب لا محالة خللاً في الصحة العضوية لتلك الخلايا وعملها بوظائفها. كما إن سلامة تلك العمليات تؤشر أو تساعد على تحقق الصحة العضوية لها، ومن ثم ذكر أن النشاطات الذهنية في حال الشيخوخة تؤدي إلى تحفيز خلايا الدماغ وسلامتها، كما إن فقدانها يؤدي إلى ضمور تلك الخلايا وخمولها، وهذا بُعد آخر من أبعاد ارتباط النفس والجسد يعتبر بديهة محسوسة في علم الطب الحديث.

والحاصل: أن هناك ارتباطاً وثيقاً وتفاعلاً ملحوظاً بين السلامة العضوية لخلايا الدماغ والسلامة النفسية والإدراكية، بل ربما جعل بعض الأمراض العضوية في سائر الأعضاء ذا بعد نفسي وعضوي مزدوج مثل تهيج القولون العصبي. وذلك أمر معروف في علم الطب الحديث.

هذا في مقام التأثير المتبادل بين الأعضاء والنفس في الاستقامة والاختلال، ويترتب على ذلك الأمر في مقام الاكتشاف، فربَّ خلل عضوي يكشف بحسب طبيعته عن خلل إدراكي وشعوري، وربَّ خلل إدراكي أو نفسي يكشف عن خلل عضوي ويكون علامة عليه.

الخامس: أن كل نشاط إنساني في هذه النشأة فهو لا محالة ذو بعدين: نفسي وعضوي، فكل نشاط عضوي ـ غير أداء الأعضاء الداخلية كالكبد والطحال والبنكرياس والغدد الصماء ـ لا ينفك عن نشاط نفسي يمارسه الإنسان، كما إن أي نشاط نفسي ـ سواء كان إدراكاً أو تفكيراً أو شعوراً مثل الحزن والفرح وما إلى ذلك ـ لا ينفك عن نشاط عضوي لا محالة حتى إذا كان ذلك من باب استقبال إيحاءات من كائنات أخرى، وقد يذكر أنه قد أمكن في العصر الحديث رصد مطلق الفعاليات الذهنية رصداً واضحاً حتى صدق

الشاهد في شهادته من كذبه المتعمد فيها.

السادس: أن كل نشاط عضوي ذو بعد إدراكي ونفسي كالأكل والشرب والنوم ونحوها يترك تأثيراً نفسياً في الإنسان لا محالة، بمعنى أنه يبصم على النفس الإنسانية بصمة ربما لا تكون ملحوظة في أثر حادث واحد، ولكنها تلحظ بوضوح بلحاظ مجموع الحوادث، فيكون ذلك لبنة في بناء النفس الإنسانية من خلال أثرها النفسي في الجهة التي يتوجه الإنسان إليها. وهذا أمر ملحوظ في الدراسات النفسية، وقد لوحظ أن كثيراً من العادات والعوارض النفسية تبدأ بممارسة ما وتأخذ سيراً صعودياً في حياة الإنسان، ويختلف ذلك بحسب حساسية ذلك التصرف في النفس الإنسانية، فالتصرف الفردي كثيراً ما يكون دون التصرف الاجتماعي والتصرف الاجتماعي يختلف بحسب نوعه.

كما قد يرجح أن كل نشاط نفسي ـ لا سيما في ما كان ذا مضمون شعوري مثل الهموم والأفراح وغيرها ـ يترك أثراً على الجسد بإيجاب أو سلب، والله أعلم.

السابع: أن كثيراً من العوارض الإدراكية يمكن أن تنشأ عن مناشئ جسدية تارة ونفسية أخرى، ولذلك أمثلة كثيرة، مثلاً الأحاسيس الإنسانية الحاصلة بتوسط الحواس الخمس تنشأ عادة عن مناشئ جسدية معروفة من خلال تلك الحواس، ولكن لا شك في حدوثها من مناشئ نفسية تؤدي إلى إيجاد نفس الشعور في مركز الإدراك فيتخيل الإنسان حدوث ما يحس به في الخارج، فحالات الرؤية الكاذبة والسمع الكاذب والإحساس الكاذب باللمس ونحوها حالات مشهودة لدى الإنسان، وهو ما يعبر عنه بالهلوسة.

ومن ذلك أن الإحساس بالألم قد ينشأ عن حالة عضوية وقد ينشأ عن حالة نفسية بحتة، نتيجة بعض العوارض النفسية.

وهذا بُعد مهم من أبعاد العلاقة بين النفس والجسد والظواهر المتعلقة بهما.

الثامن: أن كثيراً من الجوانب الأخلاقية للإنسان ـ التي يتوقع أنها ناشئة

من الجوانب التربوية والإدراكية ـ تتأثر بالعوارض العضوية، فكم من تصرف يعلله الإنسان بأداء الوظيفة الأخلاقية والشرعية وهو في الحقيقة مسند إلى مزاجه الجسدي.

وهذا المعنى على الإجمال أمر معروف لدى القدماء ومن ثم يقسمون الأمزجة على وَفقِ اصطلاحات الطب القديم إلى أقسام عدة يثبتون لكل صاحب مزاج صفات نفسية ملائمة له. وقد أثبت الطب الحديث صحة أصل هذا المعنى حيث تبين مع تقدم علم التشريح ووظائف الأعضاء أن هناك غدداً في الجسم تفرز مواد كيميائية شديدة الفاعلية على الوضع النفسي للإنسان، وتعرف تلك الغدد بـ(الغدد الصماء) وتلك المواد بـ(الهرمونات)، وقد تقدم وصف ذلك.

التاسع: أن التفاعل الموجود بين الجسد والنفس تختلف نقطة الانطلاق فيه، فهناك طوارئ جسدية تنتهي إلى تأثيرات نفسية مثل إفراط الغدد الصماء أو تفريطها في إفرازاتها. وكذلك كثير من النشاطات الجسدية التي تتصف بإفراط أو تفريط تؤثر سلبياً على النفس الإنسانية وتوجب خروجها عن اعتدالها. كما إن النشاطات الجسدية المناسبة تؤثر إيجابياً في النفس وتوجب فاعليتها وانبساطها واعتدالها، وذلك كله مما ينعكس على فعاليات الخلايا الدماغية.

وهناك عوارض نفسية ذات مضاعفات جسدية، كما تؤدي القدرات النفسية النظرية المكتسبة من الحلم والصبر والسكينة في سلامة الجسد وحسن أداء أعضائه لوظائفها، وتؤدي الانفعالات النفسية إلى اختلال في الجسد بحصول خلل في وظائف الأعضاء المختلفة.

مثلاً: أن الاختلال في أعمال الغدد الصماء يمكن أن ينشأ عن منشأ عضوي، ويمكن أن ينشأ عن عوارض نفسية تؤدي إلى اختلالات وقتية أو مزمنة بحيث لا سبيل إلى علاجها إلا بالعلاج النفسي.

العاشر: أن الجسد الإنساني ينظم كيفية إدراك الإنسان الحسي من خلال أدوات الإحساس، لما تبين في العصر الحديث من أن هذه الأدوات لا تعكس

الواقع الخارجي كما هو وإنما تترجم ما تصادفه في الخارج بلغة طبعت عليها. فالألوان ـ مثلاً ـ ليست موجودة في الخارج على ما يراه الإنسان وإنما هي خصوصيات في الأجسام توجب انعكاس الضوء على وجه خاص يوجب تولد اللون، والأصوات ليست موجودة في الخارج كما يسمعها الإنسان، وإنما هي تموجات وذبذبات تترجمها حاسة السمع إلى صوت وهكذا، كما تقدم ذكر ذلك.

هذه وجوه من العلاقة الوثيقة بين الجسم والنفس، وفي الالتفات إلى كل واحد منها ما يصون المرء عن الوقوع في أخطاء فكرية وتربوية، لأن أخذ هذه العلاقة بنظر الاعتبار جزء من أية عملية تربوية صحيحة على وَفقِ الأصول الفطرية والدينية لتزكية النفس وتهذيبها.

ومما يتفرع على ذلك ..

أولاً: لزوم العناية بالحاجات الجسمية الفطرية لتحصيل سلامة النفس والحفاظ عليها، فلا يصح عدم الاعتناء بصحة البدن أو توفير الحاجات الضرورية للجسم من منطلق عدم الاعتناء بالحياة الدنيا.

وثانياً: أن للنفس قدرة على التأثير في الجسد ومقاومة رغباته وحاَجاته إذا لم تقتض الحكمة الاستجابة لها، فلا ينبغي للإنسان الحكيم أن يكون تابعاً لاقتضاءاته الجسدية تماماً.

وثالثاً: أن الإدراكات الحسية ـ التي هي إحساسات جسدية بطبيعتها ـ يمكن أن تنشأ عن مناشئ نفسية محضة، فلا ينبغي للإنسان أن يظن أن الإحساس حالة صادقة على وجه الإطلاق.

٣٨/ ج ـ اختلاف مكونات الشخصية الفردية

(الحقيقة ٣٨): في اختلاف مكونات الشخصية الفردية لكل إنسان ولزوم معرفتها.

اعلم أن لكل إنسان شخصيتين ..

الأولى: الشخصية الفطرية، أو قل: شخصية الشخص بحسب خلقته الأولية مما يجهز به عند خلقه، وهي تتضمن أصول استعدادات الإنسان ودوافعه من حاجاته الروحية والنفسية والجسدية.

ويذهب بعض علماء النفس إلى أن هذه الشخصية هي مشتركة بين أفراد الإنسان جميعاً ممن كان إدراكه إدراكاً سليماً، وإنما يطرأ الاختلاف من حيث العوامل التي تطرأ على الإنسان حيث إنها تحفز تلك الاستعدادات والدوافع بحسب اختلافها.

ولكن الصحيح ـ كما عليه أكثر علماء النفس ـ اختلاف الناس في ما زُوِّدوا به من الاستعدادات والقوى النفسية كاختلافهم بحسب جيناتهم في الاستعدادات والقابليات الجسمية، كما يشير إلى ذلك تأثير عامل الوراثة في هذه المعاني حيث نجد تشابه الأبناء مع الآباء والأمهات والأعمام والأخوال في كثير من الصفات والطباع النفسية تشابهاً ملحوظاً مما يقتضي أن الشخص يولد مجهزاً ببعض المؤهلات النفسية قبل التأثيرات التربوية.

الثانية: الشخصية المكتسبة، وهي الشخصية المتكونة للإنسان على أساس الدوافع الفطرية مع اتجاهاتها المكتسبة القائمة فعلاً في النفس الإنسانية، فيتصف المرء بحسبها فعلاً بالصفات المختلفة فيقال بالنظر إلى صفة الاختيار: إن فلاناً قوي العزم شديد الشكيمة أو ضعيف الإرادة، وبالنسبة إلى صفة الحكمة: إن فلاناً حكيم وعاقل أو أحمق وجاهل، أو متوسط في ذلك، ويقال بالنظر إلى صفة الضمير الإنساني: إن فلاناً صاحب ضمير وأخلاق عالية، أو أنه لا ضمير له ولا أخلاق، وبالنسبة إلى المشاعر المختلفة: إن هذا أكول، شروب، نؤوم، وأناني، وغير متوازن، ومنفعل، وشهواني، أو ما يضاد ذلك، وكل صفة من الصفات الإنسانية إذا تأملتها فهي تعبر في أصلها عن دافع من الدوافع الفطرية لكنه اكتسب قوة أو اتجه اتجاهاً خاصاً.

وعلى الإنسان أن يعرف شخصية نفسه، وذلك لأمور ..

منها: أن ذلك سبيل لتربية نفسه وتعديلها في مقام تزكيتها، فربّ شخص إذا تأمل شخصيته وجد أن قواه الشهوية والاجتماعية نمت نمواً يتلف أوقاته ويستهلك طاقاته فلا بدّ من السعي في إصلاح أموره وتربية نفسه على القناعة.

ومنها: أن ذلك يقي الإنسان من أن يقع في الموقع الخطأ، فإن لكل موقع تناسباً، فبعض المواقع الاجتماعية والوظيفية تقتضي أن يتصف المرء بالحكمة أو يكون اجتماعياً أو جواداً أو شجاعاً أو ما إلى ذلك، ومن ثم يحسن لمن بيده الأمر أن يختار لتلك المواقع من يناسبها، وقد وصّى أمير المؤمنين عليه السلام مالكاً الأشتر (رضوان الله عليه) ـ كما تقدم ذكره ـ في عهده له بأن يختار لمشورته من لا يتصف بالبخل والجبن والحرص، فقال[1]: ((ولا تُدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزيّن لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ بالله)).

وعليه فإذا عرف الإنسان من نفسه أنه يفقد الصفة التي تؤهله لتحمل الموقع الفلاني تجنبه، ومن ثَمّ يدعو الصالحين أن لا يبتليهم بمواقع وحوادث لا تناسب قابلياتهم، وكان بعض العلماء المبرزين إذا أُصرَّ عليه في التصدي لبعض الشؤون فيعتذر بأني لا أجد في نفسي أهلية ذلك من سائر مقتضيات الموقع غير العلم، فإن بعض ذلك وإن كان مخافة وتهيباً من حساسية الموقع، إلا أن فيه ما يدل على أن المرء ينبغي أن يلتفت إلى أن لا يحل بنفسه في غير محله بحسب مؤهلاته. والله العاصم.

هذا بعض القول في شأن النفس والسنن النفسية من غير استيعاب لها ولا استيفاء للقول في ما ذكرته منها.

---

(١) نهج البلاغة ج:٣ ص:٨٧.

ثناء ومسألة

فسبحان الله الذي خلق نفس الإنسان باقية بعد وفاته وقائمة بعد مماته، ليعيده إلى مثل ما كان عليه ويجازيه بما كان قد سبق منه، وأودع فيه صفة الاختيار وسلك به مسالك الاختبار، وجهزه بالعقل المنير، وحباه بالفطرة المستقيمة، ووضعه أمام طريقي الهدى والردى، وخيّره بين سبيلي الرشد والعمى. ومتّعه بغرائز يستمتع بها ومشاعر يتفاعل مع الأشياء والآخرين من خلالها، وقابليات يبدع بإعمالها، وذلّل له سبل العلم والإدراك، وسهل له طرق الاطلاع والاستطلاع. وجعل له من وراء ذلك منافذ لاستقبال الإيحاءات الربانية ومسارب لنفوذ الإلقاءات الشيطانية، حسبما اقتضته حكمته في ما سنّ عليه هذه الحياة. فسبحانك ما أعجب تدبيرك في كل جهة من جهات خلقك، وما أظرف النظم الذي عبأته في كل كائن من خليقتك. فيسّر لنا يا رب خلوداً في رضوانك وبقاءً في ظل إنعامك، ووجّه باختيارنا إلى ما يكون خيراً لنا، ولا تجعل اختبارك لنا عثرة في مسيرتنا، وأنر عقولنا بنور الحكمة، وأزل عن ضمائرنا حجب الأهواء، وانفعنا بما أنعمت به علينا، وأمتعنا بما أسديته إلينا، ووفقنا لاتباع وحيك، وألهمنا الخير من لدنك، وسدّ بفضلك منافذ الشياطين في قلوبنا، وادرأ الشك والوسوسة عن صدورنا إنك سميع مجيب، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الفهرست

تمهيد ٧

مقدمة: تذكير بأهمية التعقل ١٨

مفاتيح التعقل ١٩

الأصل الأول: التحلي بروح الحكمة في الحياة ٢٥

أهمية هذا الأصل ٢٥

أصول الحكم في الحياة ٢٩

١ ـ النظام العام للحكمة (معادلة درجة الإدراك والمُدرَك ومقدار المؤونة) . ٢٩

٢ ـ مناط أهمية الأشياء ومراتبها ٣١

٣ ـ قيمة الإدراك بحسب مراتبه ٣٢

٤ ـ رهن قيمة الإدراك بالمناشئ المناسبة دون المبادئ الذميمة ٣٥

٥ ـ في لزوم تحصيل الإدراك وتنميته ٣٧

٦ ـ المخطئ ليس على حدّ المصيب وإن كان معذوراً ٤١

٧ ـ الاحتمال قبل التحقيق على حدّ العلم في لزوم الاهتمام به ٤٢

٨ ـ أنحاء الاهتمام اللائق بالشيء بحسب مستوى أهميته ومرتبة إدراكه ... ٤٢

٩ ـ لزوم الاستعداد للاهتمام بالشيء ٤٣

١٠ ـ موانع الاهتمام اللائق بالشيء ٤٦

١١، ١٢ ـ لزوم تناسق السلوك والمشاعر ومراعاة الأولويات ٤٨

ثناء على الله سبحانه ومسألة ٤٩

الأصل الثاني: قوة العقيدة بالحقائق الكبرى ٥١

أهمية هذا الأصل ٥٢

تذكير بالحقائق الكبرى ٥٤

١ ـ وجود الله تبارك وتعالى ٥٤

٢ ـ رسالة الله تعالى إلى خلقه ٥٥

٣ ـ الصفات المقدسة لله عزّ وجل ٥٧
٤ ـ التذكير بغايته تعالى من خلق الإنسان ٥٩
٥ ـ وجود الكائنات وبقاؤها كله بإذنه ٦٥
٦ ـ كل شيء في عالم الوجود جارٍ خاضع لحساب وتقدير ٦٧
٧ ـ وجود خلق غير مادي من الملائكة والجن وتفاعله مع الإنسان ٦٨
٨ ـ النظام الذي خلق عليه الإنسان، وهو مفاصل ٦٩
الأول: بقاء الإنسان بعد الممات ٧٠
الثاني: ارتهان سعادة الإنسان وشقائه بعد الممات بأعماله في الحياة ٧٠
الثالث: أهمية المعرفة به تعالى في سعادة الإنسان ٧١
الرابع: إيداع مبادئ اهتداء الإنسان وسعادته في باطنه ٧٢
الخامس: هذه الحياة دار اختبار وامتحان للإنسان ٧٤
السادس: حقيقة ممات الإنسان ٧٦
السابع: مرحلتان للإنسان بعد الممات: البرزخ والقيامة ٧٩
خطورة المشهد في ضوء الحقائق المتقدمة ٨٢
تذكرات ثلاث ٨٤
(تذكرة ١): في ضرورة البلوغ بالاعتقاد إلى درجة اليقين ٨٤
(تذكرة ٢): ما يوجب ضعف الاعتقاد وقلة اليقين ٨٧
(تذكرة ٣): في ما ينبغي للمرء تجاه الله ورسوله وأوصيائه والدار الآخرة . ٩١
ثناء على الله تعالى ومسألة ٩٧
الأصل الثالث: الاطلاع على
أصول سنن السعادة والشقاء في الحياتين الدنيا والآخرة ٩٩
أهمية هذا الأصل ٩٩
مقدمة في ذكر حقيقة السعادة والشقاء وتنوّع سننهما إلى باطنة وظاهرة ... ١٠١
(تذكرة ١): حول حقيقة السعادة والشقاء ١٠١
(تذكرة ٢): في أن سنن السعادة والشقاء منها باطنة وأخرى ظاهرة ١٠٢
(تذكرة ٣): السعادة والشقاء إنما تكون بلحاظ الأثر ١٠٤
عرض سنن السعادة والشقاء ١٠٥
(السنّة ١): الغنى والفقر النفسيان ١٠٥

عوامل مساعدة على حصول القناعة النفسية ١٠٧
فضيلة القناعة بالمنظور الأخروي والإلهي ١١٠
(السنّة ٢): الإمكانات المادية ١١٢
قاعدة (على كل نعمة ضريبة ولكل فقدان تخفيف) ١١٢
صدق القاعدة في شأن النعم والعناء بالمنظور الدنيوي ١١٣
صدق القاعدة في شأن النعم والعناء بالمنظور الأخروي ١١٥
أقسام ما يتفق للمرء من العوارض المؤلمة وآثارها ١١٨
الحكمة في تقدير العوارض المؤلمة ١١٩
أثر الأعمال الفاضلة وأضدادها في الدنيا ١٢٠
خطأ الظن بارتهان السعادة بانتهاك القيم ١٢٣
أهمية النية في سنن الحياة ١٢٥
أثر الأعمال الفاضلة وأضدادها في الآخرة ١٢٥
أهمية النية في الآخرة ١٢٧
أهمية الداعي الإلهي وأثره في العمل ١٢٧
أثر الداعي الفاضل بالعمل إذا لم يكن إلهياً ١٢٩
مستويات النية وآثارها ١٣٠
ابتغاء وجه الله تعالى لا يعني عدم مراعاة الدواعي الفطرية ١٣١
(السنّة ٤): السنن النفسية والاجتماعية العامة ١٣١
الآثار الوضعية في هذه الحياة ١٣٣
أمثلة للأعمال المباركة والنصوص فيها ١٣٣
أمثلة للأعمال السالبة للبركة والنصوص فيها ١٣٧
مبنى الآثار الوضعية ومنشأها ١٣٩
أقسام الآثار الوضعية ١٤٢
العنايات العامة لله تعالى وموادرها ١٤٥
العنايات الخاصة لله تعالى وموادرها ١٤٦
التذكير بمعانٍ في شأن ولاية الله سبحانه لعباده وسننها ١٤٧
(التذكرة ١): في ما يوجب ولاية الله سبحانه لأمر الإنسان ١٤٧
(التذكرة ٢): في استجابة الله سبحانه للإنسان في ما توجه به إليه ١٥٢

(التذكرة ٣): في كون استجابته سبحانه في هذه الحياة على وَفقِ مقاديره فيها ١٥٣
(التذكرة ٤): في عموم استجابة الله سبحانه لعباده ١٥٤
(التذكرة ٥): في توقف استجابته تعالى للنعم الاجتماعية على سؤال المجتمع إياه ١٥٤
(التذكرة ٦): في لزوم تمسك المرء بالأسباب التي جعلها الله سبحانه للأشياء ١٥٥
(التذكرة ٧): في التحذير من المبالغة في الاعتماد على الأسباب وترك التوكل ١٥٦
خاتمة فيها ذكرى ١٥٨
ثناء ومسألة ١٥٩
الأصل الرابع: معرفة النفس والسنن النفسية ١٦١
أهمية هذا الأصل ١٦٣
الحقائق التي يجب معرفتها ١٦٤
حقائق عامة ١٦٤
١ ـ الإنسان كائن عاقل مخلد ١٦٤
٢ ـ تألف وجود الإنسان من روح وجسد ١٦٥
٣ ـ غاية كل إنسان هي السعادة وتجنب الشقاء ١٦٧
٤ ـ ذكر ما أودعه سبحانه في الإنسان من إمكانات وصفات ١٦٩
حقائق عن صفة الاختيار ١٧٢
٥/ أ ـ في بيان تزويد الإنسان الاختيار ١٧٢
٦/ ب ـ اعتبار الرشد في الاختيار المستوجب لتحميل المسؤولية ١٧٧
٧/ ج ـ في مراتب الاختيار ١٧٧
٨/ د ـ اختيار الإنسان إنما هو على نظام الابتلاء والامتحان ١٧٨
حقائق في شأن صفة العلم ١٨٤
٩/ أ ـ تيسير العلم للإنسان وأهميته له ١٨٤
١٠/ ب ـ قيمة العلم ١٨٥
١١/ ج ـ الآفات الإدراكية التي تصيب العلم والتحذير منها ١٨٦
١٢/ د ـ الآفات الأخلاقية التي تصيب العلم وبيان علاقة العلم بالأخلاق ١٨٩

ذكر جملة من الآفات الأخلاقية ١٩٠
الأنانية العامة ١٩٠
الأنانية الخاصة ١٩٠
الأنانية الجمعية ١٩١
تأثر مشاعر المرء بميوله وانطباعه ١٩٢
التعجل في إثبات الشيء قبل التأكد اللازم منه ١٩٣
١٣/ هـ ـ المناشئ العلمية للاختلال في الإدراكات الإنسانية ١٩٤
بيان تماثل منطق العلم والأخلاق ١٩٥
١٤/ و ـ اقتران الاختلال الإدراكي بالشبهة، ونظام المحكم والمتشابه وقانون الموازنة ١٩٥
١٥/ ز ـ الاختلالات الإدراكية الحسية والتحذير من الوقوع فيها ٢٠٠
مواطن ابتلاء أهل الدين بالأخطاء الحسية ٢٠٤
١٦/ ح ـ الخطأ في الإدراكات الحسية في مقام استذكارها ٢٠٧
حول صفة الحكمة ٢١٠
١٧ ـ وصف هذه الصفة وبيان الحاجة إلى تنميتها ٢١٠
سبل اعتبار الإنسان بما يغيب عنه كما هو حقه ٢١٢
تأثير مطاوعة الحكمة في نموها والإعراض عنها في فقدها ٢١٤
جهات الحكمة ومراتبها وتواضع صاحبها ٢١٥
حقيقتان عن الضمير الأخلاقي ٢١٦
١٨/ أ ـ أهمية الضمير الأخلاقي وامتيازه ودوره في وجود الإنسان ٢١٦
فرق الضمير عن سائر المشاعر الإنسانية ٢١٧
ابتناء صفة التضحية على الضمير الإنساني ٢١٨
تزويد الإنسان بمستوى متوسط من الضمير ولزوم تنميته ٢١٩
١٩/ ب ـ تشخيص قضاء الضمير والتحذير من اشتباهه بمزاجيات أخرى . ٢١٩
مساحات مشتبهة لحكم الضمير ومرجعية الشريعة فيها ٢٢١
حقائق عن المشاعر الإنسانية ٢٢٤
٢٠/ أ ـ ما منح الإنسان من المشاعر وأقسامها وتطورها وتربيتها ٢٢٤
٢١/ ب ـ أنواع المشاعر النفسية ودورها في حياة الإنسان ٢٢٦

هل فُطر الإنسان على بعض المشاعر الذميمة؟ ٢٢٧
سرّ تزويد الإنسان بالمشاعر الفطرية ٢٣٠
٢٢/ ج ـ المشاعر الاعتيادية نعمة للإنسان وابتلاء في هذه الحياة ٢٣١
٢٣/ د ـ صراع الشهوات وجنود العقل والضمير ٢٣٨
٢٤/ هـ ـ الاختلال في إدراك الدوافع النفسية ٢٤١
٢٥/ و ـ من المشاعر الفطرية ما يهدي إلى الله سبحانه والدار الآخرة ٢٤٧
٢٦/ ز ـ وجوه الاختلال في المشاعر الإنسانية وأنواع المشاعر المختلة ٢٥٠
٢٧/ ح ـ وصف جامع لعمق النفس الإنسانية وطبقاتها ٢٥٩
انقسام الأمور النفسية إلى الشعور الجلي والخفي واللاشعور الذهني ٢٦١
عوامل انتقال الدوافع إلى مرحلة اللاشعور ٢٦٣
وظائف لإنسان تجاه دوافعه ٢٦٤
(الوظيفة الأولى): رقابية ٢٦٤
(الوظيفة الثانية): فكرية ٢٦٥
(الوظيفة الثالثة): تربوية وعملية ٢٦٥
من الخطأ والنسيان ما يكون مذموماً ٢٦٦
نكات عامة في شأن الدواعي ٢٦٧
كبت الدواعي الفطرية ليس حكيماً ٢٦٧
عدم صحة تحميل النفس ما لا تحتمل ٢٦٩
لزوم صبر الإنسان والفرق بين الصبر والكبت ٢٧٠
ضرورة كون المرء خبيراً بأحوال نفسه ٢٧١
٢٨/ ط ـ التأثير المتبادل بين الإدراكات والدوافع النفسية ٢٧٢
حقائق عن التخيلات الإنسانية ٢٧٥
٢٩/ أ ـ وصف قوة التخيل وأنواع التخيلات وأدوارها الحميدة والذميمة ٢٧٥
٣٠/ ب ـ آفات التخيلات الإنسانية ووجوه اختلالها ٢٧٩
الضابط في التخيل الإيجابي والسلبي ٢٨٠
عدم كون التخيل الأدبي مذموماً ٢٨١
٣١/ ج ـ أنواع التخيلات المختلّة والذميمة ٢٨٣
حقائق عن القابليات الغامضة في النفس الإنسانية ٢٩٠

٣٢/ أ ـ استقبال الإنسان للإيحاءات الخارجية ٢٩٠
انقسام الإيحاءات إلى داخلية وخارجية ٢٩٠
مصادر الإيحاءات الخارجية ٢٩٢
الإيحاءات البشرية ٢٩٢
الإيحاءات الربانية وأقسامها ٢٩٣
الإيحاءات الشيطانية وأقسامها ٢٩٧
كون الوسوسة في العبادات من الإيحاءات الشيطانية ٣٠٠
التأصيل الشرعي في التعامل مع الإيحاءات النفسية ٣٠١
٣٣/ ب ـ أخطاء تقع في الإيحاءات الروحية ٣٠٢
٣٤/ ج ـ وصف التمثلات الروحية ومدى اعتبارها ٣٠٤
أقسام المنامات ٣٠٤
التأصيل الشرعي تجاه المنامات ٣٠٦
عدم صحة التمسك بالمنامات في إثبات الحقائق والأحكام ٣٠٨
القول في قيمة المكاشفات ٣٠٨
استنتاج ٣١١
٣٥/ د ـ التأثيرات الغامضة (خوارق العادات) ٣١٢
أقسام الخوارق ٣١٢
امتيازات الخوارق الربانية ٣١٦
لزوم الحذر في شأن دعاوي الخوارق ٣١٨
المنهج الصحيح في شأن اتفاق الخوارق للإنسان ٣٢٠
حقائق أخرى عامة ٣٢٢
٣٦/ أ ـ وصف جامع لما يؤثّر في النفس الإنسانية ٣٢٢
٣٧/ ب ـ وصف التأثيرات الجسمية في الإدراكات والمشاعر النفسية ٣٢٧
٣٨/ ج ـ اختلاف مكونات الشخصية الفردية ٣٣٤
ثناء ومسألة ٣٣٧
الفهرست ٣٣٩